



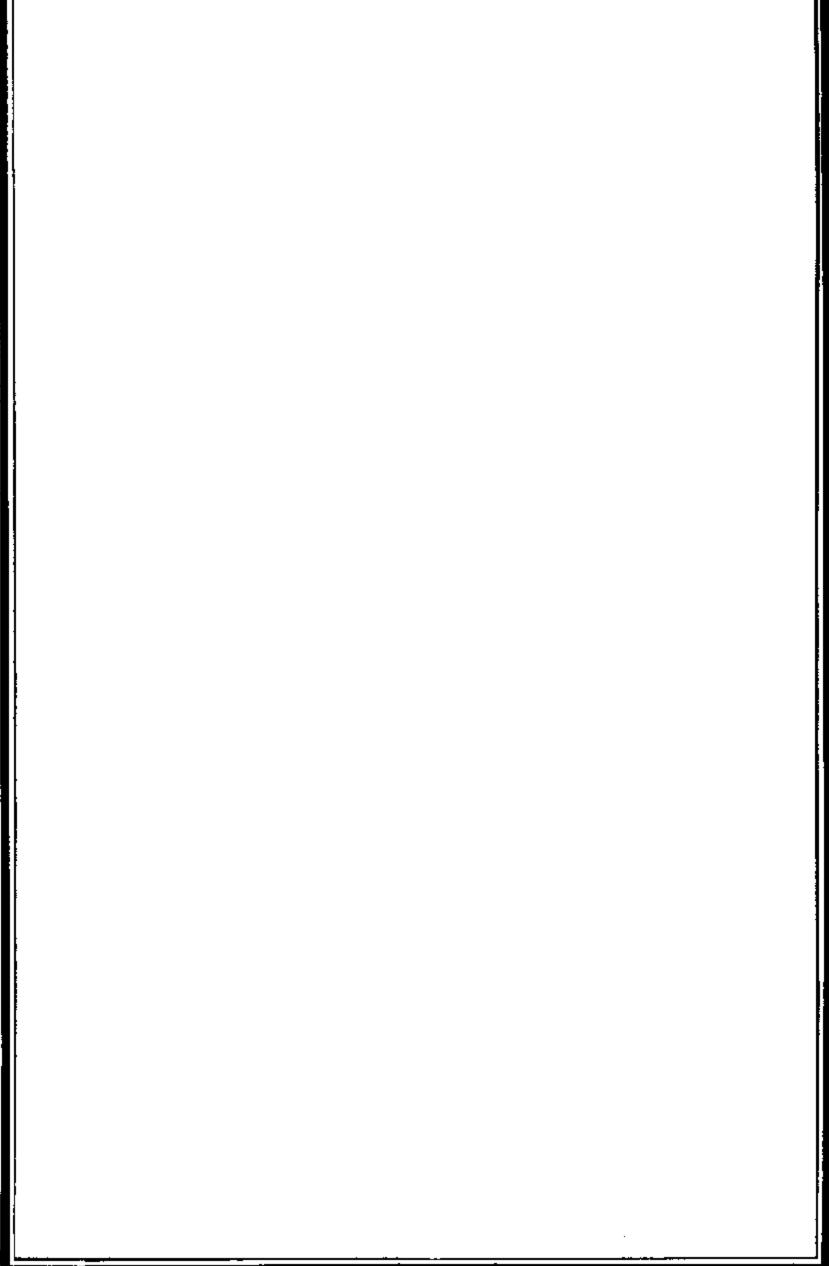
11

الشورك الذاركات

> خيسسّة الأعلىت









كتاب علمي فني ، فلسفي ، أدبي ، تاريخي ، رواني ، اجتماعي ، حديث يفسر القرآن بالقرآن

تانيف: العلامة اليت يدم محركت بين لطبا في

المَّا الْمُعْتَى مِنْ الْمُعْتَى مِنْ الْمُعْتَى مِنْ الْمُعْتَى مِنْ الْمُعْتَى مِنْ الْمُعْتَى مُنْ اللَّهِ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهِ مُنْ اللَّهِ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهِ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللّلِيلُولُ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُلِّلَّا اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللّلِي اللَّهُ مُنْ اللَّلِّي اللَّهُ مُنْ اللَّهِ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّالِمُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ ال

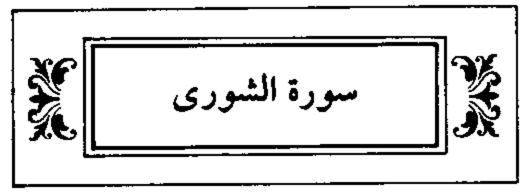
منشودات مؤمت الأعلى للمطبوعات بحبرون - بستنان من ب: ۲۱۲۰ الطبعة الأولى المحققة حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناشر 1217 هـ - ١٩٩٧مم

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف والناشر

مؤسَّسة الأعناكي للمَطبُوعات:

بَيروت مشارع المطسّاد م قرب كليسة الهسندسة مطل الاعلى مس.ب، ٧١٢

الهاتف: ٣٥٤٣٣٨ ـ تلفاكس: ٨٣٣٤٤٧ .



مكية ، وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

خَمْ (١) عَسَقَ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَٰاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَئِكَةُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلْئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظً عَلَيْهِمْ وَمُا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلِ (٦) .

(بیان)

تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه ورسله كما يدل عليه ما في مفتتحها من قبوله: ﴿كذلك يبوحي إليك وإلى الـذين من قبلك الله ﴾ الآية ، وما في مختتمها من قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا الخ ﴾ الأيات ، ورجوع الكلام إليه مرة بعد أخرى في قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ الآية ، وقوله: ﴿ وسرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ الآية ، وقوله: ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ الآية وما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ما سيجيء .

فالوحي هو الموضوع الذي يجري عليه الكلام في السورة وما فيها من التعـرض لآيــات التوحيــد وصفات المؤمنين والكفــار وما يستقبــل كــلاً من الفــريقين في معــادهـم ورجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثاني وكلام جره كلام .

والسورة مكية وقد استثني قوله: ﴿والذين استجابوا لـربهم﴾ إلى تمام ثـلاث آيات ، وقوله: ﴿وَقُلُ لا أَسَالُكُم عَلَيْهِ أَجِراً إلا المودة في القربي﴾ إلى تمام أربع آيات وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وحم عسق من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل عدة من السور القرآنية ، وذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماوية .

وقد اختلف المفسرون من القدماء والمتأخرين في تفسيرها وقد نقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحد عشر قولاً في معناها :

أحدها: أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تـأويلها إلا هو.

الثاني : أن كلًا منها اسم للسورة التي وقعت في مفتتحها .

الثالث: أنها أسماء القرآن أي لمجموعه.

الرابع: أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله: ﴿ المه معناه أنا الله أعلم ، وقوله: ﴿ المم معناه أنا الله أعلم وأرى ، وقوله: ﴿ المم معناه أنا الله أعلم وأفصل ، وقوله: ﴿ كهيعص الكاف من الكافي ، والهاء من الهادي ، والياء من الحكيم ، والعين من العليم ، والصاد من الصادق ، وهـو مروي عن ابن عباس ، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي ، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم ، ومنها ما هو مأخوذه من أحده من أعلم .

الخامس: أنها أسماء لله تعالى مقطعة لـو أحسن الناس تـأليفها لعلمـوا اسم الله الأعظم تقول: الرّ وحمّ ونّ يكون الرحمن وكذلك سائـرها إلا أنـا لا نقدر على تـأليفها وهو مروي عن سعيد بن جبير.

السادس : أنها أقسام أقسم الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن

كلامه وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة ، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأصول لغات الأمم على اختلافها .

السابع : أنها إشارات إلى آلائه تعالى وبلائه ومدة الأقوام وأعمارهم وآجالهم .

الشامن : أن المراد بها الإشارة إلى بقاء هذه الأمة على ما يدل عليه حساب الجمل .

التاسع : أن المراد بها حروف المعجم وقد استغنى بـذكر مـا ذكر منهـا عن ذكر الباقي كما يقال : اب ويراد به جميع الحروف .

العاشر: أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن وأن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله: ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه الآية ، فربما صفروا وربما صفقوا وربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي والمناسبة في تلاوته ، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها واستمعوا إليها وتفكروا فيها واشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم .

الحادي عشر: أنها من قبيل تعداد حروف التهجي والمراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم وكلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى ، وإنما كررت الحروف في مواضع استظهاراً في الحجة ، وهو مروي عن قطرب واختاره أبو مسلم الاصبهاني وإليه يميل جمع من المتأخرين .

فهذه أحد عشر قولاً وفيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس في ﴿الم﴾ أن الألف إشارة إلى الله واللام إلى جبريل والميم إلى محمد وأله من بعضهم أن الحروف المقطعة في أوائل السور المفتتحة بها إشارة إلى الغرض المبين فيها كأن يقال: إن «ن» إشارة إلى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود للنبي منظراتها، و «ق» إشارة إلى القرآن أو القهر الإلهي المذكور في السورة ، وما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ.

والحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم في بحث المحكم والمتشابه في أوائل الجزء الثالث من الكتاب أنه أحد الأقوال في معنى المتشابه ، وعرفت أن الإحكام والتشابه من

صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مداليلها ، وأن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث من مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها ومتشابهاتها ، وعلى هذا فلا هذه الحروف المقطعة متشابهات ولا معانيها المراد بها تأويلات لها .

وأما الأقوال العشرة الأخر فإنما هي تصويرات لا تتعمدي حد الاحتمال ولا دليل يدل على شيء منها .

نعم في بعض الروايات المنسوبة إلى النبي سَنْيَةٍ، وأَثْمَة أَهُـل البيت عليهم السلام بعض التأييد للقول الرابع والسابع والثامن والعاشر وسيأتي نقلهـا والكلام في مفادها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

والذي لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى وهي تسع وعشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد وهي ص وق و ن ، وبعضها بحرفين وهي سور طه وطش ويش وحم . وبعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي «الم» و «الر» و «طسم» وبعضها بأربعة أحرف كما في سورتي «المص» و «المر» وبعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «المص» و «المر» وبعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «حمعسق» .

وتختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثـل «ن» وبعضهـا واقعـة في مفتتـح عـدة من السـور مثــل «الم» و «الـر» و «طس» و «حم» .

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراآت والطواسين والحواميم ، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور .

ويؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قدوله: ﴿ تَنْزِيلُ الْكَتَابُ مِنْ الله ﴾ أو ما هو في معناه ، وما في مفتتح الراآت من قدوله: ﴿ تَلْكُ آيَاتُ الْكَتَابُ ﴾ أو ما هو في معناه ، ونظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين ، وما في مفتتح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه .

ويمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين

السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً ، ويؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصدرة بالمص في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات وص ، وكذا سورة الرعد المصدرة بالمر في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات والراآت .

ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله سنواله خواته ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين خفيت عنا لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطاً خاصاً .

ولعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف وقايس مضامين السور التي وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك .

ولعل هذا معنى ما روته أهل السنة عن علي طِنْكُ على ما في المجمع ـ أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي .

قوله تعالى: ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ إلى قوله ﴿العلى العظيم﴾ مقتضى كون غرض السورة بيان الوحي بتعريف حقيقته والإشارة إلى غايته وآثاره أن تكون الإشارة بقوله: ﴿كذلك﴾ إلى شخص الوحي بإلقاء هذه السورة إلى النبي مشنوا فيكون تعريفاً لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلاً هو كزيد.

وعليه يكون قوله: ﴿إليك وإلى الذين من قبلك﴾ في معنى إليكم جميعاً ، وإنما عبر بما عبر للدلالة على أن الوحي سنة إلهية جارية غير مبتدعة ، والمعنى أن الوحي الذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء _ نبياً بعد نبي سنة جارية _ هو كهذا الذي تجده وتشاهده في تلقى هذه السورة .

وقد أخذ جمهور المفسرين قوله: ﴿كذلك﴾ إشارة إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة إلى المعارف التي تشتمل عليها السورة وتتضمنها واستنتجوا من ذلك أن مضمون السورة مما أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه ، وقد عرفت أنه لا يوافق غرض السورة ويأباه سياق آياتها .

وقبوله: ﴿العبزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم ﴾ خمسة من أسمائه الحسني ، وقبوله: ﴿له ما في السماوات وما في

الأرض في معنى المالك ، وهو واقع موقع التعليل لأصل الوحي ولكونه سنة إلهية جارية فالذي يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هداية الناس إلى سعادة حياتهم في الدنيا والأخرة وليس لمانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد ، ولا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنه حكيم متقن في أفعاله ومن إتقان الفعل أن يساق إلى غايته .

ومن حقه تعالى أن يتصرف فيهم وفي أمورهم كيف يشاء ، لأنه مالكهم وله أن يعبدهم ويستعبدهم بالأمر والنهي لأنه على عظيم فلكل من الأسماء الخمسة حظه من التعليل ، وينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهة لا ولي غيره .

قوله تعالى : ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ النح التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق .

الذي يهدي إليه السياق والكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي وغايته وآثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه والسماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى : ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾(١).

والوجه في تقييد ﴿يتفطرن﴾ بقوله : ﴿من فوقهن﴾ ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من لـه العلو المطلق والعـظمة المـطلقة فلو تفـطرن كـان ذلـك من فوقهن .

على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلائه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفطرن بنزوله ولكونه كلاماً نازلاً من عند ذي العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن .

فالآية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله ومروره على السماوات ننظيرة قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا فَرْعَ عَنْ قَلُوبُهُمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبَّكُمْ قَالُوا الْحَقِّ وَهُو الْعَلَّي الْكَبِيرِ ﴾ (٢) في إعظامه من حيث تلقي ملائكة السماوات إياه ، ونظيرة قوله : ﴿ لُو أَنْزِلْنَا هَذَا القرآن

⁽١) المؤمنون : ١٧ .

٠ (٢) سبأ : ٢٣

على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴿(١) في إعظامه على فـرض نزولـه على جبل ونظيرة قوله : ﴿إِنَا سنلقي عليك قولاً ثقيـلاً﴾(٢) في استثقالـه واستصعاب حمله . هذا ما يعطيه السياق .

وقد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين :

أحدهما: أن المراد تفطرهن من عظمة الله وجلاله جل جلاله كما يؤيده توصيفه تعالى قبله بالعلي العظيم .

وثانيهما: أن المراد تفطرهما من شرك المشركين من أهل الأرض وقولهم: واتخذ الرحمن ولداً فقد قال تعالى فيه: وتكاد السماوات يتفطرن منه (٣) فأدى ذلك إلى التكلف في توجيه تقييد التفطر بقوله: ومن فوقهن وخاصة على المعنى الثاني، وكذا في توجيه اتصال قوله: ووالملائكة يستغفرون لمن في الأرض الخ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم.

وقوله: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحة قدسه ويثنون عليه بجميل فعله ، ومما لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي وهو منه فعل جميل ، ويسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض ، وحصول المغفرة إنما هو بحصول سببها وهو سلوك سبيل العبودية بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك .

ويشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي وكذا تعلق الاستغفار بمن في الأرض إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾(٤) المن قال: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾(٤) الآية ، فالمتعين حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به .

وقوله : ﴿ أَلَا إِنْ الله هو الغفور الرحيم ﴾ أي إن الله سبحانه لاتصافه بصفتي

(۱) الحشر : ۲۱ . (۳) مريم : ۹۰ .

(٢) المؤمل : ٥ .(٤) المؤمن : ٧ .

المغفرة والرحمة وتسميه باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفرة والرحمة من عنده وهو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي والتكليم .

قيل : وبني قوله : ﴿ أَلَا إِنْ الله ﴾ النح إشارة إلى قبول استغفار الملائكة وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة .

قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولي غيره وهو يتولى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، ولازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه ، أشار في هذه الآية إلى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له في الربوبية والألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون وأن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها ، وليس على النبي وسناه الله إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلاً عليهم مسؤولاً عن أعمالهم .

فقوله : ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي يحفظ عليهم شـركهم ومـا يتفـرع عليـه من الأعمال السيئة .

وقوله : ﴿وما أنت عليهم بوكيـل﴾ أي مفوضاً إليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدايتهم إلى الحق ، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبي المنطقة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله مسلمة وهو يتلو فاتحة سورة البقرة وألم ذلك الكتاب فأتاه أخوه حيى بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون ؟ والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه وألم ذلك الكتاب فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم .

فمشى أولئك النفر إلى رسول الله ممنية فقالوا: يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿ أَلَمُ ذَلِكُ الْكَتَابِ ﴾ ؟ قال: بلى . قالوا: قد جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال: نعم . قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي لهم

سورة الشورى ـ آية ٦ ٦ ... ١٣

ما مدة ملكه ؟ وما أجل أمته غيرك .

فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه : الألف واحدة والـلام ثلاثـون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة .

ثم أقبل على رسول الله بسلام فقال: يا محمد هل مع هذا غيره ؟ قال: نعم . قال: ماذا ؟ قال: المص قال: هذا أثقل وأطول الألف واحدة ، واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه مائة وإحدى وستون سنة هل مع هذا يبا محمد غيره ؟ قال: نعم . قال: ماذا ؟ قال: الر. قال: هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا غيره ؟ قال: نعم قال: ماذا ؟ قال المر قال: فهذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان .

ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً ؟ ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حيى ومن معه من الأحبار: ما يدريكم ؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون فقالوا: لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الأيات نزلت فيهم: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾.

أقول: وروي قريباً منه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وروى مثله أيضاً القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر النهي وليس في الرواية ما يدل على إمضاء النبي والمنابهة غير الحروف المقطعة في فواتح العسوه حجة ، وقد تقدم أن الآيات المتشابهة غير الحروف المقطعة في فواتح السور .

وفي المعاني بإسناده عن جويرية عن سفيان الثوري قال: قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سُتُنَان يا ابن رسول الله ما معنى قول الله عز وجل: الم والمص والر والمر وكهيعص وطه وطس وطسم ويس وص وحم وحمعسق وق ون ؟

قال عناه أما الم في أول البقرة فمعناه أنا الله الملك ، وأما الم في أول آل عمران فمعناه أنا الله المجيد ، والمص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق ، والر فمعناه أنا الله الرؤوف ، والمر فمعناه أنا الله الرؤوف ، وكهيعص معناه أنا الله الرؤوف ، وكهيعص معناه أنا الله الكافي الهادي الولي العالم الصادق الوعد ، فأما طه فاسم من أسماء النبي المناسلة ومعناه يا طالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به .

وأما طس فمعناه أنا الطالب السميع ، وأما طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدي المعيد ، وأما السامع للوحي المبدي المعيد ، وأما يس فاسم من أسماء النبي المرابية ومعناه يا أيها السامع للوحي والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم .

وأما ص فعين تنبع من تحت العرش وهي التي توضأ منها النبي المنائج لما عرج به ويدخلها جبرئيل كل يوم دخلة فيغتمس فيها ثم يخرج منها فينفض أجنحته فليس من قطرة تقطر من أجنحته إلا خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً يسبح الله ويقدسه ويكبره ويحمده إلى يوم القيامة.

وأما حم فمعناه الحميد المجيد ، وأما حمعسق فمعناه الحليم المثيب العالم السميع القادر القوي ، وأما ق فهو الجبل المحيط بالأرض وخضرة السماء منه وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها ، وأما ن فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل اجمد فجمد فصار مداداً ثم قال عز وجل للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور .

قال سفيان: فقلت له: يا ابن رسول الله بين لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني مما علمك الله فقال: يا ابن سعيد لولا أنك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك، والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك، واللوح يؤدي إلى السرافيل، وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل، وميكائيل يؤدي إلى جبرئيل، وجبرئيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم. قال: ثم قال لى : قم يا سفيان فلا آمن عليك.

أقول: ظاهر ما في الرواية من تفسير غالب الحروف المقطعة بأسماء الله الحسنى أنها حروف مأخوذة من الأسماء إما من أولها كالميم من الملك والمجيد

سورة الشوري ـ آية ٦١٠٠٠ • ١٠

والمقتر، وإما من بين حروفها كاللام من الله والياء من الولي فتكون الحروف المقطعة إشارات على سبيل الرمز إلى أسماء الله تعالى، وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس والربيع بن أنس وغيرهما لكن لا يخفى عليك أن الرمز في الكلام إنما يصار إليه في الإفصاح عن الأمور التي لا يريد المتكلم أن يطلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه بما لا يتعداه ومخاطبه ولا يقف عليه غيرهما وهذه الأسماء الحسني قد أوردت وبينت في مواضع كثيرة من كلامه تعالى تصريحاً وتلويحاً وإجمالاً وتفصيلاً ولا يبقى مع ذلك فائدة في الإشارة إلى كل منها بحرف مأخوذ منه رمزاً إليه .

فالوجه ـ على تقدير صحة الرواية ـ أن يحمل على كون هذه الأحرف دالة على هذه المعاني دلالة غير وضعية فتكون رموزاً إليها مستورة عنا مجهولة لنا دالة على مراتب من هذه المعاني هي أدق وأرقى وأرفع من أفهامنا ، ويؤيد ذلك بعض التأييد تفسيره الحرف الواحد كالميم في المواضع المختلفة بمعان مختلفة ، وكذا ما ورد أنها من حروف اسم الله الأعظم .

وقوله: هوأما ق فهو الجبل المحيط بالأرض وخضرة السماء منه الخ وروى قريباً منه القمي في تفسيره، وهو مروي بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره، ولفظ بعضها جبل من زمرد محيط بالدنيا على كنفا(١) السماء، وفي بعضها أنه جبل محيط بالأرض والسماء الدنيا مترفرفة عليها وأن هناك سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات.

وفي بعض ما عن ابن عباس : خلق الله جبلًا يقال له : ق محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلـزل قريـة أمر ذلـك الجبـل فحـرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

والروايات بظاهرها أشبه بالإسرائيليات ، ولولا قوله : «وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها» لأمكن حمل قوله : «وأما ق فهو الجبل المحيط بالدنيا وخضرة السماء منه» على إرادة الهواء المحيط بالأرض بضرب من التأويل .

وأما قوله : إن طه ويس من أسماء النبي سنن بالمعنى الذي فسره به فينبغي أن

⁽١) الكنف يفتحنين الجانب وكنفا السماء جانباه .

يحمل أيضاً على ما قدمناه به ويفسر الروايات الكثيرة الواردة من طرق العامة والخاصة في أن طه ويس من أسماء النبي عَنْوَكِ .

وأما قوله في ن أنه نهر صيره الله مداداً كتب به القلم بأمره على اللوح ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وأن المداد والقلم واللوح من النور ثم قوله : إن المداد ملك والقلم ملك واللوح ملك فهو نعم الشاهد على أن ما ورد في كلامه تعالى من العرش والكرسي واللوح والقلم ونظائر ذلك وفسر بما فسر به في كلام النبي مندان وأثمة أهل البيت عليهم السلام من باب التمثيل أريد به تقريب معارف حقيقية هي أعلى وأرفع من سطح الأفهام العامة بتنزيلها منزلة المحسوس .

وفي المعاني أيضاً بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله علنه والم الله علم الله علم الله علم الله علم الله الأعظم المقطع في القرآن الذي يؤلفه النبي علم الله والإمام فإذا دعا به أجيب . الحديث .

أقول: كون هذه الحروف المقطعة من حروف اسم الله الأعظم المقطع في التحث القرآن مروي بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره، وقد تبين في البحث عن الأسماء الحسنى في سورة الأعراف أن الاسم الأعظم الذي له أثره الخاص به ليس من قبيل الألفاظ، وأن ما ورد مما ظاهره أنه اسم مؤلف من حروف ملفوظة مصروف عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له.

وفيه بإسناده عن محمد بن زياد ومحمد بن سيار عن العسكري مشخف أنه قال: كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا: سحر مبين تقوله فقال الله: ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها ألف لام ميم وهو بلغتكم وحروف هجاءكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم. الحديث.

أقول: والحديث من تفسير العسكري وهو ضعيف.

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر منتخ في قسوله تعالى : ﴿يتفطرن من فوقهن﴾ أي يتصدعن .

وعن جوامع الجامع في قـوله تعـالى : ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ قـال الصادق ﷺ : لمن في الأرض من المؤمنين .

أقول : وروي مَّا في معناه في المجمع عنه علاظه ورواه القمي مضمراً .

سورة الشوري ـ آية ٧ ـ ١٢

۱۷

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَیْنَا إِلَیْكَ قُرْآناً عَرَبِیّاً لِتَنْدِرَ أُمَّ الْقُرٰی وَمَنْ حَوْلَهٰا وَتُنْدِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَیْبَ فِیهِ فَسریقٌ فِی الْجَنَّةِ وَفَسریقٌ فِی الْجَنِّةِ وَفَسریقٌ فِی السَّعِیرِ (۷) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلٰكِنْ یُدْخِلُ مَنْ یَشٰاءُ السَّعِیرِ (۷) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلٰكِنْ یُدْخِلُ مَنْ یَشٰاءُ دُونِهِ أَوْلِیَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِیُّ وَهُو یُحْیِی الْمَوْتِی وَهُو عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَی اللَّهِ ذٰلِکُمُ اللَّهُ رَبِّی فَدِیرٌ (۹) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَی اللَّهِ ذٰلِکُمُ اللَّهُ رَبِّی فَلَیْدِ وَالْدُولِیُ وَهُو یَکُمُهُ إِلَی اللَّهِ ذٰلِکُمُ اللَّهُ رَبِّی عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَإِلَیْهِ أَنِیبُ (۱۰) فَاطِرُ السَّمٰواتِ وَالْارْضِ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ شَیْءٍ وَهُو السَّمِیمُ الْزُواجِاً وَمِنَ الْاَنْعَامِ أَزْوَاجاً یَذْرَوکُمْ فِیهِ لَیْسَ کَمِثْلِهِ مِنْ شَیْءٍ وَهُو السَّمِیعُ الْبَصِیرُ (۱۱) لَهُ مَقَالِیدُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ بَسَاءُ وَیَقْدِرُ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۲) . اللَّهُ مَقَالِیدُ السَّمٰواتِ وَالْارْضِ وَالْارْضِ بَشَاءُ وَیَقْدِرُ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۳) .

(بیان)

فصل ثان من الآيات يعرف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه كما عرفه في الفصل السابق بالإشارة إليه نفسه .

فبين في هذا الفصل أن الغرض من الوحي إنذار الناس وخماصة الإنـذار المتعلق بيوم الجمع الـذي يتفرق فيـه الناس فـريقين فريق في الجنـة وفريق في السعيـر إذ لولا الإنذار بيوم الجمع الذي فيه الحساب والجزاء لم تنجح دعوة دينية ولم ينفع تبليغ .

ثم بين أن تفرقهم فريقين هو الذي شاءه الله سبحانه فعقبه بتشريع المدين وإنذار الناس يوم الجمع من طريق الموحي لأنه وليهم المذي يحييهم بعد موتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه .

ثم ساق الكلام فـانتقل إلى تــوحيد الــربوبيــة وأنه تعــالى هو الــرب لا رب غيــره لاختصاصه بصفات الربوبية من غير شريك يشاركه في شيء منها .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَلَكُ أُوحِينَا إِلَيْكَ قَرَآنَاً عَرِبِياً لِتَنْذَرَ أَمَ القَرَى وَمَنَ حَوْلُهَا﴾

الإشارة إلى الوحي المفهوم من سابق السياق ، وأم القرى هي مكة المشرفة والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها ، والمراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممن هو خارج مكة كما يؤيده توصيف القرآن بالعربية .

وذلك أن الدعوة النبوية كانت ذات مراتب في توسعها فابتدأت الدعوة العلنية بدعوة العشيرة الأقربين كما قال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(١) ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامة كما قال: ﴿قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾(٢) ثم بجميع الناس كما قال: ﴿وأنزل إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾.

ومن الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجاً قوله تعالى : ﴿قُلُ مَا أَسَالُكُم عَلَيْهُ مَا أَجَرَ ﴾ إلى أن قال ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾(٣) فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السورة لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض ، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم - كالنبي المناش - بعضاً عليه أجراً .

على أن تعلق الدعوة بأهل الكتاب وخاصة باليهـود والنصارى من ضـروريات القرآن ، وكذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي من ضروريات التاريخ .

وقيل المراد بقوله: ﴿من حولها﴾ سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها ويؤيده التعبير عن مكة بأم القرى .

والآية ـكما ترىـ تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهي وهو النبوة فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوة والإنذار .

قوله تعالى : ﴿وتنذر يـوم الجمع لا ريب فيـه فـريق في الجنـة وفـريق في السعير ﴾ عطف على ﴿تنذر ﴾ السابق وهو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل : لتنذر الناس وتخوفهم من الله وخاصة من سخطه يوم الجمع .

وقوله : ﴿يُومُ الْجُمْعُ﴾ مَفْعُولُ ثَانَ لَقُولُهُ : ﴿تَنْذُرُ﴾ وليس بَطْرَفُ لَـهُ وهُـو

⁽١) الشعراء : ٢١٤ .

⁽٢) حم السجدة : ٣ ,

⁽٣) ص : ۸۷ .

ظاهر ، ويوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى : ﴿ ذَلَكَ يُومُ مَجْمُوعُ لَهُ النَّاسَ ﴾ إلى أن قال ﴿ فَمَنْهُم شَقَى وَسَعِيدٌ ﴾ (١) .

وقوله: ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ في مقام التعليل ودفع الدخل كأنه قيل: لماذا ينذرهم يوم الجمع ؟ فقيل: ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ أي إنهم يتفرقون فريقين: سعيد مثاب وشقي معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة.

قوله تعالى : ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ إلى آخر الآية لما كانت الآية مسوقة لبيان لؤوم الإنذار والنبوة من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم أمة واحدة مطلق رفع التفرق والتميز من بينهم بتسويتهم جميعاً على صفة واحدة من غير فرق وميز ، ولم تقع عند ذلك حاجة إلى النبوة والإنذار .

وقوله: ﴿ وَلَكُن يَدِخُلُ مِن يُشَاءُ فِي رَحَمَتُهُ وَالنَظَالُمُونَ مَا لَهُمْ مِن وَلِي وَلاَ نُصِيرِ ﴾ استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم أمة واحدة يدل على ذلك قوله: ﴿ يُدِخُلُ مِن يَشَاءُ ﴾ الدال على الاستمرار، ولم يقل: ولكن أدخل ونحوه.

وقد قوبل في الآية قوله: ﴿من يشاء ﴾ بقوله: ﴿والظالمون ﴾ فالمراد بمن يشاء غير الظالمين وقد فسر الظالمين يوم القيامة بقوله: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين اللذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾(٢) فهم المعاندون المنكرون للمعاد.

وقوبل أيضاً بين الإدخال في الرحمة وبين نفي الولي والنصير فـالمدخلون في رحمته هم الذين وليهم الله ، والذين ما لهم من ولي ولا نصير هم الذين لا پـدخلهم الله في رحمته ، وأيضاً الرحمة هي الجنة وانتفاء الولاية والنصرة يلازم السعير .

فمحمل معنى الآية : أن الله سبحانه إنما قدر النبوة والإنذار المتفرع على

⁽١) هود : ١٠٥ .

⁽٢) الأعراف : ٥٥ .

الوحي لمكان ما سيعتريهم يوم القيامة من التفرق فريقين ، ليتحرزوا من الدخول في فريق السعير .

ولو أراد الله لجعلهم أمة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرقوا يوم القيامة فريقين فلم يكن عند ذلك ما تقتضي النبوة والإنذار فلم يكن وحي لكنه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنة وفي رحمته ، ولا يتولى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا لا ولي لهم ولا نصير ويصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار .

فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم أمة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنة وإدخال الجميع في السعير أي إنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنة والأشقياء في النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين وجرت سنته على ذلك ووعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ومع ذلك فقدرته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغير فقوله: ﴿وتنذر يـوم الجمع لا ريب فيه إلى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود: ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس إلى تمام سبع آيات فراجع وتدبر.

وقيل: المراد بجعلهم أمة واحدة جعلهم مؤمنين جميعاً داخلين في الجنة ، قال في الكشاف: والمعنى ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ، ويترك الظالمين بغير ولى ولا نصير في عذابه .

واستدل على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ (١) وقوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ (١) وقوله: ﴿ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ (١) والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أَفَانَت تَكُره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

وفيه أن الأيات ـ كما عرفت مسوقة لتعريف الوحي من حيث غمايته وأن تفرق في النماس يوم الجمع : فريقين سبب يستدعي وجود النبوة والإنـذار من طـريق

الم السجدة : ١٣ .
 الم السجدة : ١٣ .

سورة الشورى ـ آية ٧ ـ ٨

الوحي ، وقوله : ﴿ولو شـاء الله لجعلهم أمة واحـدة﴾ مسوق لبيــان أنه تعــالى ليس بمجبر على ذلك ولا ملزم به بل لـه أن لا يفعل ، وهـذا المعنى يتم بمجـرد أن لا يجعلهم متفرقين فريقين بل أمة واحدة كيفما كانوا ، وأما كونهم فـرقة واحـدة مؤمنة بالخصوص فلا مقتضى له هناك .

وأما ما استـدل به من الأيتين فسيـاقهما غيـر سيـاق الآيــة المبحـوث عنهـا ، والمراد بهما غير الإيمان القسري الذي ذكره وقد تقدم البحث عنهما في الكتاب .

وقيل : إن الأنسب للسياق هو اتحادهم في الكفر بأن يـراد جعلهم أمة واحـدة كافرة كما في قوله : ﴿ كَانَ النَّاسَ أَمَةُ وَاحْدَةً فَبَعَثُ اللهِ النَّبِينَ ﴾ (١) فالمعنى : ولـو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولًا ينذرهم فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته أي شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم فيتأثر به من تأثر فيوفقهم الله للإيمان والطاعات في الدنيـا ويدخلهم في رحمتـه في الأخرة ، ولا يتأثر به الأخرون وهم الظالمون فيعيشون في الدنيا كـافرين ويصيـرون في الأخرة إلى السعير من غير ولي ولا نصير .

وفيه أولاً : أن المراد من كون الناس أمة واحدة في الآية المقيس عليها ليس هو اتفاقهم على الكفر بل عدم اختلافهم في الأمور الراجعة إلى المعاش كما تقدم في تفسير الآية ، ولو سلم ذلك أدى إلى التنافي البيِّن بين المقيسة والمقيس عليها لدلالة المقيسة على التفرق وعدم الاتحاد دلالة المقيس عليها على تبوت الاتحاد وعدم التفرق .

ولــو أجيب عنه بــأن المقيس عليها تــدل على كون النــاس أمة واحــدة بحسـب الطبع دون الفعلية فلا تنافي بين الأيتين ، رد بمنافاته لمــا دل من الأيات على كــون الإنسان مؤمناً بحسب الفيطرة الأصلية كقبوله تعالى : ﴿وَنَفُسُ وَمَا سُواهَا فَالْهُمُهَا فجورها وتقواهاكو(٢) .

وثانياً: أن فيه إخراجاً لقوله: ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ عن المقابلة مع قوله : ﴿والظالمون﴾ الخ من غير دليل ، ثم تكلف تقدير ما يفيـد معناه ليحفظ به ما يقبده الكلام من المقابلة .

⁽١) البقرة : ٢١٣ .

قوله تعالى : ﴿أَمُ الْتَخْدُوا مِن دُونَهُ أُولِياءُ فَاللهُ هُو الْمُولِي﴾ إلى قول ﴿ فَحَكُمهُ إلى الله ﴿ وَأُم ﴾ تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري . لما أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة في دخلهم في رحمته وأن السظالمين هم الكافرون المعاندون لا ولي لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء بدينون لهم ويعبدونهم من دونه وكان يجب أن يتخذوا الله ولياً بدينون له ويعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتج على وجوب اتخاذه ولياً بالحجة بعد الحجة وذلك قوله : ﴿ فَاللهُ هُو الولِي ﴾ الخ .

فقوله: ﴿ فَالله هُو الولِي ﴾ تعليل لـ لإنكار السـابق لاتخاذهم من دونه أولياء في فيكون حجة لوجوب اتخاذه ولياً ، والجملة _ فالله هُو الولي _ تفيد حصر الولاية في الله وقد تبينت الحجة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة : ﴿ العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم ﴾ كما أشرنا إليه في تفسير الآيات .

والمعنى : أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ وليـاً أن يتخذه ولياً ولا يتعداه إلى غيره إذ لا ولي غيره .

وقوله: ﴿وهو يحي الموتى ﴿ حجة ثانية على وجوب اتخاذه تعالى وحده ولياً ، ومحصله أن عمدة الغرض في اتخاذ الولي والتدين له بعبوديته التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة والمثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله المذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ ولياً دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون .

وقوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ حجة ثالثة على وجوب اتخاذه تعالى ولياً دون غيره، ومحصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤون من يتولاه وأموره، والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى وتقدس.

وقوله : ﴿ وَمَا اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ حجة رابعة على كونه تعالى ولياً لا ولي غيره ، وحكم الحاكم بين المختلفين هـ و إحكامـ وتثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات والنفي ، والاختلاف ربما كان في عقيدة

كالاختلاف في أن الإله واحد أو كثير ، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة وشؤون الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقاً وإن اختلفا مفهوماً .

ثم الحكم والقضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك والولاية وإن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتخذاه حكماً ليحكم بينهما ويتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى وأعطياه من نفسهما القبول والتسليم فهو وليهما في ذلك .

والله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كمل شيء بوجوده وآثار وجوده قائماً به تعالى فله الحكم والقضاء بالحق قال تعالى : ﴿كُلُ شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾(١) ، وقال ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾(١) وقال : ﴿الحق من ربك﴾(٣) .

وحكمه تعالى إما تكويني وهو تحقيقه وتثبيته المسببات قبال الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم ما نسميه سبباً تماماً على غيره قال تعالى حاكياً عن يعقوب عليها المتنازعة فيها الحكم إلا لله عليه توكلت (٤) وإما تشريعي كالتكاليف الموضوعة في الدين الإلهي الراجعة إلى الاعتقاد والعمل قال تعالى : ﴿إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ (٥) .

وهناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه وإظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان وإيقان فيسعد به وبآثاره من كان مع الحق ويشقى بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى : ﴿فَالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾(١).

ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير إليه قوله تعالى : وكان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم

 ⁽۱) القصص : ۸۸ .
 (۳) آل عمران : ۲۰ .
 (۵) يوسف : ۲۰ .

⁽٢) المائلة : ٢ . (٤) يوسف : ٦٧ . (٦) البقرة : ١١٣ .

البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه (١) ، وقد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده ولياً فيعبد ويدان بما أنزله من الدين .

وهذا معنى قوله: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ ومحصل الحجة أن الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لاختلافات من يتولونه مصلحاً لما فسد من شؤون مجتمعهم سائقاً لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهبو الدين ، والحكم في ذلك إلى الله سبحانه ، فهبو الولي الذي يجب أن يتخذ ولياً لا غير .

وللقوم في تفسير الآية أعني قوله: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ تفاسير أخر فقيل: هو حكاية قول رسول الله وتعديم للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ذكره صاحب الكشاف.

وقيل معناه ما اختلفتم فيه وتنازعتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله مُشَلِّنَهُ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقولـه تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيء فَردُوه إلى الله والرسول﴾ .

وقيل : المعنى ما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانـه إلى محكم كتاب الله وظاهر سنة رسول الله سناه.

وقيل: المعنى وما اختلفتم فيه من العلوم مما لا يتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم كمعرفة الروح قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾. والآية على جميع هذه الأقوال من كلام النبي مُسْنَاتُ إما بنحو الحكاية وإما بتقدير وقل، في أولها.

وأنت بالتدبر في سياق الأيـات ثم الرجـوع إلى ما تقـدم لا ترتـاب في سقوط هذه الأقوال .

قـوله تعـالى : ﴿ذَلَكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهُ تـوكلت وإليه أُنيب﴾ كـلام محكي للنبي

(١) البقرة : ٢١٣ .

سورة الشورى-آية ١١ ١٠٠ مسورة الشورى-آية ١١ ٢٥

نَشِيْتُهُم، والإشارة بذلكم إلى من أقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتخاذه ولياً وهو الله سبحانه ، ولازم ولايته ربوبيته .

لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لا ولي غيره أمر نَشِنَتُ بإعلام أنه الله وأنه اتخذه ولياً بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور من الآثار وهو قوله : ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

وذلك أن ولاية الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الأمور وتنظيم الأسباب والمسببات بحيث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلاً ما قدر له من الوجود والبقاء، وتتعلق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين وأحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به إلى كمال سعادته.

ولازم اتخاذه تعالى رباً ولياً من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية والركون إليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كل سبب وهذا هو التوكل ، ومن جهة التشريع الرجوع إلى حكمه في كل واقعة يستقبله الإنسان في مسير حياته وهذا هو الإنابة فقوله : ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي أرجع في جميع أموري ، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكويناً وتشريعاً .

قوله تعالى : ﴿ فَاطَرُ السَمَاوَاتُ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآية لما صرح بأنه تعالى هو ربه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحده عقب ذلك بإقامة الحجة في هذه الآية والتي بعدها على ربوبيته تعالى وحده .

ومحصل الحجة: أنه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجاً فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجاً فكثرها بذلك لتتفعوا بها، وهذا خلق وتدبير، وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج فيقضي لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادخر فيها ما لها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق عن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير فهو الرب

فقوله : ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي موجـدها من كتم العـدم على سبيل الإبداع .

وقوله: ﴿ وَجعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ وذلك بخلق الذكر والأنثى اللذين بتم بتزاوجهما أمر التوالد والتناسل وتكثر الأفراد ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أي وجعل من الأنعام أزواجاً ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يكثركم في هذا الجعل ، والخطاب في ﴿ يذرؤكم ﴾ للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري .

وقوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أي ليس مثله شيء ، فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب .

وقوله: ﴿وهو السميع البصير﴾ أي السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى: ﴿وسأله من في السماوات والأرض﴾(١)، وقال: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾(٢)، وقال: ﴿والله بما تعملون بصير﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ إلى آخر الآية المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات والأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر في الكون من الحوادث والأثار الوجودية.

وقوله : ﴿ يَسِطُ الرَّرَقُ لَمِنَ يَشَاءُ وَيَقَدُرُ ﴾ بسط الرَّزَقُ تُوسِعتُهُ وقدره تَضييقهُ والرزق كل ما يمد به البقاء ويرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره .

وتذييل الكلام بقوله: ﴿إنه بكل شيء عليم ﴾ للإشارة إلى أن الرزق واختلافه في موارده بالبسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلاً بل عن علم منه تعالى بكل شيء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق بحسب حاله وما يحف بهما من الأوضاع والأحوال الخارجية ، وهذا هو الحكمة فهو يبسط ويقدر بالحكمة .

⁽١) الرحمن : ٢٩ .

⁽٢) إبراهيم : ٣٤ .

⁽٣) الحديد : ٤ .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّى لَقَضِي بَعْياً بَيْنَهُمْ وَإِنَّ النَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكَ مِنْ مَنْ بَعْدِهِمْ لَقِي شَكَ مِنْ مَنْ بَعْدِهِمْ لَقِي شَكَ مِنْ مَنْ بَعْدِهِمْ لَقِي شَكَ مِنْ مَنْ بَعْدِمَعُ بَيْنَنَا وَإِيْهِ لَنَا أَمْرُتَ وَلا تَتَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ لَنَا أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِيْهِ لَنَا أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِيْهِ لَنَا أَمْ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ لَنَا مَالِكُهُ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ لَيْهُمْ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ لَكُ مُنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ شَدِيدٌ (١٥) . وَالَّذِينَ يُحَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ مُنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ شَدِيدً لَكُهُمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدً (١٦) .

(بیسان)

فصل ثالث من الأيات يعرف الوحي الإلهي بأثره الذي هو مفاده وما احتوى عليه من المضمون وهو الـدين الإلهي الواحـد الذي يجب على النـاس أن يتخذوه سنـة في الحياة وطريقة مسلوكة إلى سعادتهم .

وقد بين فيها بحسب مناسبة المقام أن الشريعة المحمدية أجمع الشرائع المنزلة وأن الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي وإنما هي من بغي الناس بعد علمهم ، وفي الآيات فوائد أُخر أشير إليها في خلالها .

قوله تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى عنال : شرع الطريق شرعاً أي سواه طريقاً واضحاً

بيناً . قال الراغب : الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل مقترناً بوعظ من قـولهم : أرض واصية متصلة النبات ويقال : أوصاه ووصاه انتهى . وفي معناه إشعار بالأهمية فما كـل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصي ويعتني بشأنه .

فقوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ أي بين وأوضح لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد إلى نوح مهتماً به ، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وأمته ، وأن المراد مما وصى به نوحاً شريعة نوح الشناء .

وقوله: ﴿والذي أوحينا إليك﴾ ظاهر المقابلة بينه وبين نوح علنه أن المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام، وإنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما يهتم به ويعتني بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال، وشريعته على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال أممهم والموافق لمبلغ استعدادهم.

والالتفات في قوله : ﴿والذي أوحينا﴾ من الغيبة إلى التكلم مع الغير للدلالـة على العظمة فإن العظماء يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم .

وقوله : ﴿وَمَا وَصِينَا بِـه إِبْرَاهِيم وَمُوسِي وَعَيْسِي﴾ عطف على قوله : ﴿وَمَا وَصِينَا بِـه إِبْرَاهِيم وَمُوسِي وَعَيْسِي ﴾ عطف على قوله : ﴿وَمَا وَصِي بِهِ ﴾ والمراد به ما شرع لكل واحد منهم عليهم السلام .

والترتيب الذي بينهم عليهم السلام في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام ، وإنما قدم ذكر النبي النبي التشريف والتفضيل كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخذنا مِنْ النبيينِ مِيثَاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ (١) وإنما قدم نوحاً وبدأ به للدلالة على قدم هذه الشريعة وطول عهدها .

ويستفاد من الآية أمور :

أحدها: أن السياق بما أنه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية والآية التالية يعطي أن الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قول تعالى :

⁽١) الأحزاب: ٧.

﴿لَكُلَ جَعَلْنَا مَنَكُم شُرِعَة وَمِنْهَاجَاً﴾(١) لأن كُون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها .

الثاني: أن الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة.

ولازم ذلك أولاً: أن لا شريعة قبل نوح على القوانين الحاكمة في المجتمع الإنساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسَ أُمة واحدة فبعث الله النبيين﴾(٢).

وثانياً: أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا .

الثالث: أن الأنبياء أصحاب الشرائع وأولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدل على تقدمهم أيضاً قوله: ﴿ وَإِذْ أَحَدْنَا مِنَ النبيينِ مِيثَاقِهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ (٣).

وقوله : ﴿أَنْ أَقْيِمُوا اللَّذِينَ وَلَا تَتَفُرقُوا﴾ أَنْ تَفْسَيْسِرِيَة ، وإقَّامَة الَّذِينَ حَفَظُهُ بِالاتَّبَاعُ واللَّمْ في اللَّذِينَ للعهد أي أقيمُوا هذا اللَّين المشروع لكم ، وعـدم التَّفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه .

لما كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعاً باتباعه والعمل به من غير اختلاف فسره بالأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً وعدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض وترك بعض ، وإقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به .

فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته وعدم التفرق فيه فأما الأحكام السماوية المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأما الأحكام المشرعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة

٠ (١) المائلة : ٨٨ .

⁽٢) البقرة : ٢١٣ .

اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾(١) فالحكم المنسوخ حق دائماً غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه .

فتبين أن الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه في قوله : ﴿أَنْ أَقَيْمُوا الَّذِينَ وَلَا تَقْرُقُوا فَيْهِ ﴾ مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان .

وبذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامة وعدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركة بين الشرائع دون المختصة فهي أحكام متفاوتة مختلفة باختلاف الأمم من حيث أحوالها ومصالحها .

وذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله: ﴿ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ولو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامة مختصاً بأصول الدين الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، وأما غيرها من الأحكام الفرعية فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه في جميع خصوصياته بين جميع الشرائع وهذا مما يأباه قطعاً سياق قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به ﴾ النح، ومثل قوله: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ (٣) .

قوله: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ المراد بقوله: ﴿مَا تَـدَعُوهُمُ إِلَيْهِ ﴾ المراد بقوله: ﴿مَا تَـدَعُوهُمُ إِلَيْهِ دَيْنَ التوحيد فحسب على ما تشهد به الآية التالية، والمراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله.

وقوله: ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ الاجتباء هو الجمع والاجتلاب ، ومقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير «إليه» الثاني والثالث راجعاً إلى ما يرجع إليه الأول والمعنى الله يجمع ويجتلب إلى دين التوحيد وهو ما تدعوهم إليه ـ من يشاء من عباده ويهدي إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله:

⁽١) الأحزاب : ٤ .

⁽٢) المؤمنون : ٥٣ . (٣) آل عمران : ١٩ .

سورة الشوري ـ آیة ۱۶ ۲۱ ... ۲۱ ... ۳۱ ... ۳۱

﴿كبرعلى المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء﴾ في معنى قوله : ﴿هُو الْجَبَاكُم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾(١) .

وقيل: الضميران لله تعالى ، ولا بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب ، وعلى أي حال قوله: ﴿ الله يجتبي إليه ﴾ إلى آخر الآية موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى: ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ (٢) .

وقيل: المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به وهو الرسالة أي إن رسالتك كبرت عليهم، وقوله: ﴿الله يجتبي﴾ الخ في معنى قوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾(٣) وهو خلاف الظاهر.

قوله تعالى : ﴿وما تفرقوا إلا من يعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ إلى آخر الآية ضمير ﴿تفرقوا ﴾ للناس المفهوم من السياق ، والبغي الظلم أو الحسد ، وتقييده بقوله : ﴿بينهم ﴾ للدلالة على تداوله ، والمعنى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذاً _ أو ناشئاً _ من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلماً أو حسداً تداولوه بينهم .

وهذا هو الاختلاف في الدين المؤدي إلى الانشعابات والتحزبات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي ، وأما الاختلاف المؤدي إلى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شؤون الحياة والتفرق في أمور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم وهو الذريعة إلى نزول الوحي وتشريع الشرع لرفعه كما يشير إليه قوله : ﴿كَانَ النَّاسَ أُمَّةُ وَاحِدَةً فَبِعَثُ اللهُ النَّبِينَ ﴾ (٤) كما تقدم في تفسير الآية .

وقوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ المراد بالكلمة مثـل قولـه حـين إهباط آدم عشق إلى الأرض: ﴿ولكم في الأرض مستقـر ومتاع إلى حين﴾(٥).

⁽١) الحج: ٧٨ .

⁽٢) حم السجدة : ٣٨ .

⁽٣) الأنعام : ١٢٤ .

⁽٤) البقرة : ٢١٣ .

⁽٥) البقرة : ٣٦ .

والمعنى : ولـولا أن الله قضى فيهم الاستقـرار والتمتـع في الأرض إلى أجـل سماه وعينه لقضى بينهم إثر تفرقهم في دينه وانحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم .

وقـول القـائـل : إن الله قـد قضى وأهلك كمـا يقصـه في قصص نـوح وهـود وصالح عليهم السلام وقد قال تعالى : ﴿ولكـل أُمة رسـول فإذا جـاء رسولهم قُضيَ بينهم بالقسط﴾(١) .

مدفوع بأن ما قصه تعالى من القضاء والإهلاك إنما هو في أمم الأنبياء في زمانهم من المكذبين بين الرادين عليهم وما نحن فيه من قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ الآية في أممهم بعدهم وهو واضح من السياق.

وقوله: ﴿ وَإِن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ضمير ومن بعدهم وهم الأسلاف ، والذين تفرقوا من بعد علم بغياً بينهم وهم الأسلاف ، والذين أورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآية أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحق وإنما أبدعوا ما أبدعوا ، بغياً بينهم ، وأخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم في شك مريب موقع في الريب منه .

وما أوردناه في معنى الآية هو الذي يعطيه السياق ، ولهم في تفسيرها أقــاويل كثيرة لا جدوى في إسقاطها فليرجع في الوقوف عليها إلى كتبهم .

قوله تعالى: وفلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم إلى آخر الآية. تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء وأممهم ثم انقسام أممهم إلى أسلاف اختلفوا في الدين عن علم بغياً، وإلى أخلاف شاكين مرتابين فيما أورثوه من الكتاب أي فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع ولأجل ما ذكر من تفرق بعضهم بغياً وارتياب آخرين فاستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم.

واللام في قوله: ﴿فلذلك﴾ للتعليل، وقيل: الـلام بمعنى إلى أي إلى ما شرع لكم من الدين فادع واستقم كما أمرت، والاستقامة ـ كما ذكره الراغب ـ لزوم

⁽١) يونس : ٤٧ .

سورة الشوري ـ آیة ۱۵ ۲۰۰۰ سورة الشوری ـ آیة ۲۵

المنهاج المستقيم ، وقوله : ﴿ولا تتبع أهواءهم ﴾ كالمفسر له .

وقوله: ﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ تسوية بين الكتب السماوية من حيث تصديقها والإيمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ قيل: اللام زائدة للتأكيد نظير قوله: ﴿وأُمرنا لنسلم لرب العالمين﴾(١) ، والمعنى: وأُمرت أن أعدل بينكم أي أسوّي بينكم فلا أقدّم قوياً على ضعيف ولا غنياً على فقير ولا كبيراً على صغير، ولا أفضّل أبيض على أسود ولا عربياً على عجمي ولا هاشمياً أو قرشياً على غيره فالدعوة متوجهة إلى الجميع ، والناس قبال الشرع الإلهي سواء.

فقوله : ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها ، وقوله : ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ تسوية بين الناس من حيث الدعوة وتوجه ما جاء به من الشرع .

وقيل: اللام في ﴿لأعدل بينكم﴾ للتعليل، والمعنى: وأمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بينكم، وكذا قيل: المراد بالعدل العدل في الحكم، وقيل: العدل في القضاء بينكم، وقيل غير ذلك؛ وهذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق.

وقوله : ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ الخ ، في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الإيمان بها وبين الناس في دعوتهم وشمول الأحكام لهم ، ولذا جيء في الكلام بالفصل من غير عطف .

فقوله: ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه ويتفاضلوا بالأرباب ويقتصر كل منهم بالإيمان بشريعة ربه بل الله هو رب الجميع وهم جميعاً عباده المملوكون له المدبرون بأمره والشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بغض كما يؤمن اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة

⁽١) الأنعام : ٧١ .

عيسى دون محمد وتنفيه بل الواجب الإيمان بكل كتاب نــازل من عنده لأنهــا جميعاً من عنده .

وقوله: ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم يشير إلى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء ثواباً أو عقاباً إلا أنها لا تتعدى عاملها فلكل امرىء ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرء للانتفاع بعمله أو يؤخر امرء للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس - النبي فمن دونه ـ الذين هم جميعاً عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئاً ، وهذا هو الذي ذكره تعالى في محاورة نوح عشق قومه: ﴿قالُوا أنومن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (١) ، وكذا قوله يخاطب النبي عملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (١) ، وكذا قوله يخاطب النبي عملون إن حسابهم من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء وما من حسابك عليهم من

وقوله : ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ لعل المراد أنه لا حجة تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه .

ويمكن أن يكون نفي الحجة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لا خصومة بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد ونحن في أننا جميعاً عباده واحد ولكل نفس ما عملت فلا حجة في البين أي لا خصومة حتى تتخذ لها حجة .

ومن هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم في تفسير الجملة: أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد انتهى. إذ الكلام مسوق لبيان ما أمر به النبي مشنية في نفسه وفي أمته من سنة التسوية لا لإثبات شيء من أصول المعارف حتى تحمل الحجة على ما حملها عليه.

وقوله: ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم والمخاطب في الجمل السابقة ، والمراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قيل .

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم في الربوبية فهو رب الجميع والجميع عباده فيكون قوله: ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ تأكيداً لقوله السابق: ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ وتوطئة وتمهيداً لقوله: ﴿ وإليه المصير ﴾ ويكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدؤنا لأنه ربنا جميعاً وإليه منتهانا لأنه إليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

وكان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال: «الله ربي وربكم لي عملي ولكم أعمالكم لا حجة بيني وبينكم اعلى محاذاة قوله: ﴿ آمنت ﴾ ﴿ وأمرت لأعدل ﴾ لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلالة قوله السابق: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ الخ ، وقوله: ﴿ الله يَجْتَبِي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينب ﴾ أن هناك قوماً يؤمنون بما آمن به النبي مَنْ الله ويلبون دعوته ويتبعون شريعته .

فالمراد بالمتكلم مع الغير في ﴿ ربنا ﴾ و ﴿ لنا أعمالنا ﴾ و ﴿ بيننا ﴾ هو سُنا الله و المؤمنون به ، وبالمخاطبين في قوله : ﴿ وربكم ﴾ و ﴿ أعمالكم ﴾ و ﴿ بينكم ﴾ سائر الناس من أهل الكتاب والمشركين ، والآية على وزان قول ه تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلُ الكتاب تعالى الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (١) .

قوله تعالى: ﴿واللَّذِينَ يَحَاجُونَ فِي اللَّهُ مِن بَعَدُ مَا اسْتَجِيبُ لَهُ حَجِبُهُمُ دَاحِضَةً عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ الحجة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحج بمعنى القصد ، والدحض البطلان والزوال .

والمعنى: ـعلى ما قيل ـ والـذين يحاجـون في الله أي يحتجـون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعـد ما استجـاب الناس لـه ودخلوا في دينه لـظهور الحجـة ووضوح المِحَجـة حجتهم باطلة زائلة عنـد ربهم وعليهم غضب منـه تعـالى ولهم عذاب شديد.

والظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة وهو التلقي بـالقبول عن علم لا يـداخله شك تضـطر إليه الفـطرة الإنسانيـة السليمة فـإن الـدين بما فيـه من

⁽١) آل عمران : ٦٤ .

المعارف فطري تصدقه وتستجيب له الفطرة الحية قال تعالى: ﴿إنما يستجيب المعارف فطري تصدقه وتستجيب له الفطرة الحين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ (١) ، وقال: ﴿ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ﴾ (٢) ، وقال: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (٢) .

ومحصل الآية على هذا: أن الذين بحاجون فيه تعالى أو في دينه بعد استجابة الفطرة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه ولهم عذاب شديد لا يقادر قدره.

ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تـذكر أن الله شرع ديناً ووصى به أنبياءه واجتبى إليه من شاء من عباده فالمحاجة في أن الله ديناً يستعبد به عباده داحضة ومن الممكن حينئذ أن يكون قوله : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ في مقام التعليل وحجة مدحضة لحجتهم فتدبر فيه .

وقيل: ضمير وله المرسول على المستجيب أهل الكتاب، واستجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه ونعوته في كتبهم والمراد أن محاجتهم في الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجتهم باطلة عند ربهم.

وقيل: الضمير له مُشَرِّكُمُ والمستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صناديد قريش فقتلهم يوم بدر، ودعاءه على أهل مكة فابتلاهم بالقحط والسنة، ودعاءه على المستضعفين حتى خلصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته، والمعنيان بعيدان من السياق.

(بحث روائي)

في روح المعاني في قوله تعالى: ﴿واللذين يحاجون في الله ﴾ الآية عن ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم فقالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم وفي رواية بدل وفديننا، الخ فنحن أولى بالله منكم.

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نـزلت إذا جاء نصـر الله

الأنعام : ٣٦ .
 الشمس : ٨ .
 الروم : ٣٠ .

والفتح قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قـد دخل النــاس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت : ﴿والذين يحاجُّونَ في الله من بعد ما استجيب له﴾ الآية .

أقول : مضمون الآية لا ينطبق على الرواية إذ لا محاجة في القصة ، وكذا الخبر السابق لا يفي بتوجيه قوله : ﴿من بعد ما استجيب له﴾ .

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّـذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنُّهَا ٱلْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقُويُّ ٱلْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُريدُ حَرْثَ الدُّنْيَـا نُؤْتِهِ مِنْهَـا وَمَا لَـهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نُصِيب (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُـرَكُوا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الطَّالِمِينَ لَهُمْ عَلَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمًّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهمْ ذَلِكَ هُـوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢) ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُـلُ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُـرْبِيٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ آفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنَّ يَشَا اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ ٱلْبَـاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقُّ بِكَلِمَـاتِهِ إِنَّـهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّـدُورِ (٢٤) وَهُوَ

الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَـزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَآلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابُ شَدِيدٌ (٢٦) .

(بیان)

فصل رابع من الأيات يعرِّف الـوحي الإلهي بأن الـدين النازل بـه كتاب مكتـوب على الناس وميزان يوزن به أعمالهم فيجزون بـذلك يـوم القيامـة ، والجزاء الحسن من الرزق ثم يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يـوم القيامـة من الثواب والعقـاب ، وفيها آيـة المودَّة في القربى وما يلحق بذلك .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ النح ، كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخباراً عن الوحي وغرضه وآثاره ﴿ كذلك يوحي إليك ﴾ ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ ﴿ وشرع لكم من الدين ﴾ وقد غير السياق في مفتتح هذا الفصل فجيء بالجملة الاسمية المتضمنة لتوصيف تعالى بإنزال الكتاب والميزان ﴿ الله الذي أنزل الكتاب والميزان به .

ولعل الوجه فيه ما تقدم في الآية السابقة من ذكر المحاجّة في الله ﴿والـذين يحاجّون في الله﴾ فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الـذي أنزل الكتـاب بالحق والميزان ، ولازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت .

وكيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع البشري ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةُ وَاحِدَةً﴾ (١) الآية أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب ، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحباً للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني ولا نفساني .

والميزان ما يوزن ويقدّر به الأشياء ، والمراد به بقرينة ذيـل الآية والآيـات التاليـة هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه ويجـزى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميـزان هو الـدين بأصـوله وفـروعه ، ويؤيـده قولـه تعالى :

⁽١) البقرة: ٢١٣ .

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾(١) ، على ما هو ظاهر قوله : ﴿معهم﴾ .

وقيل: المراد به العدل وسُمِّي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الناس والعدل كذلك وأيد بسبق ذكر العدل في قوله: ﴿وأُمرت لأعدل بينكم ﴾ . وفيه أنه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ ، وقد تقدم أن المراد بالعدل في ﴿لأعدل ﴾ هو التسوية بين الناس في التبليغ وفي جريان الحكم دون عدل الحاكم والقاضي .

وقيل : المراد به الميزان المعروف المقدّر للأثقال . وهو كما ترى .

وقيل: المراد به النبي عَلَيْهُ ويمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من الوجه لأن النبي مصداق كامل ومثل أعلى للدين بأصوله وفروعه ولكل فرد من أمّته من الزنة الدينية قدر ما يشابهه ويماثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفاً من آية سورة الجديد كثير ملاءمة.

وقوله : ﴿ وَمَا يَدَرِيكُ لَعَلَ السَّاعَةُ قَرِيبَ ﴾ لما كان الميزان المشعر بالحساب والجزاء يومي إلى البعث والقيامة انتقل إلى الكلام فيه وإنذارهم بما يستقبلهم فيه من الأهوال والتبشير بما أعدَّ فيه للصالحين .

والإدراء الإعلام ، والمراد بالساعة ـ على ما قيـل ـ إتيانهـا ولذا جيء بـالخبر مذكراً ، والمعنى : ما الذي يعلمك لعل إتيان الساعـة قريب والخيطاب للنبي مُشِنَّتُ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع ويعمّ الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ الخ المراد استعجالهم استعجال سخرية واستهزاء وقد تكرر في القرآن نقل قولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

والإشفاق نوع من الخوف ، قال الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه ، قال تعالى : ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر ، قال تعالى : ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ ﴿مشفقون منها﴾ انتهى .

⁽١) الحديد : ٢٥ .

وع المجزء المخامس والعشرون

وقوله: ﴿ إِلا إِن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ المماراة الإصرار على الجدال ، وإنما كانوا في ضلال بعيد على الجدال ، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم أخطأوا طريق الحياة التي إصابتها أهم ما يتصور للإنسان فتوهموها حياة مقطوعة فانية انكبوا فيها على شهوات الدنيا وإنما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزودوا من دنياهم لأخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشد فوقعوا في سبيل الغي .

قوله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزير ﴾ في معنى اللطف شيء من الرفق وسهولة الفعل وشيء من الدقة في ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق والدقة وكان الفاعل يفعل برفق وسهولة ويقع فعله على الأمور الدقيقة كان لطيفاً كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق وسهولة المماس لدقائق أجزائها الباطنة . وإذا ألقيت الخصوصيات المادية عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى بنال دقائق الأمور بإحاطته وعلمه ويفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف .

وقد رتب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفاً بعباده قوياً عزيـزاً دلالة على أنـه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق ولا يعصيه وبقوتـه عليه لا يعجـز عنه وبعزته لا يمنعه مانع عنه .

والمراد بالرزق ما يعمّ موهبة الـدين الذي يتلبس بهـا من يشاء من عبـاده على ما يشهد به الآية التاليـة ، ولذا أُلحق القـول فيه بقـوله : ﴿الله الـذي أنزل الكتـاب بالحق والميزان﴾ .

قوله تعالى : ﴿من كان يعريد حرث الأخرة ننزد له في حرثه ﴾ النح ، الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الأخرة على سبيل الاستعارة كأن الأعمال الصالحة بذور وما تنتجه في الأخرة حرث .

والمراد بالزيادة لـه في حرثـه تكثير ثـوابه ومضاعفته ، قـال تعالى : ﴿من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾(١) ، وقال : ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾(١) .

وقوله: ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان يريد النتائج الدنيوية بأن يعمل للدنيا ويريد نتيجة ما عمله فيها دون الأخرة

(١) الأنعام : ١٦٠ . (٢) البقرة : ٢٦١ .

نؤته من الدنيا وما له في الأخرة نصيب ، وفي التعبير بإرادة الحرث إشارة إلى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا والأخرة كما قال تعالى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لَـ لَإِنْسَانَ إِلَّا مَا سَعَى﴾(١) .

وقد أبهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: ﴿نؤته منها﴾ إشارة إلى أن الأمر إلى المشيئة الإلهية فربما بسطت الرزق وربما قدرت كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ (٢).

والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله ﴿نزد له﴾ و ﴿نؤتـه منها﴾ للدلالـة على العظمة التي يشعر بها قوله : ﴿وهو القوي العزيز﴾ .

والمحصل من معنى الآيتين: أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قـوة مطلقة وعزّة مطلقة يرزق عبـاده على حسب مشيئته وقـد شاء في من أراد الآخـرة وعمل لهـا أن يرزقه منهـا ويزيـد فيه ، وفيمن أراد الـدنيا وعمـل لها فحسب أن يؤتيـه منها ومـا له في الآخرة من نصيب .

ويظهر من ذلك أن الآية الأولى عامة تشمل الفريقين ، والمراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا والأخرة ، وكذا الرزق وأن الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قولمه : ﴿يرزق من يشاء﴾ من الإجمال .

قوله تعالى: ﴿ أَم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ إلى آخر الآية لما بين أن الله سبحانه هو الذي أنزل الكتاب بالحق وشرع لهم الدين الذي هو ميزان أعمالهم وأنه بلطفه وقوته وعزته يرزق من أراد الأخرة وعمل لها ما أراده منها ويزيد ، وأن من أراد الدنيا ونسي الآخرة لا نصيب له فيها سجّل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع ديناً غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله ولا يرزق في الآخرة رزقاً حسناً إلا من آمن بها وعمل لها .

فقوله : ﴿أَم لَهُم شُرِكَاءَ﴾ الخ ، في مقام الإنكار ، وقوله : ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ إشارة إلى الكلمة التي سبقت منه تعالى أنهم يعيشون في الأرض إلى

⁽١) النجم : ٣٩ . (٢) الإسراء : ١٨ .

أجل مسمّى ، وفيه إكبار لجرمهم ومعصيتهم .

وقوله: ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ وعيد لهم على ظلمهم ، وإشارة إلى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم ولم يعذبهم في الدنيا فلهم في الآخرة عذاب أليم .

قنوله تعالى: ﴿ترى الطالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم﴾ النح ، الخطاب للنبي وَمُنْ مِن شأنه أن يرى ، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة ، والمعنى : يرى الراؤون هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم لا مناص لهم عنه .

والآية من الآيات الـطاهرة في تجسم الأعمـال ، وقيل : في الكـلام مضـاف محذوف والتقدير مشفقين من وبال ما كسبوا ، ولا حاجة إليه .

وقوله: ﴿والدّين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾ في المجمع: إن الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات، والجنة الأرض التي تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجرة المخضرة متونها.

وقوله: ﴿لهم فيها ما يشاؤن عند ربهم﴾ أي إن نظام الأسباب مطوي فيها بل السبب الوحيد هـ و إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده مايشاؤون ذلك هـ و الفضل الكبير.

وقوله : ﴿ذَلَكَ الذِّي يَبَشَـرَ اللهُ عَبَادُهُ اللَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالَحَاتُ﴾ تبشيـر للمؤمنين الصالحين ، وإضافة العباد تشريفية .

قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي الذي نفي سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة والدعوة الدينية ، وقد حكى الله ذلك عن عدة ممن قبله المسلكة عن عدة ولوط وشعيب فيما حكي مما يخاطب كل منهم أمته: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين الشعراء وغيرها.

وقد حكى عن النبي مُسِلَمْ ذلك إذ قبال: ﴿ وَمَا تَسَالُهُمْ عَلَيْهُ مِنْ أَجِرَ ﴾ (١) ،

⁽۱) يوسف : ۱۰۶ .

وقد أمره سَلَنَهُ أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفة حيث قال : ﴿قُلْ مَا اللَّهُ عَلَيْهُ مِنْ أَجْرِ فَهُ و لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلاّ أَسَالُكُمْ عَلَيْهُ أَجْرًا إِنْ هُو إِلاّ ذَكْرَى للعالمين ﴾ (٢) ، على الله ﴾ (٢) ، وقال : ﴿قُلْ لا أَسَالُكُمْ عَلَيْهُ أَجْرًا إِنْ هُو إِلاّ ذَكْرَى للعالمين ﴾ (٢) ، فأشار إلى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر .

وقال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ (١) ، ومعناه على ما مر في تفسير الآية: إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ إلى ربه سبيلاً أي يستجيب دعوتي باختياره فهو أجري أي لا شيء هناك وراء الدعوة أي لا أجر .

وقال تعالى في هذه السورة: ﴿قل لا أَسَالُكُم عليه أَجراً إلا المودة في القربى ﴾ فجعل أجر رسالته المودة في القربى ، ومن المتيقن من مضامين سائر الآيات التي في هذا المعنى أن هذه المودة أمر يرجع إلى استجابة الدعوة إما استجابة كلها وإما استجابة بعضها الذي يهتم به وظاهر الاستثناء على أي حال أنه متصل بدعوى كون المودة من الأجر ولا حاجة إلى ما تمحله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه .

وأما معنى المودة في القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم :

فقيل ـ ونسب إلى الجمهور ـ أن الخطاب لقريش والأجر المسؤول هو مودَّتهم للنبي مُشِنَّتُ لقرابته منهم وذلك لأنهم كانوا يكذبونه ويبغضونه لتعرَّضه لألهتهم على ما في بعض الأخبار فأمِر مَشِنَاتُ أن يسألهم : إن لم يؤمنوا به فليودُّوه لمكان قرابته منهم ولا يبغضوه ولا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابة ، وفي للسببية .

وفيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال ونحوه فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما كان يصح على تقدير إيمانهم به منتسب لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر ، وعلى تقدير الإيمان

ص: ٨٦.
 ٣) الأنعام: ٩٠.

(٢) سبأ : ٤٧ . (٤) الفرقان : ٥٧ .

به ـ والنبوة أحد الأصول الثلاثة في الدين ـ لا يتصور بغض حتى تجعل المودة أجـراً للرسالة ويسأل .

وبالجملة لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسؤولين ولا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا المودة .

وهذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعاً فإن سؤال الأجر منهم على أي حال إنما يتصور على تقديس إيمانهم والاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجملة بجميع قيودها فأجد التأمل فيه .

وقيل: المراد بالمودة في القربى ما تقدم والخطاب للأنصار فقد قيل: إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فرده، وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجارية ومن جهة أخوال أمه آمنة على ما قيل.

وفيه أن أمر الأنصار في حبهم للنبي المناه أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب وهم الذين سألوه أن يهاجر إليهم ، وبوّؤا له الدار ، وفدوه بالأنفس والأموال والبنين وبذلوا كل جهدهم في نصرته وحتى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به ، وقد مدحهم الله تعالى بمثل قوله : ﴿ والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (١) ، وهذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبي الناسية فما هو الظنُّ في حبهم له ؟

وإذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي مُسَنِّتُ أن يتوسل إلى مودَّتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة ؟

على أن العرب ما كانت تعتني بالقرابة من جهـة النساء ذاك الاعتنـاء وفيهم القائل :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد والقائل:

وإنما أمهات الناس أوعية مستبودعات وللأنساب آبياء

(١) الحشر: ٩.

وإنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابة وساوى بين أولاد البنين وأولاد البنات وقد تقدم الكلام في ذلك .

وقيل: المخطاب لقريش والمودّة في القربى هي المودّة بسبب القرابة غير أن المراد بها مودة النبي مُنْدُ لا مودة قريش كما في الوجه الأول، والاستثناء منقطع، ومحصل المعنى: أني لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم إليه من الهدى الذي ينتهي بكم إلى روضات الجنات والمخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء لكن حبي لكم بسبب قرابتكم مني دفعني إلى أن أهديكم إليه وأدلكم عليه.

وفيه أنه لا يلائم ما يخده الله سبحانه له عليه في طريق الدعوة والهداية فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيرة من كلامه أن الأمر في هداية الناس إلى الله وليس له من الأمر شيء وأن ليس له أن يحزن لكفرهم وردهم دعوته وإنما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع إلى هداية أحد لحب قرابة أو يعرض عن هِداية آخرين لغض أو كراهة ومع ذلك كله كيف يتصور أن يأمره الله بقوله : ﴿قل لا أسألكم ﴾ الآية أن يخبر كفار قريش أنه إنها اندفع إلى دعوتهم وهدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه .

وقيل : المراد بالمودة في القربى مودة الأقرباء والخطاب لقريش أو لعامة الناس والمعنى : لا أسألكم على دعائي أجراً إلا أن تودوا أقرباءكم .

وفيه أن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام قال تعالى : ولا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه (۱) ، وسياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصصة أو مقيدة لعموم قوله : وإلا المودة في القربي أو إطلاقه حتى تكون المودة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة على أن هذه المودة المخاصة لا تلائم خطاب قريش أو عامة الناس .

بل الذي يفيده سياق الآية أن الذي يندب إليه الإسلام هو الحب في الله من غير أن يكون للقرابة خصوصية في ذلك ، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابة والرحم لكنه بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال ، على حبه ذوي القربى لا بعنوان مودة

⁽١) المجادلة : ٢٢ .

القربي فلا حب إلا لله عز اسمه .

ولا مساغ للقول بأن المودة في القربى في الآية كناية عن صلتهم والإحسان اليهم بإيتاء المال إذ ليس في الكلام ما يدفع كون المسراد هو المعنى الحقيقي غير الملائم لما ندب إليه الإسلام من الحب في الله .

وقيل: معنى القربى هو التقرب إلى الله ، والمودة في القربى هي التودّد إليه تعالى بالطاعة والتقرب فالمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّدوا إليه تعالى بالتقرب إليه .

وفيه أن في قوله : ﴿إلا المودة في القربى ﴾ على هذا المعنى إبهاماً لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد إليه _ أو وده تعالى _ بالتقرب إليه والمشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عبادة الألهة تودداً إليه بالتقرب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(١) ، ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾(٢) .

فسؤال التودد إلى الله بالتقرب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده ، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممن يرى شركه نوع تودد إلى الله بالتقرب إليه ، وخطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام ـ والمقام مقام تمحيضه مناب نفسه في دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئاً قط ـ مما لا يرتضيه الذوق السليم .

على أن المستعمل في الآية هو المودة دون التودد فالمراد بالمودة حبهم لله في التقرب إليه ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق المودة على حب العباد لله سبحانه وإن ورد العكس كما في قوله: ﴿ وهو الغفور العكس كما في قوله في لفظ المودة من الإشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقده ، حتى قال بعضهم على ما حكاه الراغب إن مودة الله لعباده مراعاته لهم .

والإشكال السابق على حاله ولـو فسـرت المـودة في القـربي بمـوادة النـاس بعضهم بعضاً ومحابتهم في التقرب إلى الله بأن تكون القربات أسباباً للمودة والحب

⁽٢) يونس : ١٨ . (٤) البروج : ١٤ -

فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون .

وقيل: المراد بالمودة في القربى ، مودة قرابة النبي مَنْ فَلَيْنَ وَهُمْ عَتْرَتُهُ مِنْ أَهُلَ بِهِمَ السَّلَمُ وَهُمْ عَتْرَتُهُ مِنْ أَهُلَ بِهِ بَهِ وَايَاتُ مِنْ طُرِقَ أَهُلَ السَّنَةُ وَتَكَاثُرَتَ الأَخْبَارِ مِنْ طُرِقَ الشَّيْعَةُ عَلَى تَفْسِيرِ الآية بمودتهم وموالاتهم ، ويؤيده الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالاة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم .

ثم التأمل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبي المنظمة لإرجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين وفروعها وبيان حقائقه إلى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين وحديث السفينة وغيرهما لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم وجعلها أجراً للرسالة إنما كان ذريعة إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعية العلمية.

فالمودة المفروضة على كونها أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الـدعوة الـدينية من حيث بقائها ودوامها ، فالآية في مؤدّاها لا تغاير مؤدّى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر .

ويؤول معناها إلى أني لا أسألكم عليه أجراً إلا أن الله لما أوجب عليكم مودة عامة المؤمنين ومن جملتهم قرابتي فإني أحتسب مودَّتكم لقرابتي وأعدّها أجراً لرسالتي ، قال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودًا ﴾(١) ، وقال : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾(٢) .

وبذلك يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم .

وأيضاً فيه منافاة لقوله تعالى : ﴿وَمَا تَسَأَلُهُمْ عَلَيْهُ مِنْ أَجِرَ﴾ (٣) .

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها وتسميتها به إنما هـو بحسب الدعـوى وأما بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما يـدل عليه الآيـات الأخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت وما في ذلك من النفع عائد إليهم فلا مورد للتهمة .

(۱) مريم : ٩٦ . (۲) التوبة : ٧١ . (٣) يوسف : ١٠٤ .

على أن الآية على هذا مدنية خوطب بها المسلمون وليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمة إلهية ـ بعد الإيمان به وتصديق عصمته ـ فيما يأتيهم به من ربهم ولو جاز اتهامهم له في ذلك وكان ذلك غير مناسب لشأن النبوة لا يصلح لأن يخاطب به ، لاطرد مثل ذلك في خطابات كثيرة قرآنية كالآيات الدالة على فرض طاعته المطلقة والدالة على كون الأنفال والغنائم لله ولرسوله ، والدالة على خمس ذوي القربى ، وما أبيح له في أمر النساء وغير ذلك .

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمة ودفعها في قوله الآتي : ﴿أَم يَقُولُونَ افْتُرَى عَلَى اللهُ كَذَبّاً فَإِن يَشْإِ الله يَخْتُم عَلَى قَلْبَكُ﴾ الآية على ما سيأتي .

وهب أنّا صرفنا الآية عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعاً لما ذكر من التهمة فما هو الدافع لها عن الأخبار التي لا تحصى كثرة الواردة من طرق الفريقين في إيجاب مودة أهل البيت عنه مُتَمَالِهُ ؟

وأما منافاة هذا الوجه لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسَالُهُمَ عَلَيْهُ مِنْ أَجَرَ ﴾ فقد اتضح بطلانه مما ذكرناه ، والآية بقياس مدلولها إلى الآيات النافية لسؤال الأجر نظيرة قـوله تعالى : ﴿قُلْ مَا أَسَالُكُمْ عَلَيْهُ مِنْ أَجِرَ إِلَّا مِنْ شَاءَ أَنْ يَتَخَذَ إِلَى رَبَّهُ سَبِيلًا ﴾(١) .

قال في الكشاف بعد اختياره هذا الوجه : فإن قلت : هـلا قيل : إلا مـودة القربي أو إلا المودة للقربي ، وما معنى قوله : إلا المودة في القربي ؟

قلت : جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك : لي في آل فلان مودة ، ولي فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله .

قال : وليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت : إلا المودة للقربى . إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الطرف به في قولك : المال في الكيس ، وتقديره : إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ يَقْتُرُفْ حَسَنَةً نَوْدُ لَهُ فَيِهَا حَسَنَاً إِنَّ اللهُ غَفُورُ شَكُورُ ﴾ الاقتراف الاكتساب ، والحسنة الفعلة التي يرتضيها الله سبحانه ويثيب عليها ، وحسن العمل ملاءمته لسعادة الإنسان والغاية التي يقصدها كما أن مساءته وقبحه

⁽١) الفرقان : ٥٧ .

خلاف ذلك ، وزيادة حسنها إتمام ما نقص من جهاتها وإكماله ومن ذلك الزيادة في ثـوابها كمـا قال تعـالى : ﴿ولنجزينهم أحسن الـذي كـانـوا يعملون﴾(١) ، وقـال : ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾ (١) .

والمعنى : ومن يكتسب حسنة نزد له في تلك الحسنة حسناً ـ برفع نقائصها وزيادة أجرها ـ إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله .

وقيل: المراد بالحسنة مودة قربى النبي منظرات ويؤيده ما في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أن قوله: ﴿ وقل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ إلى تمام أربع آيات نزلت في مودة قربى النبي منظرات ولازم ذلك كون الآيات مدنية وأنها ذات سياق واحد وأن المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودة ، وعلى هذا فالإشارة بقوله: ﴿ أم يقولون افترى ﴾ الخ ، إلى بعض ما تفوه به المنافقون تثاقلاً عن قبوله وفي المؤمنين سمّاعون لهم ، وبقوله: ﴿ وهو الذي يقبل التوبة ﴾ إلى آخر الأيتين إلى توبة الراجعين منهم وقبولها .

وفي قوله : ﴿إِن الله غفور شكور﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة والـوجه فيه الإشارة إلى علة الإتصاف بالمغفرة والشكر فإن المعنى : إن الله غفـور شكور لأنـه الله عزّ اسمه .

قوله تعالى : ﴿ أَم يقولون افترى على الله كذباً ﴾ إلى آخر الآية أم منقطعة ، والكلام مسوق للتوبيخ ولازمه إنكار كونه سَنْنَكِ مفترياً على الله كذباً .

وقوله: ﴿ وَفَإِنْ يَشَا الله يَخْتُمُ عَلَى قَلْبُكُ ﴾ معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفرية فتأتي بها وإنما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع والأمر إلى مشيّته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك وسدّ باب الوحي إليك ، لكنه شاء أن يوحي إليك ويبين الحق ، وقد جرت سنّته أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته .

فقوله : ﴿ فَإِنْ يَشَا الله يَخْتُم عَلَى قَلْبُكَ ﴾ كناية عن إرجاع الأمر إلى مشيّة الله وتنزيه لساحة النبي سَنُونِهِ أن يأتي بشيء من عنده .

⁽١) العنكبوت : ٧ .

⁽٢) النور : ٣٨ .

الجزء الخامس والعشرون

وهذا المعنى ـ كما سترى ـ أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابة النبي منطنة والتوبيخ متوجهاً إلى المنافقين ومرضى القلوب .

وقد ذكروا في معنى الجملة وجوهاً أخر :

منها: ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث فسَّر قوله: ﴿ فَإِن يَسَا الله يَخْتُمُ عَلَى قَلْوَبُهُم حَتَى تَفْتُري عَلَيْهُ اللهُ يَجْعَلُكُ مِن الْمُخْتُومُ عَلَى قَلْوَبُهُمْ حَتَى تَفْتُري عَلَيْهُ الْكَذَبِ إِلاّ مِن كَانَ فِي مثل حَالُهُم .

وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم ، ومثال هذا أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخوّن مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

ومنها ما قيل: إن المعنى لوحدَّثت نفسك بأن تفتري على الله الكذب لطبع الله على الله الكذب لطبع الله على قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفتري على الله ، وهذا كقوله: ﴿لَئُن أَشْرِكَتَ لِيحْبَطُنَ عَمَلُكُ﴾ .

ومنها ما قيل : إن معناه فإن يشإ الله يربط على قلبك بـالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم : إنه مفتر وساحر ، وهي وجوه لا تخلو من ضعف .

ومنها ما قيل : إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم وهو تسلية للنبي مُسْفَاتُهِ ليشكر ربه على ما آتاه من النعمة .

ومنها ما قيل : إن المعنى فإن يشإ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب ، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب وعن الجمع إلى الأفراد ، والمراد : يختم على قلبك أيها القائل : إنه افترى على الله كذباً .

وقوله: ﴿ وَيِمِعِ اللهِ الباطلُ وَيَعَقُ الْعَقَ بِكُلُمَاتِهِ ﴾: الإنيان بالمضارع - يمحو ويحق _ للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطلُ وإحقاق الحق بالكلمات سنة جارية له تعالى والمراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي والتكليم الربوبي ويمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنها مفصحة عن الضمير الغيبي .

وقوله : ﴿إِنَّهُ عَلَيْمُ بِذَاتُ الصَّدُورِ ﴾ تعليل لقوله : ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطُلُ ﴾ الَّخُ ،

أي إنه يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب وما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي وتوجيه الدعوة .

قيل : وفي الآية إشعار بوعد النبي مُشَرَّتُ بالنصر ولا يخلو من وجه .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ يقال : قبل منه وقبل عنه قال في الكشاف : يقال : قبلت منه الشيء وقبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه ، ومعنى قبلته عنه عزلته وأبنته عنه . انتهى .

وفي قـوله: ﴿ويعلم مـا تفعلون﴾ تحضيض على التوبـة وتحذيـر عن اقتراف السيئات والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد﴾ فاعل ﴿يستجيب﴾ ضمير راجع إليه تعالى ﴿والذين آمنوا﴾ الخ ، في موضع المفعول بنزع الخافض والتقدير ويستجيب للذين آمنوا -على ما قيل - وقيل : فاعل ﴿يستجيب﴾ هو ﴿الذين﴾ وهو بعيد من السياق .

والاستجابة إجابة الـدعاء ولما كانت العبادة دعوة لـه تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابة لهم ، والدليـل على هذا المعنى قـوله : ﴿ويـزيـدهم من فضله﴾ فـإن ظاهره زيادة الثواب وكذا مقابلة استجابة المؤمنين بقـوله : ﴿والكافرون لهم عـذاب شديد﴾ .

وقيل : المراد أنه يستجيب لهم إذا دعوه وأعطاهم ما سألوه وزادهم على ما طلبوه وهو بعيد من السياق . على أن استجابة الدعاء لا يختص بالمؤمن .

(بحث روائي)

في المجمع روى زادان عن علي منتخه قال : فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن . ثم قرأ ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي﴾ .

قال الطبرسي : وإلى هذا أشار الكميت في قوله :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب وفيه وصح عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه خطب الناس فقال في

خطبته : إنا من أهل البيت الـذين افترض الله مـودتهم على كل مسلم فقـال : ﴿قُلْ لَا السَّالِكُم عَلَيْهِ أَجِراً إلا المودة في القربي﴾ .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر مُشْنَفُه في قوله تعالى : ﴿قُلُ لَا أَسَالُكُمْ عَلَيْهُ أَجِراً إِلَا الْمُودَةُ في القربي﴾ قال : هم الأثمة .

أقول: والأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهـل البيت عليهم السلام كثيرة جداً مروية عنهم.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿ إلا المودة في القربي ﴾ فقال سعيد بن جبير: هم قربي آل محمد فقال ابن عباس: عجلت إن النبي المناف لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

أقول: ورواه أيضاً عن ابن عباس بطرق أخرى غير هذا الطريق، وقد تقدم في بيان الآية أن هذا المعنى غير مستقيم ولا منطبق على سياق الآية، ومن العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله ﴾.

وفيه أخرج أبو نعيم والديلمي من طويق مجاهد عن ابن عباس قـال : قال رسول الله مُطَّنِّةٍ : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم لي .

وفيه أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي ﴿ قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال : على وفاطمة وولداها .

أقول : ورواه الطبرسي في المجمع وفيها "وولدها" مكان وولداها".

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت

آل حم ؟ قبال : نعم قال : أما قبرأت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي ﴾ ؟ قال : فإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ومن يقتسرف حسنة ﴾ قال: المودة لأل محمد .

أقول: وروى ما في معناه في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر الشناء.

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر عشية يقول في قول الله عـز وجل : ﴿قـل لا أسالكم عليه أجراً إلا المودة في القربي﴾ يعني في أهل بيته .

قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله مَنْ فقالوا : إنها قد آوينها ونصرنها فخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عز وجهل ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي﴾ أي في أهل بيته .

ثم قال: ألا ترى أن الرجل يكون له صديق وفي نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عز وجل أن لا يكون في نفس رسول الله مندي شيء على أمته ففرض الله عليهم المودة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضاً ، وإن تركوا مفروضاً .

قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال: لا. قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي ، وقال طائفة: ما قال هذا رسول الله وجحدوه وقالوا كما حكى الله عز وجل: ﴿أَمْ يقولُونَ افترى على الله كذباً ﴾ فقال عز وجل: ﴿فإن يشإ الله يختم على قلبك ﴾ قال: لو افتريت ﴿ويمح الله الباطل ﴾ يعني يبطله ﴿ويحق الحق بكلماته ﴾ يعني بالأئمة والقائم من آل محمد مالنة ﴿إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

أقول: وروى قصة الأنصار السيوطي في الـدر المنشور عن الـطبـراني وابن مردويه من طريق ابن جبير وضعّفه .

وَلَـوْ بَسَطَ اللَّهُ الـرِّزْقَ لِعِبَـادِهِ لَبَغَـوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلٰكِنْ يُنَـزِّلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتُهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمْ وَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُـوَ عَلَىٰ جَمْعِهُمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيـر (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِـزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيبِ (٣١) وَمِنْ آيَــاتِــهِ ٱلْجَــوَارِ فِي ٱلْـبَحْــرِ كَٱلْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأَ يُسْكِن الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِـدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارِ شَكُورِ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيــر (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّـذِينَ يُجَــادِلُـونَ فِي آيــاتِنَـا مَــا لَهُمْ مِنْ مَحِيصِ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْـرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَـوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّـذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْـرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِـرُونَ (٣٩) وَجَزَاؤًا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْـرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَن ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلِ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُ وِنَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأَمُ ورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الطَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا ٱلْعَـذَابَ يَقُولُونَ هَلِّ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلَ يَنْظَرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِي وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَـوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَـذَاب مُقِيم ِ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُـرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلِ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِـرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَـأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَـرَدًّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَـا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَـوْمَئِذٍ وَمَـا لَكُمْ مِنْ نُكِيـر (٤٧) فَإِنْ أَعْـرَضُوا فَمَـا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيـظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَـا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّـا رَحْمَةً فَـرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبُّهُمْ سَيِّئَـةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَواتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاتًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّـهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

(بیان)

صدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور في قوله: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من-يشاء ﴾ وقد سبقه قوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وقد تقدمت الإشارة إلى أن من الرزق نعمة الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين وبهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الذي سيقت لبيانه آيات السورة وانعطف عليه انعطافاً بعد انعطاف.

ثم يـذكر بعض آيـات التوحيـد المتعلقة بـالرزق كخلق السمـاوات والأرض وبثّ الدواب فيهما والسفائن الجواري في البحر وإيتاء الأولاد الـذكور والإنــاث أو إحداهمــا لمن يشاء وجعل من يشاء عقيماً .

ثم يذكر أن من الرزق ما آتاهموه في الدنيا وهو متاعها الفاني بفنائها ومنه ما يخص المؤمنين في الآخرة وهو خير وأبقى ، وينتقل الكلام من هنا إلى صفسات المؤمنين وحسن عاقبتهم وإلى وصف ما يلقاه الظالمون وهم غيرهم في عقباهم من أهوال القيامة وعذاب الآخرة .

ووراء ذلك في خـلال الآيــات من إجمــال بعض الأحكــام والإنــذار والتخــويف والدعوة إلى الحق وحقائق المعارف شيء كثير .

قوله تعالى : ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزّل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ القدر مقابل البسط معناه التضييق ومنه قوله السابق : ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ والقدر بفتح الدال وسكونها كميّة الشيء وهندسته ومنه قوله : ﴿ولكن ينزّل بقدر ما يشاء ﴾ أو جعل الشيء على كميّة معينة ومنه قوله : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (١) .

والبغي الظلم، وقوله: ﴿بعباده﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير، والنكتة فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيراً بصيراً بهم وذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له، وكذا قوله السابق: ﴿لعباده﴾ لا يخلو من إشارة إلى بيان إيناء الرزق وذلك أنهم عباده ورزق العبد على مولاه.

ومعنى الآية : ولو وسّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بايتائه لظلموا في الأرض - لما أن من طبع سعة المال الأشر والبطر والاستكبار والطغيان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَعَى أَنْ رَآه استغنى ﴾ (٢) ولكن ينزّل ما يشاء من الرزق بقدر وكمية معينة إنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد وما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك .

ففي قوله: ﴿ولكن ينزّل بقدر ما يشاء ﴾ بيان للسنّة الإلهية في إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أي إن لصلاح حالهم أثراً في تقدير أرزاقهم، ولا ينافي ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين ونماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنّة أخرى حاكمة على هذه السنة وهي سنة الابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ (٢) ، وسنّة أخرى هي سنة المكر والاستدراج ، قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يشعرون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ (٤) .

⁽١) المرسلات: ٢٣ . (٣) التغابن: ١٥ .

⁽٢) العلق : ٧ . (٤) الأعواف : ١٨٣ .

فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه الله كما قال : ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم﴾(١) أو يغير النعمة ويكفر بها فيغير الله في حقه سنته فيعطيه ما يطغيه ، قال تعالى : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٢) .

وكما أن إيتاء الممال والبنين وسائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقة والشرائع السماوية المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها ومن حيث الابتلاء بها والتلبّس بالعمل بها من الرزق المقسوم .

فلو نزلت المعارف والأحكام عن آخرها دفعة واحدة ـ على ما لها من الإحاطة والشمول لجميع شؤون الحياة الإنسانية ـ لشقّت على الناس ولم يؤمن بها إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله على تدريجاً وعلى مكث وهياً بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض ، قال تعالى : ﴿وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ (٣) .

وكذا المعارف العالية التي هي في بطون المعارف الساذجة الدينية لولم يضرب عليها بالحجاب وبينت لعامة الناس على حد الظواهر المبينة لهم لم يتحملوها ودفعته أفهامهم إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه كلمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كل على قدر فهمه وسعة صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك: ﴿أَنْزُلُ مَنْ السماء ماءً فسالت أودية بقدرها ﴿أَنْزُلُ مَنْ السماء ماءً فسالت أودية بقدرها ﴾ (٤).

وكذلك الأحكام والتكاليف الشرعية لـو كلّف بجميعها جميع الناس لتحرَّجوا منها ولم يتحمَّلوها لكنه سبحانه قسَّمها بينهم حسب تقسيم الابتـلاءات المقتضية لتوجّه التكاليف المتنوِّعة بينهم .

فالرزق بالمعارف والشرائع من أي جهـة فرض كـالرزق الصـوري مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم .

قوله تعالى : ﴿وهو السذي ينزُّل الغيث من بعد ما قسطوا وينشر رحمته وهو الوليُّ الحميد﴾ القنوط اليأس ، والغيث المطر ، قال في مجمع البيان : الغيث ما

⁽١) آل عمران : ١٥٤ . (٣) الإسراء : ١٠٦ .

⁽٢) الرعد : ١١ . (٤) الرعد : ١٧ .

كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضارًا في وقته وغير وقته . انتهى . ونشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس بـإنبات النبـات وإخراج الثمـار التي يكون سببها المطر .

وفي الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التي لها تعلَق ما بالأرزاق ، ويتلوها في هذا المعنى آيات ، وتذييل الآية بالاسمين : الوليّ الحميدَ وهما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل .

قوله تعالى : ﴿وَمِن آيَاتُهُ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بِثَ فَيَهُمَا مِنْ دَابَّةَ﴾ الخ ، البث التفريق ، ويقال : بث الريح التراب إذا أثاره ، والدابة كل ما يدبّ على الأرض فيعم الحيوانات جميعاً ، والمعنى ظاهر .

وظاهر الآية أن في السموات خلقاً من الدواب كالأرض ، وقول بعضهم : إن سا في السموات من دابة هي الملائكة يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكة غير معهود .

وقوله: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ إشارة إلى حشر ما بتُ فيهما من دابة وقد عبَّر بالجمع لمقابلته البث الذي هو التفريق، ولا دلالة في قوله: ﴿على جمعهم﴾ حيث أتى بضمير أولي العقل على كون ما في السموات من الدواب أولي عقل كالإنسان لقوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾(١).

والقدير من أسمائه تعالى الحسنى وهو الذي أركزت فيه القدرة وثبتت ، قال الراغب : القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما ، وإذا وصف الله بها فهي نفي العجز عنه ، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى وإن أطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال : قادر على كذا ، ومتى قيل : هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد ، ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه .

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه ولذلك لا يصح أن يـوصف به إلا الله تعـالى قال : ﴿إنـه على ما يشاء قديـر﴾ ، والمقتدر يقاربه نحو ﴿عند مليك مقتدر﴾ لكن قد يـوصف به البشـر ، وإذا استعمل في

⁽١) الأنعام : ٣٨ .

الله فمعناه معنى القدير وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة ، انتهى .

وهو حسن غير أن في قوله: إن القدرة إذا وصف بها الله فهي نفي العجز عنه مساهلة ظاهرة فإن صفاته تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابية هي عين الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياة بمعنى انتفاء الموت والعلم بمعنى انتفاء الجهل والقدرة بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون ولازمه خلو الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرت تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء ، ولازم هذا المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه تعالى .

قرله تعالى : ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ المصيبة النائبة تصيب الإنسان كأنها تقصده ، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيئات ، وقوله : ﴿ويعفو عن كثير ﴾ أي عن كثير مما كسبت أيديكم وهي السيئات .

والخطاب في الآية اجتماعي موجّه إلى المجتمع غير منحل إلى خطابات جنوئية ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم المصائب العامة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك .

فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم ويصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها .

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴿ (١) ، وقوله: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا ﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (٣) ، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني ارتباطاً خاصاً فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات وفتحت عليه البركات ولو أفسد عليهم .

⁽١) الروم : ٤١ .

 ⁽۲) الأعراف: ۹۱.
 (۳) الرعاد: ۱۱.

هذا ما تقتضيه هذه السنة الإلهية إلا أن ترد عليه سنة الابتلاء أو سنة الاستدراج والإملاء فينقلب الأمر ، قال تعالى : ﴿ثم بدُّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسَّ آباءنا السرَّاء والضراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾(١) .

ويمكن أن يكون الخطاب في الآية عامّاً منحلًا إلى خـطابات الأفـراد فيكون مـا يصاب كل إنسان بمصيبة في نفسه أو مالـه أو ولده أو عـرضه ومـا يتعلق به مستنـداً إلى معصية أتى بها وسيئة عملها ويعفو الله عن كثير منها .

وكيف كان فالخطاب في الآية لعامة الناس من المؤمن والكافر وهو الذي يفيده السياق وتؤيده الآية التالية هذا أولاً ، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيئات دون مطلق الأعمال ، وهذا ثانياً ، والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال وهذا ثالثاً .

وبما ذكر يندفع أولاً ما استشكل على عموم الآية بالمصائب النازلة على الأنبياء علي الأنبياء على الأطفال عليهم السلام وهم معصومون لا معصية لهم ، المصائب النازلة على الأطفال والمجانين وهم غير مكلفين بتكليف فلا معصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأطفال والمجانين .

وجه الاندفاع أن إثبات المعصية لهم في قوله: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتَ أَيْدَيْكُم ﴾ دليل على أن الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين وغير المكلفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التخصص دون التخصيص.

وثانياً ما قيل : إن مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعاً فإنها بين ما يجزون عليها بإصابة المصائب وما يعفى عنها .

وجه الاندفاع أن الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دنيوية سيئة منها ما يصيب الإنسان ولا يخطى، ومنها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة وحكم مانعة كصلة الرحم والصدقة ودعاء المؤمن والتوبة وغير ذلك مما وردت به الأخبار، وأما جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة إليه كما تقدم.

على أن الخطاب في الآية يعم المؤمن والكافر كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا معنى لتبعضها في الدلالة فتدل على المغفرة في المؤمن وعدمها في الكافر .

⁽١) الأعراف : ٩٥ ،

وبعد هذا كله فالوجه الأول هو الأوجه .

قوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ ، معنى الآية ظاهر وهي باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونه من ولي يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم ويعينكم على دفعها .

قوله تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ ، الجواري جمع جارية وهي السفينة ، والأعلام جمع علم وهو العلامة ويسمى به الجبل وشبهت السفائن بالجبال لعظمها وارتفاعها والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأَ يَسَكُنَ الرَبِحِ فَيَبِظُلُلُنَ رَوَاكُدَ عَلَى ظَهَرَه ﴾ النح ، ضمير «يشأ» لله تعالى ، وظل بمعنى صار ، و «رواكد» جمع راكدة وهي الثابتة في محلها والمعنى : إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجواري فيصرن أي الجواري ثوابت على ظهر البحر .

وقوله: ﴿إِنْ فِي ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ أصل الصبر الحبس وأصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل ، والمعنى: إنَّ فيما ذكر من أمر الجواري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعتهم من ساحل إلى ساحل لأيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه واشتغل بالتفكر في نعمه والتفكر في النعمة من الشكر.

وقيل : المراد بكل صبّار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضرّاء أو في السرّاء فإن كان في الضرّاء كان من الصابرين وإن كان في السرّاء كان من الشاكرين .

قوله تعالى : ﴿ أُو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾ الإيباق الإهلاك ، وضمير التأنيث للجواري وضمير التذكير للناس ، ويوبقهن ويعف معطوفان على «يسكن» ، والمعنى : إن يشأ يهلك الجواري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات ويعف عن كثير منها أي إن بعضها كاف في اقتضاء الإهلاك وإن عفى عن كثير منها .

وقيل: المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازاً أو بتقدير مضاف ، و «يـوبقهن» بالعطف على «يسكن» في معنى يـرسل الـرياح العـاصفة فيـوبقهم ، والمعنى : إن يشأ

يسكن الربح المخ ، وإن يشأ يـرسلها فيهلكهم بـالإغـراق وينج كثيـر منهم بـالعفـو ، والمحصّل : إن يشأ يسكن الربح أو يـرسلها فيهلك نـاساً بـذنوبهم وينج ناسـاً بالعفـو عنهم . ولا يخفى وجه التكلف فيه .

وقيل: إن «يعف» عطف على قوله: ﴿ يسكن الريح ﴾ إلى قوله: ﴿ بما كسبوا ﴾ ولذا عطف بالواو لا بأو، والمعنى: إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف وإن يشأ يعف عن كثير. وهو في التكلف كسابقه.

قوله تعالى : ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ قيل : هو غاية معطوفة على أخرى محذوفة ، والتقدير نحو من قولنا : ليظهر به قدرته ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر ولا مخلص ، وهذا كثير الورود في القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغاية كقوله : ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾(١).

وقوله : ﴿وليكون من الموقنين﴾(٢) .

وجوَّز بعضهم أن يكون معطوفاً على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتني أكرمك وأُعطيك كذا وكذا بنصب أعطيك ، والمسألة نحوية خلافية فليرجع إلى ما ذكروه فيه .

قوله تعالى: ﴿ فما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ الخ ، تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق وتقسيم له إلى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر وما عند الله من رزق الأخرة المختص بالمؤمنين ، وفيه تخلص إلى ذكر صفات المؤمنين وذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة .

فقوله: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِن شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ الخطاب للناس على ما يفيده السياق دون المشركين خاصة ، والمراد بما أُوتِيتُم مِن شيء جميع ما أعطيه للناس ورزقوه من النعيم ، وإضافة المتاع إلى الحياة للإشارة إلى انقطاعه وعدم ثباته ودوامه ، والمعنى : فكل شيء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به في أيام قلائل .

وقوله : ﴿ وَمَا عَنْدُ اللَّهِ خَيْرُ وَأَبْقَى لَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبُّهُمْ يَتُوكُلُونَ ﴾ المراد بما

⁽١) آل عمران : ١٤٠ .

⁽٢) الأنعام : ٥٥ .

عند الله ما ادَّخره الله تُـوابـأ ليثيب بـه المؤمنين ، والـلام في ﴿للَّذِينَ آمنـوا﴾ للملك والظرف لغو ، وقيل اللام متعلق بقوله : وأبقى، والأول أظهر ، وكون مـا عند الله خيـراً لكونه خالصاً من الألم والكدر وكونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الأخر .

قوله تعالى : ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ عطف على قوله : ﴿الذين آمنوا﴾ والآية وآيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنة وقول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق .

وكبائر الإئم المعاصي الكبيرة التي لها آثار سوء عظيمة وقد عدَّ تعالى منها شرب الخمر والميسر ، قال تعالى : ﴿قل فيهما إثم كبيرٌ ﴾(١) ، والفواحش جمع فاحشة وهي المعصية الشنيعة النكراء وقد عدَّ تعالى منها الزنا واللواط قال : ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾(٢) ، وقال حاكياً عن لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَة وأَنْتُم تَبْصُرُونَ ﴾(٣) .

وقوله : ﴿يجتنبون كبائر الإِثم والفواحش﴾ وهو في سورة مكية إشارة إلى إجمـال ما سيفصّل من تشريع تحريم كبائر المعاصي والفواحش .

وفي قوله: ﴿وَإِذَا غَضِبُوا هُمْ يَغَفُرُونَ﴾ إشارة إلى العَفُو عَنْدُ الْغَضِبُ وَهُو مِنْ أخصَّ صفّات المؤمنين ولذا عبَّر عنه بما عبَّر ولم يقبل: ويغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد وليس قصراً للمغفرة عند الغضب فيهم.

قوله تعالى : ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ﴾ الخ ، الاستجابة هي الإجابة واستجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة ـ على ما يفيده السياق ـ وذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه .

على أن الظاهر أن الآيات مكية ولم يشرَّع يومئـذ أمثال الـزكاة والخمس والصوم والجهاد، وفي قوله: ﴿والذين استجابوا لـربهم﴾ من الإشارة إلى إجمال الأعمال الصالحة المشرَّعة نظير ما تقدَّم في قوله: ﴿والذين يجتنبون﴾ الخ، ونظير الكلام جار في الآيات التالية.

وقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ قال الراغب : والتشاور والمشاورة والمشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شِرت العسل إذا أخذته من

⁽١) البقرة: ٢١٩.

⁽٣) النمل : ٥٤ .

موضعه واستخرجته منه ، قال تعالى : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ والشورى الأمر الذي يتشاور فيه ، قال تعالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ انتهى . فالمعنى : الأمر الذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه ، ويظهر من بعضهم أنه مصدر ، والمعنى : وشأنهم المشاورة بينهم .

وكيف كان ففيه إشارة إلى أنهم أهل الرشد وإصابة الـواقع يُمعنـون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقـول فالآيـة قـريبـة المعنى من قـول الله تعـالى : ﴿الـذين يستمعون القول فيتُبعون أحسنه﴾ (١) .

وقوله: ﴿وَمِمَا رَزُقْنَاهُمُ يَنْفَقُونَ﴾ إشارة إلى بذل المال لمرضات الله .

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ قال الراغب : الانتصار والاستنصار طلب النصرة . انتهى . فالمعنى : الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصرة من الأخرين وإذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحدة فكأن الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومة قباله وأعدوا عليه النصرة .

وعن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم وتخاصم واستبق وتسابق والمعنى عليه ظاهر .

وكيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم فإن المقاومة دون الظلم وسد بابه عن المجتمع لمن استطاعه والانتصار والتناصر لأجله من الواجبات الفطرية ، قال تعالى : ﴿ وَإِن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ إلى آخر الآية بيان لما جعل للمنتصر في انتصاره وهو أن يقابل الباغي بما فعله وليس بظلم وبغي .

قيل: وسمى الثانية وهي ما يأتي بها المنتصر سيئة لأنها في مقابلة الأولى كما قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾(٤)، وقال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعاية

(٣) الحجرات: ٩.

⁽١) الزمر: ١٨.

⁽٤) البقرة : ١٩٤ .

لحقيقة معنى اللفظ وإشارة إلى أن مجازاة السيئة بمثلها إنما تحمد بشرط المماثلة من غير زيادة .

وقوله: وفمن عفا وأصلح فأجره على الله وعد جميل على العفو والإصلاح، والظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه وبين ربه، وقيل: المراد إصلاحه ما بينه وبين ظالمه بالعفو والإغضاء.

وقوله: ﴿إِنه لا يحب الظالمين﴾ قيل: فيه بيان أنه تعالى لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبه إياه ولكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، ولحبه تعالى الإحسان والفضل.

وقيل : المراد أنه لا يحب الظالم في قصـاص وغيره بتعـدّيه عمـا هو لـه إلى ما ليس هو له .

والوجهان وإن كانا حسنين في نفسهما لكن سياق الآية لا يساعـد عليهما وخـاصة مع حيلولة قوله : ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ بين التعليل والمعلل .

ويمكن أيضاً أن يكون قوله : ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ تعليـالاً لأصل كـون جزاء السيئة سيئة من غير نظر إلى المماثلة والمساواة .

قوله تعالى : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ إلى قوله ﴿لمن عزم الأمور﴾ ضمير وظلمه، راجع إلى المظلوم . والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله .

الآيات الثلاث تبيين ورفع لبس من قوله في الآية السابقة : ﴿ فَمَنَ عَفَا وأَصَلَحَ فَاجِرهُ عَلَى الله ﴾ فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فبين سبحانه بقوله أولاً : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ أن لا سبيل على المظلومين ولا مجوّز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي ، وإرجاع ضمير الإفراد إلى الموصول أولاً باعتبار لفظه ، وضمير الجمع ثانياً باعتبار معناه .

وبين بقوله ثانياً : ﴿إِنَمَا السبيلِ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ أن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين ، وأكد ذلك ذيلا بقوله : ﴿أُولئك لهم عذاب أليم﴾ .

وبين بقوله ثالثاً: ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أن الدعوة إلى الصبر والعفو ليست إبطالًا لحق الانتصار وإنما هي إرشاد إلى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذي هو من عزم الأمور ، وقد أكد الكلام بلام القسم أولًا وباللام في خبر إن ثانياً لإفادة العناية بمضمونه .

قوله تعالى: ﴿ وَمِن يَصْلُلُ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِي مِن بِعِده ﴾ النح ، لما ذكر المؤمنين بأوصافهم وأنَّ لهم عند الله رزقهم المدّخر لهم وفيه سعادة عقباهم التي هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم وهم النظالمون الآئسون من تلك الهداية الموصلة إلى السعادة المحرومون من هذا الرزق الكريم فبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم وتكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق ولا يسعدهم به وليس لهم من دونه من ولي حتى يتولى أمرهم ويرزقهم ما حرّمهم الله من المرزق ، فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا لبعملوا صالحاً فيكونوا أمثال المؤمنين .

فقوله: ﴿ومن يضلل الله ﴾ الخ ، من قبيل وضع السبب وهنو إضلال الله لهم وعدم ولي آخر يتولى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبب وهو الهداية والرزق .

وقوله : ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ إشارة إلى تمنيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة ومشاهدة العذاب .

و «ترى» خطاب عام وجه إلى النبي مُشَّلَتُ بِمَا أَنَهُ رَاءً وَهُعَنَاهُ وَتَرَى وَيَرَى كُلُّ مَنَّ هُو رَاءً ، وَقَيْهُ إِلَى أَنْهُم يَتَمَنُونَ ذَلَكَ عَلَى رؤس الأشهاد ، والمرد هو الرد .

قوله تعالى : ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الـذل ينظرون من طرف خفي ﴿ ضمير «عليها ولنار لدلالة المقام عليها وخفي الطرف ضعيفه وإنما ينظر من طرف خفي . إلى المكاره المهولة من ابتلي بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها ولا يجترى أن يمتلى بها بصره كالمبصور ينظر إلى السيف ، والباقي ظاهر .

وقوله: ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي إن الخاسرين كل الخسران وبحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة وأهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة . وقيل أهلوهم أزواجهم من الحور وخدمهم في الجنة لو آمنوا ولا يخلو من وجه نظراً إلى آيات وراثة الجنة .

وهذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامة ـ والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع ـ لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى إلى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام ، وليس القائلون به جميع المؤمنين كاثنين من كانوا وإنما هم الكاملون منهم المأذون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضاً كأصحاب الأعراف وشهداء الأعمال قال تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ (١) . وقال : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صواباً ﴾ (٢) .

فلا يصغى إلى ما قيل: إن القول المذكور إنما نسب إلى المؤمنين للدلالة على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامة ونجوا من الخسران وإلا فالقول قول كل من يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤية المذكورة قبله رؤية كل من تتأتى منه الرؤية .

وقوله : ﴿ أَلَا إِنَ الطَّالَمِينَ فِي عَذَابِ مَقِيمٍ ﴾ تسجيل عليهم بالعذاب وأنه دائم غير منقطع ، وجوّز أن يكون من تمام كلام المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ﴾ النح ، هـذا التعبير أعني قوله : ﴿وما كان لهم ﴾ النح ، دون أن يقال : وما لهم من ولي كما قيل أولاً للدلالة على ظهور بطلان دعواهم ولاية أوليائهم في الدنيا وأن ذلك كان باطلا من أول الأمر .

وقوله: ﴿وَمِن يَضَلَلُ اللهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلَ﴾ صالح لتعليل صدر الآية وهـو كالنتيجة لجميع ما تقدم من الكلام في حال الظالمين في عقباهم، ونوع انعطاف إلى ما سبق من حديث تشريع الشريعة والسبيل بالوحي.

فهو كناية عن أنه لا سبيل إلى السعادة إلا سبيل الله الذي شرعه لعباده من طريق الوحي والرسالة فمن أضله عن سبيله لكفره وتكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدي به إلى سعادة العقبى والتخلص من العذاب والهلاك .

قوله تعالى : ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله مــا لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكيــر﴾ دعوة وإنــذار بيوم القيــامة المــذكور في الآيــات

⁽۱) هود : ۱۱۵ .

⁽٢) النبأ: ٣٨.

السابقة على ما يعطيه السياق ، وقـول بعضهم : إن المراد بـاليوم يـوم الموت غيـر وجيه .

وفي قوله: ﴿لا مردُّ له من الله﴾ «لا» لنفي الجنس و «مرد» اسمه و «له» خبره و «من الله عن «مرد» ، والمعنى : يـوم لا ردَّ لـه من قبـل الله أي إنـه مقضي محتوم لا يردِّه الله البتة فهو في معنى ما تكرر في كلامه تعالى من وصف يوم القيـامة بأنه لا ريب فيه .

وقد ذكروا للجملة أعني قـولـه : ﴿يوم لا مـرد لـه من الله ﴾ وجـوهـاً أخـر من الإعراب لا جدوى في نقلها .

وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ مَنْ مَلْجَأَ يُـومَئْذُ وَمَا لَكُمْ مَنْ نَكِيرٍ ﴾ الملجأ الملاذ اللذي يُلتجأ إليه والنكير _ كما قيل _ مصدر بمعنى الإنكار ، والمعنى : ما لكم من ملاذ تلتجئون إليه من الله وما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكُ عَلَيْهُمْ حَفَيْظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البّلاغ ﴾ عدول من خطابهم إلى خطاب النبي مَتَّلَتُ لإعلام أن ما حمّله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلّغاً لدين الله إن عليه إلا البلاغ ولم يرسل حفيظاً عليهم مسؤولاً عن إيمانهم وطاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض ويتعب نفسه لإقبالهم عليه .

قوله تعالى : ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة ونسيان المنعم ، والمراد بالسيئة المصيبة التي تسوء الإنسان إذا أصابته ، وقوله : ﴿فإن الإنسان كفور﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير ، والنكتة فيه تسجيل الذمّ واللوم عليه بذكره باسمه .

وفي الآية استشعار بإعراضهم وتوبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفلة إن ذكر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله ، وإن ذكر بسيئة تصيبه بما قدَّمت يداه شغله الكفران عن ذكر ربه فهو في غفلة عن ذكر ربه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لا تنجح فيه دعوة ولا تنفع فيه موعظة .

قوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ﴾ إلى آخر الآيتين ،

للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المـذكورين فيهمـا من قبيل الرزق .

وقيل: إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقة الرحمة وإصابة السيئة وأن الإنسان يفرح بالرحمة ويكفر في السيئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات والأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها ويشتغل به ولا لمن أصابته السيئة أن يكفر ويعترض بىل له الخلق والأمر فعلى المرحوم أن يشكر وعلى المصاب أن يرجع إليه .

ويبعّده أنه تعالى لم ينسب السيئة في الآية السابقة إلى نفسه بـل إلى تقديم أيـديهم فلا ينـاسبه نسبـة القسمين جميعـاً في هـذه الآيـة إلى مشيّتـه ودعـوتهم إلى التسليم لها .

وكيف كان فقوله: ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ﴾ فيه قصر الملك والسلطنة فيه تعالى على جميع العالم وأن الخلق منوط بمشيّته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيئة أو يضطره على الخلق .

وقوله : ﴿ يَهِب لَمِن يَشَاء إِنَاثًا وَيَهِب لَمِن يَشَاء الذَّكُور ﴾ الإناث جمع أنثى والذكور والذكران جمعا ذكر ، وظاهر التقابل أن المراد هبة الإناث فقط لمن يشاء وهبة الذكور فقط لمن يشاء ولذلك كرّرت المشيئة، قيل : وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم وخاصة العرب .

وقوله: ﴿أَو يَرْوَجَهُم ذَكُرَاناً وَإِنَاثاً﴾ أي يجمع بينهم حال كونهم ذكراناً وإناثاً معاً فالتزويج في اللغة الجمع ، وقوله: ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي لا يلد ولا يولد له ، ولما كان هذا أيضاً قسماً برأسه قيده بالمشيئة كالقسمين الأولين ، وأما قسم الجمع بين الذكران والإناث فإنه بالحقيقة جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشيئة فيهما.

وقوله : ﴿إنه عليم قدير﴾ تعليل لما تقدم أي إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهـل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز .

(بحث روائي)

في الدرّ المنثور أخرج الحاكم وصحّحه والبيهقي عن علي قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا .

أقول : والآية على هذا مدنية لكن الرواية أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول .

وفي تفسير القمي قوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ قال الصادق على الله على المعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ﴿ولكن ينزّل بقدر ما يشاء﴾ مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم ودنياهم ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾.

وفي المجمع روى أنس عن النبي مسلم عن جبرئيل عن الله جلَّ ذكره ; إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقمة لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو يصلحه إلا العنى ولو أنقرته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ، وذلك أنّي أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم .

وفي تفسير القمي حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي حميزة عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه قال: إني سمعته يقول: إني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه. ثم أقبل علينا فقال: ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا كان الله أحكم وأجود وأمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة.

ثم قال : وقد يبتلي الله عز وجل المؤمن بالبلية في بدنه أو ماله أو ولـده أو أهله ثم تـلا هذه الآيـة : ﴿وما أصـابكم من مصيبة فبما كسبت أيـديكم ويعفـو عن كثير﴾ وحثا بيده ثلاث مرات .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله ما أنه أما إنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب وذلك قول الله عز وجل في كتابه: ﴿ وَمَا أَصَابِكُم مِن مَصَيبَة فَهِمَا كَسِبَ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ قال: ثم قال: وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به.

أقول : وروى هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه ﷺ، وروى مثله في

الدر المنثور عن الحسن عن النبي عَلَيْهِ وَلَفظه : لما نزلت هذه الآية ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ قال رسول الله عَلَيْهِ ﴿ والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عشرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وفي الكافي أيضاً بإسناده عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابِكُم مَن مَصَيبَة فَبِمَا كُسبَت أَيديكُم﴾ أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته عليهم السلام من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟

فقال : إن رسول الله سَلَمَاتُ كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائـة مرة من غير ذنب إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها .

وفي المجمع روي عن علي مَشَنَّهُ أنه قال: قال رسول الله مَشَرَاتُهُ: خير آية في كتاب الله هذه الآية. يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب، وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن ينتي على عبده.

أقول: ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن علي علي على المنتفرة عنه المنتفرة ، وفحوى الرواية أن قوله تعالى: ﴿وما أصابكم ﴾ الآية خاص بالمؤمنين والخطاب لهم وأن مفاده غفران ذنوبهم كافة فيلا يعاقبون عليها في برزخ ولا قيامة لأن الآية تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابة المصيبة ومعفو عنه ومفاد الرواية نفي المؤاخذة بعد العفو.

فيشكل الأمر أولاً: من جهة ما عرفت أن الآية في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن والكافر.

وثانياً: من جهة معارضة الرواية لما ورد في أخبار متكاثرة لعلها تبلغ حد التواتـر المعنوي من أن من المؤمنين من يعذب في قبره أو في الآخرة .

وثالثاً: من جهة مخالفة الرواية لظواهر ما دلت من الآيات على أن موطن جمزاء الأعمال هي الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جماء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا

يستقدمون (١) ، وغيره من الآيات الدالة على أن كل مظلمة ومعصية مأخوذ بها وأن موطن الأخذ هو ما بعد الموت وفي القيامة إلا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك .

على أن الآية أعني قوله: ﴿ وَمَا أَصَابِكُم مِن مَصِيبَة فِيمَا كَسِبَ أَيديكُم ويعفُو عن كثير ﴾ _ كما تقدمت الإشارة إليه _ غير ظاهرة في كون إصابة المصيبة جزاء للعمل ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء وإنما هو الأثر الدنيوي للسيئة يصيب مرة ويمحى أخرى.

فالحري أن تحمل الرواية ـ لو قبلت ـ على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه .

وفي المجمع في قول تعالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم ﴾ وقد روي عن النبي المناه أنه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشد .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر سَلِنَكُ في قوله عز وجل : ﴿ وَيَهِبُ لَمِنْ يَشَاءُ اللَّذَكُور ﴾ وجل : ﴿ وَيَهِبُ لَمِنْ يَشَاءُ اللَّذَكُور ﴾ يعني ليس معهن ذكور ﴿ وَيَهِبُ لَمِنْ يَشَاءُ اللَّذَكُور ﴾ يعني ليس معهم أُنثى ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثًا ﴾ أي يهب لمن يشاء ذكرانا وإناثا وجميعاً يجمع له البنين والبنات أي يهبهم جميعاً لواحد .

وفي التهذيب بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن علي عن آبائه عن علي مشخة قال : أتى النبي مشخص رجل فقال : يا رسول الله إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي فقال رسول الله مشخص : أنت ومالك من هبة الله لأبيك أنت سهم من كنانته ويهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً جازت عتاقة أبيك يتناول والدك من مالك وبدنك وليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا بإذنه .

أقول: وهذا المعنى مروي عن الرضا عليه في جواب مسائل محمد بن سنان في العلل ومروي من طرق أهل السنة عن عائشة عنه مسلمة.

(١) النحل : ٦١ .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٍّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذْلِكَ أُوحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَـدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ وَلَكُنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلَىٰ وَلَكُنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ وَلَكُنْ حَمَا فِي السَّمُواتِ وَمَا فِي السَّمُواتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٣٥) .

(بیان)

تتضمن الأيات آخر ما يفيده سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة وهو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ثم يذكر أنه يوحي إليه منفرة ما يوحي ، على هذه الوتيزة وأن ما أوحي إليه منه تعالى لم يكن النبي منفرة يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده ويهدي به الله من يشاء من عباده ويهدي به النبي منفرة بإذنه .

قوله تعالى : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو برسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء النخ ، قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب ، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال : ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ((۱) ، وقال : ﴿وكلّم الله موسى تكليماً ((۲) ، ومن مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي .

- وعلى هذا لا موجب لعد الاستثناء في قوله: ﴿ إِلا وحياً ﴾ منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكل واحد من الوحي وما كان من وراء حجاب وما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

الأعراف: ١٤٤ . (٢) النساء: ١٦٤ .

فقوله: ﴿وحياً﴾ ـ والوحي الإشارة السريعة على ما ذكوه الراغب ـ مفعول مطلق نوعي وكذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي ، والمعنى : ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء .

ثم إن ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام وقد قبّد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب ، والرسول الذي يوحي إلى النبي ولم يقيّد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلاً ، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي وكل منهما واسطة غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح وإنما الوحي من ورائه .

فتحصّل أن القسم الثالث ﴿أو يـرسل رسـولاً فيوحي بـإذنـه مـا يشـاء ﴾ وحي بـروسُط الرسـول الذي هـو ملك الوحي فيـوحي ذلك الملك بـإذن الله مـا يشـاء الله سبحانه قال تعالى : ﴿فرل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (١) ، وقال : ﴿قل من كـان عدواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله ﴾ (٢) ، والموحي مع ذلك هو الله سبحانـه كما قال : ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (٣) .

وأما قول بعضهم : إن المراد بالـرسول في قـوله : ﴿أُو يـرسل رسـولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ هو النبي يبلغ الناس الوحي فلا يلائمه قـوله : ﴿يـوحي﴾ إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي .

وأن القسم الثاني ﴿أو من وراء حجاب﴾ وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنما يبتدىء الوحي مما وراءه لمكان من ، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به ، قال تعالى : ﴿والله من ورائهم محيط﴾ (٤) ، وهذا كتكليم موسى عَلَيْكُ، في الطور ، قال تعالى : ﴿ولله أَنَاهَا نُودِي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ (٥) ،

(٥) القصص : ٣٠ .

⁽١) الشعراء : ١٩٤ .

⁽٣) يوسف : ٣ .

⁽٤) البروج : ٢٠ .

⁽٢) البقرة: ٩٧.

ومن هذا الباب ما أُوحي إلى الأنبياء في مناماتهم .

وأن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض .

ولما كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأي قسم من الأقسام تحقق وبهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ (١). وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ (٢).

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة ، وللمفسرين فيها أبحاث طويلة الذيـل ومشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصّلات .

وقوله: ﴿إِنّه علي حكيم ﴾ تعليل لمضمون الآية فهو تعالى لعلوه عن الخلق والنظام الحاكم فيهم يجل أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً ، ولعلوه وحكمته يكلمهم بما اختار من الوحي وذلك أن هداية كل نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (٣) ، وقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل ﴾ (٤) ، وسعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعادته بالشعور والعلم في إعلام سعادته والدلالة إلى سنة الحياة التي تنتهي إليها ولا يكفي في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء والإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطىء البتة ، وقد فصلنا القول في هذه الحجة في موارد من هذا الكتاب .

قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ الخ ، ظاهر السياق كون «كذلك» إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث ، ويؤيده الروايات الكثيرة الدالة على أنه مرابي كما كان يوحى إليه بتوسط جبريل وهو القسم الثالث كان يوحى إليه في المنام وهو من القسم الثاني ويوحى إليه من دون توسط واسطة وهو القسم الأول .

وقيل : الإشارة إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء وهــذا متعين على تقديــرُ

(١) النساء : ١٦٣ . (٣) طه : ٥٠ .

(٢) النحل: ٣٤ . (٤) النحل: ٩ .

كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمري كما سيأتي .

والمراد بإيماء الروح ـعلى ما قيل ـ إيحاء القرآن وأيّد بقوله : ﴿ولكن جعلناه نوراً ﴾ الخ ، ومن هنا قيل : إن المراد بالروح القرآن .

لكن يبقى عليه أولاً: أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبس بها وتدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزّل إليك بوحينا ، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله : ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائداً مستغنى عنه .

وثانياً: أن القرآن وإن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى: ﴿إذا دعاكم لما يحييكم ﴾(١) ، وقال: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾(٢) ، لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله: ﴿من أمرنا ﴾ والمظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم ، قال تعالى: ﴿وتنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر (٢) ، وقال: ﴿وقل الروح من أمر ربي ﴾(٥) ، وقال: ﴿وأيدناه بروح القدس ﴾(١) ، وقد سمى جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قال: ﴿فنزل به الروح الأمين ﴾(١) ، وقال: ﴿قل نزله روح القدس من ربك ﴾(٥) .

ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام وإن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه والمناه المقاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه وآثاره الحسنة صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: وكذلك أوحينا إليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل وهو إيمانك به.

⁽١) الأنفال : ٢٤ .

 ⁽٥) الإسراء : ٨٥ .
 (٦) البقرة : ٨٧ .

⁽٢) الأنعام : ١٢٢ .

⁽٧) الشعراء : ١٩٣ .

⁽٣) القدر : ٤ .

⁽٨) النحلّ : ١٠٢ .

⁽٤) النبأ : ٣٨ .

وعن الثاني أن المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى وإرادة الروح الأسري أو جبريل منه يوجب أخذ وأوحينا المعنى أرسلنا إذ لا يقال: أوحينا الروح الأمري أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال وهو كما تسرى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخلوان عن شيء.

وقيل: المراد بالروح جبريل فإن الله سماه في كتابه روحاً قال: ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ .

وقيل: المراد بالروح الروح الأمري الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده إن أنذروا ﴿(٢) ، فالمراد بإيحائه إليه إنزاله عليه .

ويمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرفه في قوله: ﴿إِنَمَا أَمِره إِذَا أَرَاد شَيئاً أَن يقول له كن﴾ (٢) ، هو كلمته ، والروح من أمره كما قال: ﴿قل الروح من أمر ربي ﴾ (٤) ، فهو كلمته ، وهو يصدق ذلك قوله في عيسى ابن مريم مرسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ (٥) ، وإنزال الكلمة تكليم فلا ضير في التعبير عن إنزال الروح بإيحائه ، والأنبياء مؤيدون بالروح في أعمالهم كما أنهم يوحى إليهم الشرائع به قال تعالى : ﴿وأيدناه بروح القدس وقد تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ (١) .

ويمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال والإرسال بالقول بكون قوله : وروحاً منصوباً بنزع الخافض ورجوع ضمير وجعلناه إلى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب والمعنى وكذلك أوحينا إليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان ولكن جعلنا القرآن أو الكتاب نوراً الخ ، هذا وما أذكر أحداً من المفسرين قال به .

وقوله : ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ قد تقدم أن الآية مسوقة

(١) الشعراء : ١٩٤ . (٤) الإسراء : ٨٥ .

(٢) النحل : ٢ . (٥) النساء : ١٧١ .

(٣) يس : ٨٢ . (٦) الأنبياء : ٧٣ .

لبيان أن ما عنده عبر الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبله نفسه وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية فإن ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي ، وبعدم درايته بالإيمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة وقد سمي العمل إيماناً في قوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (١).

فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي والعملي بمضامينه وهذا لا ينافي كونه من الالتزام مؤمناً بالله موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملا ونفي العلم والالتزام الإجماليين بالإيمان بالله والخضوع للحق .

وبذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآية على أنه مَشِنَتُ كان غير متلبّس بالإيمان قبل بعثته .

ويندفع أيضاً ما عن بعضهم أنه عَيْمَاتُ لم يزل كاملًا في نفسه علماً وعملًا وهو ينافي ظاهر الآية أنه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان .

ووجه الاندفاع أن من الضروري وجود فرق في حاله ﷺ قبل النبوة وبعـدها والآية تشير إلى هذا الفرق ، وأن ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنمـا هو من الله من طريق الوحى .

وقوله: ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ ﴿جعلناه﴾ للروح والمراد بقوله: ﴿من نشاء﴾ على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبي مُنْتُنَاتُهُ ومن آمن به فإنهم جميعاً مهتدون بالقرآن.

وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمري فالمراد بمن نشاء جميع الأنبياء ومن آمن بهم من أممهم فإنه يهدي بالوحي الذي نزل به ، الأنبياء والمؤمنين من أممهم ويسدد الأنبياء خاصة ويهديهم إلى الأعمال الصالحة ويشير عليهم بها .

وعلى هذا تكون الآية في مقام تصديق النبي مُشَرِّتُ تصدقه في دعواه أن كتابه

(١) البقوة : ١٤٣ .

من عند الله بوحي منه ، وتصدقه في دعواه أنه مؤمن بما يـدعو إليـه فيكون في معنى قوله تعالى : ﴿ إِنْكُ لَمِنَ المرسلينَ عَلَى صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم ﴾ (١) .

وقوله: ﴿ وَإِنْكُ لَتَهْدِي إِلَى صَرَاطُ مَسْتَقْيِمٍ ﴾ إشارة إلى أن الذي يهدي إليه صراط مستقيم وأن الذي يهديه من الناس هو الـذي يهديه الله سبحانه، فهدايته الله الله الله .

قوله تعالى: ﴿ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض الخ ، بيان للصراط المستقيم الذي يهدي إليه النبي والمراب وتوصيفه تعالى بقوله: ﴿ الله ما في السماوات وما في الأرض كاللالة على الحجة على استقامة صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شيء ملك الغاية التي تسير إليها الأشياء والسعادة التي تتوجه إليها ، فكانت الغاية والسعادة هي التي عينها ، وكان الطريق إليها والسبيل الذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذي شرعه وبينه ، وليس يملك أحد شيئاً حتى ينصب له غاية ونهاية أو يشرع له إليها سبيلا ، فالسعادة التي يدعو سبحانه إليها حق السعادة والطريق الذي يدعو إليه حق الطريق ومستقيم الصراط .

وقوله: ﴿ الله إلى الله تصير الأمور﴾ تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات وما في الأرض فإن لازمه رجوع أمورهم إليه ولازمه كون السبيل الذي يسلكونه وهو من جملة أمورهم ـ راجعاً إليه فالصواط المستقيم هو صواطه فالمضارع أعني قوله: ﴿ تصير ﴾ للاستمرار.

وفيه إشعار بلم الوحي والتكليم الإلهي ، إذ لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه تعالى مسيل يسلكه وكان عليه تعالى أن يهديه إليه ويسوقه إلى غايته كما قال : ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾(٢) ، وهو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته وهو في الإنسان التكليم المسمى بالوحي والإرسال .

وقيل: المضارع للاستقبال والمراد مصيرها جميعاً إليه يوم القيامة ، وقد سيقت الجملة لـوعد المهتـدين إلى الصراط المستقيم ووعيـد الضالين عنـه ، وأول الوجهين أظهر .

⁽١) يس : ٥ .

⁽٢) النحل: ٩.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله منطق كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني الملك في مشل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وهو أشده علي ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله علينه : جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله عليه إذا نزل عليه الوحي ؟ قال : فقال : ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد ذاك إذا تجلى الله له . قال : ثم قال : تلك النبوة يا زرارة وأقبل يتخشع .

وفي العلل بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله مالين عبد الله عبد الله عبد الله عبد أبي عبد الله عبد عن أبي عبد الله عبد عن يديم قعدة العبد ، وكان لا يدخل حتى يستأذنه .

وفي البصائر عن علي بن حسان عن ابن بكير عن زرارة قال: سألت أبا جعفر على البسول الذي يأتيه جعفر على الرسول؟ من النبي؟ من المحدّث؟ فقال: الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلمه قبلاً فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلمه فهذا الرسول، والنبي الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم على ونحو ما كان يأخذ رسول الله على النبي من السبات إذا أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبي، ومنهم من يجمع له الرسالة والنبوة فكان رسول الله على النوم فهكذا النبي، ومنهم من يجمع له الرسالة والنبوة فكان رسول الله على النبي النبي ، ومنهم ويراه،

ويأتيه في النوم ، وأما المحدّث فهو الذي يسمع كلام الملك فيحدثه من غير أن يراه ومن غير أن يراه ومن غير أن يراه

أقول : وفي معناه روايات أخر .

وفي التوحيد بإسناده عن محمد بن مسلم ومحمد بن مسروان عن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عن أبي عبد الله الله الله علم رسول الله عند الله علم رسول الله عند الله

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله سَنْكُ عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلْكُ أُوحِينَا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان وال : خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله المنات بخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده.

أقول: وفي معناها عدة روايات وفي بعضها أنه من الملكوت، قال في روح المعاني: ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله والم يصعد إلى السماء، وهذا القبول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين. انتهى. والمذي في مجمع البيان: عن أبي جعفر وأبي عبد الله والله ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا. انتهى. واستغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب. على أنه يسلم تسديد هذا الروح لبعض الأثمة غير النبي كما هو ظاهر لمن راجع قسم الإشارات من تفسيره.

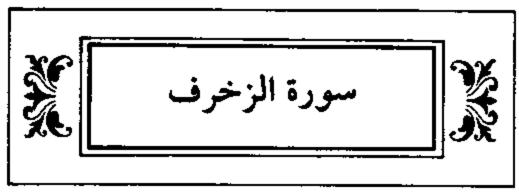
وفي النهج : ولقد قرن الله به ممنت من لـدن كـان فـطيمـاً أعـظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي قــال : قيل للنبي م^{منزي} : هــل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا . قــالوا : فهــل شــربت خمــراً قط ؟ قــال : لا . وما زلت أعــرف أن الذي هم عليــه كفر ومــا كنت أدري ما الكتــاب وما

الإيمان ، وبذلك نزل القرآن ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان ﴾ .

وفي الكافي بـإسنــاده عن أبي عمـرو الــزبيـري عن أبي عبـــد الله ﷺ في حديث : وقال في نبيه ﷺ : ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ يقول : تدعو .

وفي الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر سننظ قبال : سمعته يقبول : وقع مصحف في البحر فوجدوه وقد ذهب ما فيه إلا هذه الآية : ﴿ أَلَا إِلَى الله تصير. الأمور﴾ .



مكية ، وهي تسع وثمانون آية

بِسُم ِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حُمْ (۱) وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ الْعَلَيْ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذَّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِي عِنْكُمُ الذَّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِي فِي ٱلْأَوَّلِينَ (١) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِي إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهُمْ مَنْ أَلْ الْأَوْلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ فَأَهُلَكُنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ ٱلْأَوْلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمُواتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ تَخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَالْنَعُامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَرَ لَنَا هَلْذَا وَمَا كُنَا لَمُنْقَلِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) .

(بیان)

السورة موضوعة للإنذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخللة بينهما إلا ما في قوله : ﴿إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم﴾ إلى تمام ست آيات استطرادية .

تذكر أن السنّة الإلهية إنـزال الذكـر وإرسال الأنبيـاء والرسـل ولا يصده عن ذلـك إسـراف الناس في قـولهم وفعلهم بل يـرسل الأنبيـاء والرسـل ويهلك المستهـزئين بهم والمكذبين لهم ثم يسوقهم إلى نار خالدة .

وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولاً ثم سمّي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام ، وذكرت من إسراف الكفار أشياء ومن عمدتها قولهم بأن لله سبحانه ولداً وأن الملائكة بنات الله ففيها عناية خاصة بنفي الولد عنه تعالى فكررت ذلك وردّته وأوعدتهم بالعذاب ، وفيها حقائق متفرقة أخرى .

والسورة مكية بشهادة مضامين آياتها إلا قـوله : ﴿واسـأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ الآية ، ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله .

قوله تعالى: ﴿والكتاب المبين﴾ ظاهره أنه قسم وجوابه قوله: ﴿إِنَا جَعَلْنَاهُ قَرْآنًا عربياً﴾ إلى آخر الآيتين، وكون القرآن مبيناً هـو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى: ﴿ونزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تبياناً لكل شيء﴾(١)، أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه كما قال: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿إِنَا جَعَلْنَاهُ قَرْآناً عَرِبِياً لَعَلَكُم تَعَقَلُونَ ﴾ الضمير للكتاب ، و ﴿قَرْآناً عربياً ﴾ أي مقروءاً باللغة العربية و ﴿لعلكم تعقلونَ ﴾ غاية الجعل وغرضه .

وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأن له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس ، ومن شأن العقل أن ينال كل أمر فكري وإن بلغ من اللطافة والدقة ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبي عن العقول البشرية وإنما جعله الله قرآناً عربياً وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه ، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب

⁽١) النحل: ٨٩.

⁽٢) البقرة: ٢.

سورة الزخرف_ آية ١-٤ ٨٥

دون المتكلم كما تقدم غير مرة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فَي أَمُ الكتابِ لَدَيْنَا لَعَلَي حَكَيْمٍ ﴾ تأكيد وتبيين لما تــدلُّ عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصلي وراء تعقل العقول .

والضمير للكتاب ، والمراد بأم الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾(١) ، وتسميته بأم الكتاب لكونه أصل الكتب السماوية يستنسخ منه غيره ، والتقييد بأم الكتاب و ﴿لدينا ﴾ للتوضيح لا للاحتراز ، والمعنى : أنه حال كونه في أم الكتاب لدينا _حالاً لازمة _ لعلي حكيم ، وسيجيء في أواخر سورة الجاثية كلام في أم الكتاب إن شاء الله .

والمراد بكونه عليًا على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول ، وبكونه حكيماً أنه هناك محكم غير مفصّل ولا مُجزّاً إلى سور وآيات وجمل وكلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربياً كما استفدناه من قوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته ثم فضّلت من لدن حكيم خبير) (٢).

وهذان النعتان أعني كونه علياً حكيماً هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أولاً وكان مؤلفاً من مقدمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية ، وأما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزىء إلى أجزاء وفصول فلا طريق للعقل إلى نيله .

فمحصّل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين وإنما أنزلناه بجعله مقروّاً عربياً رجاء أن يعقله الناس.

فإن قلت : ظاهر قوله : ﴿لعلكم تعقلون﴾ إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربي النازل تعقلًا تاماً فهذا الذي نقرؤه ونعقله إما أن يكون مطابقاً لما في أم الكتاب كل المطابقة أو لا يكون ، والثاني باطل قطعاً كيف وهو تعالى يقول : ﴿وإنه في أم الكتاب﴾ و ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾(٢) ، و ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب

⁽١) البروج : ٢٢ .

⁽٢) هود : ١ .

مكنون﴾ (١) ، فتعيّن الأول ومع مطابقته لأم الكتاب كل المطابقة ما معنى كون القـرآن العربي الذي عندنا معقولًا لنا وما في أم الكتاب عند الله غير معقول لنا ؟

قلت : يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في أم الكتاب نسبة المثل والممثل فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك .

وبما مرّ يظهر ضعف الوجوه التي أوردوها في تفسير الوصفين كقول بعضهم : إن المراد بكونه علياً أنه عال في بلاغته مبين لما يحتاج إليه الناس ، وقول بعضهم : معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختص به من الإعجاز وهو ينسخ الكتب غيره ولا ينسخه كتاب ، وقول بعضهم يعني أنه يعظمه الملائكة والمؤمنون .

وكقول بعضهم في معنى ﴿حكيم﴾ أنه مظهر للحكمة البالغة ، وقول بعضهم معناه أنه لا ينطق إلا بالحكمة ولا يقول إلا الحق والصواب ، ففي توصيفه بالحكيم تجوّز لغرض المبالغة . وضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر في مفاد الآية السابقة وظهور أن جعله قرآناً عربياً بالنزول عن أم الكتاب .

قوله تعالى: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للتفريع على ما تقدم، وضرب الذكر عنهم صرفه عنهم. قال في المجمع: وأصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرف عن جهة ضربه بعصا أو سوط ليعدل به إلى جهة أخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل. انتهى والصفح بمعنى الإعراض فصفحاً مفعول له ، واحتمل أن يكون بمعنى الجانب ﴿وأن كنتم محذوف الجار والتقدير لأن كنتم وهو متعلق بقوله: ﴿أَفْنَضْرِبِ﴾ .

والمعنى : أفنصرف عنكم الذكر ـ وهو الكتـاب الـذي جعلنـاه قـرآنـاً لتعقلوه ـ للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جـانب لكونكم مسـرفين أي إنا لا نصرفه عنكم لذلك .

قوله تعالى : ﴿وكم أرسلنا من نبيٍّ في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤن﴾ ﴿كم﴾ للتكثير ، والأولـون هم الأمم الدارجـة و ﴿ما يـأتيهم﴾ الخ ، حـال والعامل فيها ﴿أرسلنا﴾ .

⁽١) الواقعة : ٧٨ .

والآيتان وما يتلوهما في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوماً مسرفين لا يمنعنا من إجراء منتة الهداية من طريق الوحي فإنا كثيراً مّا أرسلنا من نبي في الأمم الماضين والحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزؤا به وانجر الأمر إلى أن أهلكنا من هو أشد بطشاً منكم .

فكما كانت عاقبة إسرافهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة إسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي سنران ووعيد لقومه .

قوله تعالى: ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مشل الأولين ﴾ قال الراغب: البطش تناول الشيء بصولة. انتهى وفي الآية التفات في قوله: ﴿ منهم ﴾ من الخطاب إلى الغيبة ، وكأن الوجه فيه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبي المنابي العدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر وليكون تمهيداً لقوله بعد: ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ ويؤيده قوله بعد: ﴿ ولئن سألتهم ﴾ خطاباً للنبي منابي منابي ومعنى قوله: ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ ومضى في السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الأمم الأولين وأنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون.

قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴿ في الآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى وتوحده فيها مع إشارة ما إلى المعاد وتبكيت لهم على إسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لأمور العباد كجعل الأرض لهم مهداً وجعله فيها سبلاً وإنزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لأمورهم فهو الرب لا رب غيره .

وبذلك تبين أن الآية تقدمة وتوطئة لما تتضمنه الآيات التـالية من الحجـة وقد تقدم في هذا الكتاب مراراً أن الوثنية لا تنكر رجوع الصنع والإيجاد إليه تعالى وحده وإنما تدعي رجوع أمر التدبير إلى غيره .

قوله تعالى : ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلًا لعلكم تهتدون﴾ أي جعل لكم الأرض بحيث تربّون فيها كما يـربى الأطفال في المهـد، وجعل لكم في الأرض سبلًا وطرقاً تسلكونها وتهتدون بها إلى مقاصدكم .

وقيل : معنى ﴿لعلكم تهتدون﴾ رجماء أن تهتدوا إلى معرفة الله وتموحيده في

العبادة والأول أظهر .

وفي الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبي المنابة ولعل الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقة وهو أن التدبير بعينه من الخلق فاعترافهم بكون الخلق مختصاً بالله سبحانه وقولهم برجوع التدبير إلى غيره من خلقه من التهافت في القول جهلاً فقرعهم بهذا الخطاب من غير واسطة .

قوله تعالى: ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ويد تنزيل الماء بقدر للإشارة إلى أنه عن إرادة وتدبير لا كيف اتفق والانشار الإحياء، والميت مخفف الميت بالتشديد، وتوصيف البلدة به باعتبار أنها مكان لأن البلدة أيضاً إنما تتصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان، والالتفات عن الغيبة إلى التكلم مع الغير في ﴿أنشرنا ﴾ لإظهار العناية.

ولما استدل بتنزيل الماء بقدر وإحياء البلدة الميتة على خلقه وتدبيره استنتج منه أمراً آخر لا يتم التوحيد إلا به وهو المعاد الذي هـو رجوع الكـل إليه تعـالى فقال : ﴿كَذَلَكَ تَخْرَجُونَ﴾ أي كما أحيا البلدة الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء .

قيل: في التعبير عن إخراج النبات بالانشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتـوضيـح منهاج القياس.

قوله تعالى : ﴿والمذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ قيل : المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر وأنثى وأبيض وأسود وغيرها ، وقيل : المراد الزوج من كل شيء فكل ما سوى الله كالفوق وتحت واليمين واليسار والذكر والأنثى زوج .

وقوله: ﴿وَوَجُعُلُ لَكُمْ مِنَ الْفَلُكُ وَالْأَنْعَامُ مَا تَرَكَبُونَ﴾ أي تركبُونه ، والسركوب إذا نسب إلى الحيوان كالفرس والإبل تعدى بنفسه فيقال: ركبت الفرس وإذا نسب إلى مثل الفلك والسفينة تعدى بفي فيقال ركب فيه قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَكُبُوا فِي الفلك﴾ ففي قوله: ﴿مَا تَرَكُبُونَ أَي تُركِبُونَه تَعْلَيْبُ لَجَانَبُ الأَنْعَامُ .

قوله تعالى : ﴿لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا﴾ إلى قوله ﴿لمنقلبون﴾ الاستواء على الظهور الاستقرار عليها ، والضمير في

﴿ظهوره﴾ راجع إلى لفظ الموصول في ﴿ما تركبون﴾ ، والضمير في قوله : ﴿إِذَا استويتم عليه﴾ للموصول أيضاً فكما يقال : استويت على ظهر الدابة يقال : استويت على الدابة .

والمراد بذكر نعمة الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان إلى مكان وحمل الأثقال قال تعالى: ﴿وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾(١) ، وقال: ﴿والأنعام خلقها ﴾ إلى أن قال ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾(١) ، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم إليه .

وقوله : ﴿ وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وماكنا له مقرنين ﴾ أي مطيقين والإقران الإطاقة .

وظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعمها ولازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول: ﴿ سبحان الذي ﴾ الخ ، فإن هذا القول تسبيح وتنزيه له عما لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبية والألوهية ، وذكر النعمة شكر ـ كما تقدم ـ والشكر غير التنزيه .

ويؤيد هذا ما ورد عن النبي مسلماني وأئمة أهل البيت عليهم السلام في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول ﴿سبحان الذي﴾ الخ .

وروى في الكشاف عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه رأى رجـلًا يركب دابة فقال : سبحان الذي سخر لنا هـذا فقال : أبهـذا أمرتم ؟ فقـال : وبم أمرنـا ؟ قال : أن تذكروا نعمة ربكم .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبُّنَا لَمُنْقَلِّبُونَ ﴾ أي صائرون شهادة بالمعاد .

* * *

⁽١) إبراهيم : ٣٢ .

⁽٢) النحل: ٧.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أم آتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِٱلْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَـدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلًا ظَلِّ وَجْهُهُ مُسْوَدًاً وَهُوَ كَـظِيمٌ (١٧) ۖ أَوَمَنْ يُنَشُّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُـوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرٌ مُبِينِ (١٨) وَجَعَلُوا ٱلْمَـلَائِكَـةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَّاتًا أَشَهِ دُوا خَلْقَهُمْ سَتَكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِـذَٰلِكَ مِنْ عِلْم إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَـٰذِيرِ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أُولَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أَرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذّبينَ (٢٥)

(بیان)

حكاية بعض أقـوالهم التي دعاهم إلى القـول بها الإسـراف والكفر بـالنعم وهـو قولهم بالولد وأن الملائكة بنات الله سبحانه ، واحتجاجهم على عبادتهم الملائكة ورده عليهم .

قوله تعالى : ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ المراد بالجزء الولد فإن الولادة إنما هي الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته .

وإنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة إلى استحالة دعـواهم ، فإن جـزئية شيء من شيء كيفمـا تصورت لا تتم إلا بتـركب في ذلك الشيء والله سبحـانه واحـد من جميـع الجهات .

وقد بان بما تقدم أن ﴿من عباده﴾ بيان لقوله : ﴿جزءاً﴾ ولا ضير في تقدّم هذا النوع من البيان على المبين ولا في جمعية البيان وإفراد المبين .

قوله تعالى : ﴿أَمُ اتَخَذَ مَمَا يَخَلَقُ بِنَاتَ وَأَصْفَاكُمُ بِالْبِنِينَ ﴾ أي أخلصكم للبنين فلكم بنون وليس له إلا البنات وأنتم ترون أن البنت أخس من الابن فتثبتون له أخس الصنفين وتخصون أنفسكم بأشرفهما ، وهذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزراء وإهانة ظاهرة وكفران .

وتقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة - على ربوبيتهم والوهيتهم ـ مخلوقين لله ، والالتفات في الآية إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتثبيت التوبيخ ، والتنكير والتعريف في ﴿بنات﴾ و ﴿البنين﴾ للتحقير والتفخيم .

قوله تعالى : ﴿وإذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلًا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ المثل هـو المثل والشبـه المجانس للشيء وضـرب الشيء مثلًا أخـذه مجانسـاً للشيء «وما ضرب للرحمان مثلًا، الأنثى ، والكظيم المملوء كرباً وغيظاً .

والمعنى : وحالهم أنه إذا بشر أحدهم بالأنثى الذي جعلها شبهاً مجانساً للرحمان صار وجهه مسوداً من الغم وهو مملوء كرباً وغيظاً لعدم رضاهم بذلك وعده عاراً لهم لكنهم يرضونه له .

والالتفات في الآية إلى الغيبة لحكاية شنيع سيسرتهم وقبيح طسريقتهم للغير حتى يتعجب منه .

قوله تعالى : ﴿أَو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ أي أو جعلوا لله سبحانه من ينشؤ في الحلية أي يتربى في الزينة وهو في المخاصمة والمحاجة غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه .

وإنما ذكر هذين النعتين لأن المرأة بالطبع أقوى عاطفة وشنقة وأضعف تعقلاً بالقياس إلى الرجل وهو بالعكس ومن أوضح مظاهر قوة عواطفها تعلقها الشديد بالحلية والزينة وضعفها في تقرير الحجة المبني على قوة التعقل .

قوله تعالى : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً ﴾ الخ ، هذا معنى قولهم : إن الملائكة بنات الله وقد كان يقول به طوائف من عرب الجاهلية وأما غيرهم من الوثنية فربما عدوا في آلهتهم إلهة هي أم إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع

الملائكة إناثاً كما هو ظاهر المحكى في الآية الكريمة .

وإنما وصف الملائكة بقوله: ﴿الذين هم عباد الرحمان﴾ رداً لقولهم بأنوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد، ولا يلزم منه اتصافهم بالذكورة بالمعنى الذي يتصف به الحيوان فإن الذكورة والأنوثة اللتين في الحيوان من لوازم وجوده المادي المجهز للتناسل وتوليد المثل، والملائكة في معزل من ذلك.

وقوله: ﴿أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ رد لدعواهم الأنوثة في الملائكة بأن الطريق إلى العلم بذلك الحس وهم لم يروهم حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك .

فقوله: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ الخ ، استفهام إنكاري ووعيد على قولهم بغير علم أي لم يشهدوا خلقهم وستكتب في صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم ويسألون عنه يوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون وحجة عقلية داحضة محكية عنهم يمكن أن تقرر تارة لإثبات صحة عبادة الشركاء بأن يقال: لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضرورة لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكنا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك وعدم مشيئته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء والملائكة منهم، وهذا المعنى هو المنساق إلى الذهن من قوله في سورة الأنعام: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء (١)، على ما يعطيه السياق ما قبله وما بعده.

وتقرّر تارة لإبطال النبوة القائلة أن الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرّم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحلّ ولا نحرّم شيئاً لم نعبد الشركاء ولم تضع من عندنا حكماً لاستحالة تخلّف مراده تعالى عن إرادته لكنّا نعبدهم ونحلّ ونحرّم أشياء فلم يشإ الله سبحانه منا شيئاً ، فقول إن الله يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا وبالجملة إنه شاء كذا باطل .

وهذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنـا من دونـه من شيء نحن ولا آبـاؤنا ولا حـرَّمنا من دونـه من

[﴿]١) الأنعام : ١٤٨ .

شيء ١٠٠٠ ، بالنظر إلى السياق .

وقولهم في محكي الآية المبحوث عنها: ﴿ لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ على ما يفيده سياق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأول وهو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام وأخص منها.

وقوله: ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي هو منهم قول مبني على الجهل فإنه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وأخذ الأولى مكان الثانية ، فمقتضى الحجة أن لا إرادة تكوينية منه تعالى متعلقة بعدم عبادتهم الملائكة وانتفاء تعلق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإرادة التشريعية به .

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحدوه ولا يعبدوا الشركاء ، والإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتبارية غير حقيقية ، وإنما تستعمل في الشرائع والقوانين والتكاليف المولوية ، والحقيقة التي تبتني عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة .

وبما تقدم يظهر فساد ما قيل : إن حجتهم مبنية على مقدمتين : الأولى أن عبادتهم للملائكة بمشيّته تعالى ، والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى وقد أصابوا في الأولى وأخطأوا في الثانية حيث جهلوا أن المشيَّة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كاثناً ما كان من غير اعتبار الرضا والسخط في شيء من الطرفين .

وجه الفساد: أن مضمون الحجة عدم تعلق المشيئة على ترك العبادة وعدم تعلق المشيئة بالترك لا يستلزم تعلق المشيئة بالفعل بل لازمه الإذن الذي هو عدم المنع من الفعل. ثم إن ظاهر كلامه قصر الإرادة في التكوينية وإهمال التشريعية التي عليها المدار في التكاليف المولوية وهو خطأ منه.

ويظهر أيضاً فساد ما نسب إلى بعضهم أن المراد بقولهم : ﴿ لُو شَاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلق مشيئة الله بها مع الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلق مشيئة الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحة .

⁽١) النحل: ٣٥.

وذلك أنهم لم يكونـوا مسلّمين لقبح عبـادة آلهتهم حتى يعتذروا عنهـا وقد حكي عنهم ذيلًا قولهم : ﴿إِنَا وَجِدُنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةً وَإِنَا عَلَى آثَارِهُم مُهتدُونَ﴾ .

وقوله : ﴿إِن هُمَ إِلَا يَخْرُصُونَ﴾ الخرص ـعلى ما ينظهر من الراغب ـ القول على الظن والتخمين ، وفسر أيضاً بالكذب ـ

قوله تعالى: ﴿ أَم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾ ضمير ﴿ من قبله ﴾ للقرآن ، وفي الآية نفي أن يكون لهم حجة من طريق النقل كما أن في الآية السابقة نفي حجتهم من طريق العقل ، ومحصّل الآيتين أن لا حجة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ وَلِم قَالُوا إِنَا وَجَدُنَا آبَاءُنَا عَلَى أُمَةً وَإِنَا عَلَى آثَارِهُم مَهْتُدُونَ ﴾ الأمة الطريقة التي تؤم وتقصد ، والمراد بها الدين ، والإضراب عما تحصّل من الآيتين ، والمعنى : لا دليل لهم على حقية عبادتهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين وإنا على آثارهم مهتدون أي إنهم متشبئون بتقليد آبائهم فحسب .

قوله تعالى : ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا النخ ، أي إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الأمم المشركين وما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبي إلا تشبّت متنعّموها بذيل التقليد وقالوا : إنا وجدنا أسلافنا على دين وإنا على آثارهم مقتدون لن نتركها ولن نخالفهم .

ونسبة القول إلى مترفيهم للإشارة إلى أن الإتراف والتنعم هـو الذي يـدعوهم إلى التقليد ويصرفهم عن النظر في الحق ـ

قوله تعالى : ﴿قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ الخ ، القائل هو النذير ، والخطاب للمترفين ويشمل غيرهم بالتبعية ، والعطف في ﴿أولو جئتكم ﴾ على محذوف يدل عليه كلامهم ، والتقدير إنكم على آثارهم مقتدون ولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ والمحصّل : هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه ؟ وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلاً لا هدى فيه من باب مجاراة الخصم .

وقوله : ﴿قَالُوا إِنَا بِمَا أُرْسَلْتُم بِهُ كَافَرُونَ ﴾ جواب منهم لقول النذير : ﴿أُولُو

جئتكم﴾ الخ وهو تحكم من غير دليل .

قوله تعالى : ﴿فَانتَقَمَنَا مِنْهُمَ فَانْظُرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ﴾ أي تفرَّع على ذلك الإرسال والرد بالتقليد والتحكم أنا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة أولئك السابقين من أهل القرى ، وفيه تهديد لقوم النبي مَشْنَاتُ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَابِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرْآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِين (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلِّ مَتَّعْتَ هُؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولً مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هُـذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُـلِ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَـظِيم (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيـوٰةِ الـدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَـوْقَ بَعْض دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكُفُرُ بِالرَّحْمِنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلِّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ ٱلْحَيـوٰةِ الدُّنْيَـا وَٱلْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن نُقَيِّضْ لَـهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَـٰذُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَـا قَالَ يَـا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَـكَ بُعْـٰدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَمَنْ

كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينِ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَ اسْتَمْسِكُ أُو نُرِيَنَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَ آسْتَمْسِكُ بِٱلَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَـذِكْرُ لَـكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْتَلُونَ (٤٤) وَسُئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

(بیان)

لما انجر الكلام إلى ردَّهم رسالة الرسول وكفرهم بها تحكماً وتشبّهم في الشرك بذيل تقليد الآباء والأسلاف من غير دليل عقب ذلك بالإشارة إلى قصة إبراهيم عَلِيْكَةً ورفضه تقليد أبيه وقومه وتبرّيه عما يعبدونه من دون الله سبحانه واستهدائه هدى ربه الذي فطره .

ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه وكفرانهم بها بالكفر بكتاب الله وطعنهم فيه وفي رسوله بما هو مردود عليهم . ثم يذكر تبعة الإعراض عن ذكر الله وما تنتهي إليه من الشقاء والخسران ، ويعطف عليه إيآس النبي والمنتهم من إيمانهم وتهديدهم بالعذاب ويؤكد الأمر للنبي والمنتهم أن يستمسك بالقرآن وأنه لذكر له ولقومه وسوف يسألون عنه ، وأن الذي فيه من دين التوحيد هو الذي كان عليه الأنبياء السابقون عليه .

قوله تعالى : ﴿وإذ قال إسراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون البراء مصدر من برىء يبرأ فهو بسريء فمعنى ﴿إنني براء﴾ : إنني ذو بسراء أو بويء على سبيل المبالغة مثل زيد عدل .

وفي الآية إشارة إلى تبرّي إبراهيم عشق مما كان يعبده أبوه وقومه من الأصنام والكواكب بعد ما حاجهم فيها فاستندوا فيها إلى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والأنبياء والشعراء وغيرها .

والمعنى : واذكر لهم إذ تبرًّا إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إذ كانـوا يعبدونهـا تقليداً لأباثهم من غير حجة وقام بالنظر وحده .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرِنِي فَإِنَّهُ سَيَهِدِينَ ﴾ أي إلا الذي أوجدني وهنو الله

سبحانه ، وفي توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجة على ربوبيته وألوهيته فإن الفطر والإيجاد لا ينفك عن تدبير أمر الموجود المفطور فالـذي فطر الكـل هو الـذي يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد .

وقوله: ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أي إلى الحق الذي أطلبه ، وقيل: أي إلى طريق الجنة ، وفي هذه الجملة إشارة إلى خاصة أخرى ربوبية وهي الهداية إلى السبيل الحق الذي يجب أن يسلكه الإنسان فإن السوق إلى الكمال من تمام التدبير فعلى الرب المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله وسعادته ، قال تعالى : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ (٢) ، فالرجوع إلى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ (٢) .

والاستثناء في قوله: ﴿إلا الذي فيطرني﴾ منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون الله كما مرَّ مسراراً ، فقول بعضهم: إنه متصل ، وأنهم كانوا يقولون : الله ربنا مع عبادتهم الأوثان ، كما ترى .

قوله تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في ﴿جعلها﴾ لله سبحانه ، والضمير البارز ـ على ما قيل ـ لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عَلِيْتُ ومعناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد «لا إله إلا الله» نفي الألهة غير الله لا نفي الألهة وإثبات الإله تعالى(٤) وهو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلم به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إسراهيم عَلِيْتُنْ.

والمراد بعقبه ذرّيته وولده ، وقوله : ﴿لعلهم يرجعون ﴾ أي يرجعون من عبادة آلهة غير الله إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله و إلى عبادته تعالى ، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوّهم عن الموحد ما داموا ، ولعل هذا عن استجابة دعائه على يقول : ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ (٥٠) .

⁽١)طه: ٥٠.

⁽٢) النحل: ٩.

⁽٣) العنكبوت : ٦٩ .

 ⁽٤) وذلك أن والله، فيها مرفوع على البدلية لا منصوب على الاستثناء .

وقيل: الضمير في «جعل» لإبراهيم والنجاء لهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا إليها ، والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى: ﴿وصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيِّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون (١).

وأنت خبير بأن الوصية بكلمة التوحيد لا تسمى جعلًا للكلمة باقيـة في العقب وإن صحَّ أن يقال : أراد بها ذلك لكنه غير جعلها باقية فيهم !

وقيل : المراد أن الله جعل الإمامة كلمة بـاقية في عقبـه وسيجيء الكلام فيـه في البحث الروائي الأتي إن شاء الله .

ويـظهـر من الآيــة أن ذريــة إبــراهيم ﷺ لا تخلو من هــذه الكلمـــة إلى يــوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ بل متَّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ إضراب عما يفهم من الآية السابقة ، والمعنى : أن رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغاية المرجوّة منهم لكنهم لم يرجعوا بل متَّعت هؤلاء من قومك وآباءهم فتمتعوا بنعمي ﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ .

ولعل الالتفات إلى التكلم وحده في قوله : ﴿ بل متعت﴾ لـ لإشارة إلى تفخيم جرمهم وأنهم لا يقصدون في كفرانهم للنعمة وكفرهم بالحق ورميـ بالسحـ إلا إياه تعالى وحده .

والمراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن ، وبالرسول المبين محمد سنزيه .

قوله تعالى : ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم وهو القرآن ويستلزم الطعن في الرسول . كما أن قـولهم الآتي : ﴿لُولَا نَزُّل﴾ الخ ، كذلك .

قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نوَّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ المراد بالقريتين مكة والطائف، ومرادهم بالعظمة _ على ما يفيده السياق _ ما هو من حيث المال والجاه اللذين هما ملاك الشرافة وعلوّ المنزلة عند أبناء الدنيا، والمراد

⁽١) البقرة : ١٣٢ .

بقوله : ﴿رَجَلَ مِن القريتين عَظيم﴾ رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازاً .

ومرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلهية لا ينبغي أن يتلبّس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه ، والنبي والنبي والنبي والنبي المالة المالة الخصلة ، فلوكان القرآن الذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلولا نزّل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة .

وفي المجمع: ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة من مكة وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف. عن قتادة، وقيل: عتبة بن أبي ربيعة من مكة وابن عبد ياليل من الطائف. عن مجاهد، وقيل: الوليد بن المغيرة من مكة وحبيب بن عمر الثقفي من الطائف. عن ابن عباس. انتهى.

والحق أن ذلك من تطبيق المفسرين وإنما قالوا ما قالوا على الإبهام وأرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ الخ ، المراد بالرحمة ـ على ما يعطيه السياق ـ النبوة .

وقال الراغب: العيش الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخص من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي البارىء تعالى وفي الملك، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش به . انتهى . وقال : التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً _ إلى أن قال : والسخري هو الذي يُقهر فيتسخر بإرادته . انتهى .

والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم: ﴿ لُولا نزَّل هذا القرآن على رجل ﴾ الخ ، ومحصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون. هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها ويرتزقون وهي رحمة منا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلا متاعاً زائلًا نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيئتهم فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا ويمنعونها ممن شاءوا.

فقوله: ﴿ أَهُم يَقْسَمُونَ رَحْمَةً رَبِكُ ﴾ الاستفهام لـلإنكار، والالتفات إلى الغيبة في قـوله: ﴿ رَحْمَةً رَبِكُ ﴾ ولم يقـل: رحمتنا، للدلالـة على اختصـاص النبي سِنْدُ اللهِ

بعناية الربوبية في النبوة .

والمعنى : أنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة لله خاصة به حتى يمنعوك منها ويعطوها لمن هووا .

وقوله: ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدّر قدره وهو النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة به .

والدليل على أن الأرزاق والمعايش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعدّ من الرزق ، وكلّ بريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه ، ولا يكاد يتيسَّر لأحد منهم جميع ما يتمناه ويرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلافهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيَّة من الله دون الإنسان .

على أن الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب اللذي هو السرزق ووراءهما أسباب كونية لا تحصى خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل المطلوب إلا بحصولها جميعاً واجتماعها عليه وليست إلا بيد الله الذي إليه تنتهى الأسباب .

هذا كله في المال وأما الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفطنة والدهاء والشجاعة وعلو الهمة وإحكام العزيمة وكثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتم إلا بصنع من الله سبحانه ، وذلك قوله : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ .

فيتبين بمجموع القولين أعني قوله: ﴿ وَنَحَنَ قَسَمَنا ﴾ النح ، وقوله: ﴿ وَرَفَعَنَا لَا بَعْضُهُمْ فُوقَ بَعْضُ ﴾ النح ، أن القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير ، وقوله: ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أي النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم .

ومن الممكن أن يكون قوله : ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض﴾ عطف تفسير

على قوله: ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ النح ، يبين قسم المعيشة بينهم ببيان علل انقسامها في المجتمع الإنساني ، بيان ذلك أن كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفرادي أحبوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدرار أولاً وعلى طريق التعاون والتعاضد ثانياً كما مرَّ في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

فآل الأمر إلى المعاوضة العامة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كل مما عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته ويأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج إليه فيعطي مثلاً ما يفضل من حاجته من الماء الذي عنده وقد حصّله واحتص به ويأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء ، ولازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له ويحسنه من السعي فيقتني مما يحتاج إليه ما يختص به ، ولازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخر له فيفيده ما يحتاج إليه كالخبّاز يحتاج إلى ما عند السقّاء من المال وبالعكس فيتعاونان بالمعاوضة وكالمخدوم يحتاج إلى ما عند السقّاء من المال وبالعكس فيتعاونان بالمعاوضة وكالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته والخادم يتسخر للمخدوم لماله وهكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده والأخرون متسخرون له بلا واسطة أو بواسطة أو سواسطة أو بواسطة منائدة الهمم والقصود به .

وعلى ما تقدم فالمراد بالمعيشة كل ما يعاش به أعم من المال والجاه أو خصوص المال وغيره تبع له كما يؤيده قوله ذيالاً: ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ فإن المراد به المال وغيره من لوازم الحياة مقصود بالتبع .

قوله تعالى : ﴿ولولا أن يكون الناس أُمة واحدة﴾ إلى قـوله ﴿ومعـارج عليها يظهرون﴾ الآيـة وما يتلوهـا لبيان أن متـاع الدنيـا من مال وزينـة لا قدر لهـا عند الله سبحانه ولا منزلة .

قالوا: المراد بكون النباس أمة واحدة كونهم مجتمعين على سنَّة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أن زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن صفر الكف منها مطلقاً ، والمعارج الدرجات والمصاعد .

والمعنى : ولولا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعُم الكافرين وحرمان

المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ودرجات عليها يظهـرون لغيرهم .

ويمكن أن يكون المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم جميعاً على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر، فمن سعى سعيه للرزق ووافقته الأسباب والعوامل الموصلة الأخرى نال منه مؤمناً كان أو كافراً، ومن لم يجتمع له حرم ذلك وقتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً.

والمعنى : لولا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصلة إلى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر ، الخ .

قوله تعالى : ﴿ ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤن وزخرفاً ﴾ تنكير ﴿ أبواباً ﴾ و ﴿ سرراً ﴾ للتفخيم ، والزخرف الذهب أو مطلق الزينة ، قال في المجمع : الزخرف كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب ، ويقال : زخرف زخرفة إذا حسنه وزينه ، ومنه قيل للنقوش والتصاوير : زخرف ، وفي الحديث إنه مَشْمَاتُ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنحي . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلَكُ لَمَا مَنَاعَ الْحَيَاةَ الْدَنِيَا وَالْآخَرَةَ عَنْدَ رَبِكُ للمتقين﴾ ﴿إِنَ﴾ للنفي و ﴿لَمَا﴾ بمعنى إلا أي ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشة إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي لا تدوم .

وقوله : ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ المراد بالأخرة بقرينة المقام الحياة الآخرة السعيدة كأن الحياة الآخرة الشقية لا تعدُّ حياة .

والمعنى: أن الحياة الأخرة السعيدة بحكم من الله تعالى وقضاء منه مختصة بالمتقين، وهذا التخصيص والقصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمة واحمدة في الدنيا بعض التأييد.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ يَعْشُ عَنْ ذَكُرُ الرَّحَمَنُ نَقَيِّضَ لَهُ شَيْطَاناً فَهُو لَهُ قَرِينَ﴾ يقال : عشى يعشى عشاً من باب علم يعلم إذا كان ببصره آفة لا يبصر مطلقاً أو بالليل فقط ، وعشا يعشو عشواً وعشواً من باب نصر ينصر إذا تعامى وتعشى بلا آفة ، والتقييض التقدير والإتيان بشيء إلى شيء ، يقال : قيَّضه له إذا جاء به إليه .

لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين وأن الآخرة لهم عنـد الله قرنـه بعاقبـة أمر

المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً إلى أمرهم من أولـه وهو أن تعـاميهم عن ذكر الله يـورثهم ملازمـة قرنـاء الشياطين فيـلازمونهم مضلّين لهم حتى يردوا عذاب الأخرة معهم .

فقوله: ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض لـه شيطانـاً ﴾ أي من تعامى عن ذكر الرحمن ونظر إليه نظر الأعشى جئنا إليه بشيطان، وقد عبَّر تعالى عنه في موضع أخر بالإرسال فقال: ﴿ أَلُم تَرَ أَنَّا أُرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزَّهم أزَّا ﴾ (١) ، وإضافة الذكر إلى الرحمن للإشارة إلى أنه رحمة .

وقوله : ﴿فهو له قرين﴾ أي مصاحب لا يفارقه .

قوله تعالى : ﴿وَإِنهُم لِيصَدُّونَهُم عَنَ السَّبِيلُ وَيَحْسَبُونَ أَنَهُم مَهْتُدُونَ ﴾ ضمير ﴿إِنهُم ﴾ للشياطين ، وضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر ، واعتبار الجمع نظراً إلى المعنى في ﴿ومن يعشُ ﴾ الخ ، والصدّ الصرف ، والمراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد .

والمعنى: وإن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر ويحسب العاشون أنهم أي العاشين أنفسهم مهتدون إلى الحق .

وهذا أعني حسبانهم أنهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحق إمارة تقييض القرين ودخولهم تحت ولاية الشيطان فإن الإنسان بطبعه الأولي مفطور على الميل إلى الحق ومعرفته إذا عرض عليه ثم إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعاً للهوى ودام عليه طبع الله على قلبه وأعمى بصره وقيض له القرين فلم ير الحق الذي تراءى له وطبق الدي يميل إليه بالفطرة على الباطل الذي يدعوه إليه الشيطان فيحسب أنه مهتد وهو ضالً ويخيل إليه أنه على الحق وهو على الباطل.

وهذا هو الغطاء الذي يذكر تعالى أنه مضروب عليهم في الدنيا وأنه سينكشف عنهم يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ إلى أن قسال ﴿هل ننبًتكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ (٢) ، وقال فيما يخاطبه يوم القيامة ومعه قرينه : ﴿لقد

⁽۱) مريم : ۸۳ .

⁽٢) الكهف : ١٠٤ .

قوله تعالى : ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴿حتى ﴾ غاية الاستمرار الفعل الذي يدل عليه قوله في الآية السابقة : ﴿يحسبون ﴾ أي لا يزال القرناء يصدونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم .

والمراد بالمجيء إليه تعالى البعث ، وضمير ﴿جاء﴾ و ﴿قال﴾ راجع إلى الموصول باعتبار لفظه ، والمراد بالمشرقين المشرق والمغرب غلب فيه جانب المشرق .

والمعنى: وإنهم يستمرون على صدّهم عن السبيل ويستمر العاشون عن الذكر على حسبان أنهم مهتدون في انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا ومعه قرينه وكشف له عن ضلاله وما يستتبعه من العذاب الأليم ، قال مخاطباً لقرينه متأذياً من صحابته : يا ليت بيني وبينك بعد المشرق والمغرب فبئس القرين أنت .

ويستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابة القرناء وراء عـذابهم بالنـار ، ولذا يتمنون التباعد عنهم ويخصونه بالذكر وينسون سائر العذاب .

قوله تعالى : ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ النظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم ، والمراد باليوم يوم القيامة ، وقوله : ﴿أنكم في العذاب مشتركون﴾ فاعل ﴿لن ينفعكم﴾ والمراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر وقرناؤهم ، و ﴿إذ ظلمتم﴾ واقع موقع التعليل .

والمراد _ والله أعلم _ أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربما تسليتم بعض التسلي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسلياً وتشفياً لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فإن اشتراكهم معكم في العذاب وكونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم .

وذكر بعض المفسرين أن فاعل ولن ينفعكم وضميسر راجع إلى تمنيهم

⁽۱)ق: ۲۷ .

سورة الزخرف_ آية ٣٨_٤٢٠٠٠ الزخرف ـ آية ٣٨_٤٢ ١٠٥

المذكور في الآية السابقة ، وقوله : ﴿إذ ظلمتم ﴾ أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ، وقوله : ﴿أنكم في العذاب مشتركون ﴾ تعليل لنفي النفع والمعنى : ولن ينفعكم تمني التباعد عنكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب .

وفيه أن فيه تدافعاً فإنه أخذ قوله: ﴿إِذْ ظَلَمْتُم ﴾ تعليلاً لنفي نفع التمني أولاً وقوله: ﴿أَنكُم فِي العذاب مشتركون ﴾ تعليلاً له ثانياً ولازِم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانياً القضاء على المتمنين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين والمتبوعين فيه.

وقال بعضهم : معنى الآية أنه لا يخفف الاشتراك عنكم شيئًا من العذاب لأن لكل واحد منكم ومن قرنائكم الحظ الأوفر من العذاب .

وفيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع وإن فرض صحيحاً في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية ولا سياق الكلام .

وقال بعضهم: المعنى: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمَّل أعبائها وتقسَّمهم لعنائها لأن لكل منكم ومن قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته.

وفيه ما في سابقه من الكلام ، وردّ أيضاً بأن الانتفاع بـذلك الـوجه ليس ممـا يخطر ببالهم حتى يردّ عليهم بنفيه .

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنْت تسمع الصمَّ أَو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾ لما ذكر تقييضه القرناء لهم وتقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى ولا يقدرون على معرفة الحق فرع عليه أن نبه مَشْنَا الله الله الله عمي لا يقدر هو على إسماعهم كلمة الحق وهدايتهم إلى سبيل الرشد فلا يتجشم ولا يتكلف في دعوتهم ولا يحزن لإعراضهم ، والاستفهام للإنكار ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَا نَذُهِبُنَّ بِكَ فَإِنَا مِنْهُمَ مَنْتَقَمُونَ أَو نُرِينُكُ اللّذِي وَعَدَنَاهُمْ فَإِنَا عَلَيْهُمْ مَنْتَقَمُونَ أَو نُرِينُكُ اللّذِي وَعَدَنَاهُمْ فَإِنَا عَلَيْهُمْ مَقْتَدَرُونَ ﴾ المراد بالإذهاب به توفّيه وَيُنْ فَيْهِ مَنْقَمُونَ ﴾ أي لا محالة ، والمراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه وَيُنْ أَوْ حال كونه بينهم ، وقوله : ﴿ فَإِنّا مِنْهُمْ أَوْ حَالَ كُونَهُ بِينَهُمْ ، وقوله : ﴿ فَإِنّا مِنْهُمْ وَوْلُهُ : ﴿ فَإِنّا مِنْهُمْ أَوْ حَالَ كُونَهُ بِينَهُمْ ، وقولُهُ : ﴿ فَإِنّا مِنْهُمْ مَنْهُمْ وَقُولُهُ : ﴿ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ قَبِلُ تُوفِيهُ مِنْدُونِهُ أَوْ حَالَ كُونَهُ بِينَهُمْ ، وقولُهُ : ﴿ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ وَقُولُهُ اللّهُ وَاللّهُ مُنْهُمْ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْ مُنْهُمْ مُنْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْهُمْ مُنْ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُ مُنْهُمُ مُنْ مُنْهُمُ مُنْ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُنْهُمُ مُم

عليهم مقتدرون﴾ أي اقتدارنا يفوق عليهم .

وقوله في الصدر : ﴿ فَإِمَا نَذَهَبَنُّ بِكَ ﴾ أصله إن نذهب بِك زيدت عليه ما والنون للتأكيد ، ومحصل الآية إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محالة .

قوله تعالى: ﴿فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنك على صراط مستقيم ﴾ الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي والنبوة من سننه تعالى وأن كتابه النازل عليه حق وهو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون ولا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين ، ولا مطمع في إيمانهم وسينتقم الله منهم .

فأكَّد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجدَّ في التمسك بـالكتاب الـذي أُوحي إليه لأنه على صراط مستقيم .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْهُ لَذَكُرُ لَـكُ وَلَقُومُكُ وَسُوفُ تُسَأَلُونَ ﴾ النظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله ، وبهذا المعنى تكرر مراراً في السورة ، واللام في ﴿لَكُ وَلَقُومُكُ ﴾ للاختصاص بمعنى توجّه ما فيه من التكاليف إليهم ، ويؤيده بعض التأييد قوله : ﴿وسوف تسألون ﴾ أي عنه يوم القيامة .

وعن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر بــه ، والمعنى : وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب تذكرون به بين الأمم .

قوله تعالى : ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون وعلماء دينهم كقوله الهة يعبدون قيل : المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى : ﴿فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾(١) ، وفائدة هذا المجاز أن المسؤول عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم .

وقيل : المراد السؤال من أهـُـل الكتابين : التـوراة والإنجيل فـإنهم وإن كفروا لكن الحجة تقوم بتواتر خبرهم ، والخطاب للنبي سَنْسُهُ والتكليف لأمته .

وبُعد الوجهين غير خفي ويزيد الثاني بعداً التخصيص بأهـل الكتابين من غيـر مخصص ظاهر .

⁽١) يونس : ٩٤ .

وقيل: الآية مما خوطب به النبي سَنْتُ ليلة المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء عليهم السلام وقد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاءوا بدين وراء دين التوحيد.

وقد وردت به غير واحدة من السروايات عن أئمة أهل البيت منظرة وسيسوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

(بحث روائي)

في المجمع في قول عمالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ وقيل : الكلمة الباقية في عقبه ﴾ وقيل : الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين . عن أبي عبد الله مُؤْثِثُهُ .

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر وقد طبّقت الآية في بعضها على الإمامة في عقب الحسين مالنك .

والتأمل في الروايات يعطي أن بناءها على إرجاع الضمير في ﴿جعلها﴾ إلى الهداية المفهومة من قوله: ﴿سيهدين﴾ وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿إني جاعلك للناس إماماً أن الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بإرشادهم وإيرادهم درجات القرب من الله سبحانه وإنزال كل ذي عمل منزله الذي يستدعيه عمله ، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب إليه بالتبع أو بالعرض .

وفعلية الهداية النازلة من الله إلى الناس تشمله أولاً ثم تفيض عنه إلى غيره فله أتم الهداية ولغيره ما هي دونها وما ذكره إبراهيم مالله في قوله : ﴿ فإنه سيهدين ﴾ هداية مطلقة تقبل الانطباق على أتم مراتب الهداية التي هي حظ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه جعل الإمامة كذلك .

وفي الاحتجاج عن العسكري عن أبيه عليهم السلام قال: إن رسول الله من أمية المخزومي: لو أراد والله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن أمية المخزومي: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجل من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالاً فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولاً ، على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف.

ثم ذكر ﷺ في كلام طويل جواب رسول الله ﷺ عن قوله بما في معنى الأيات .

ثم قال : وذلك قوله تعالى : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال الله : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ يا محمد ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ فأحوجنا بعضنا إلى بعض أحوج هذا إلى مال ذلك وأحوج ذلك إلى سلعة هذا وإلى خدمته .

فترى أجل الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً إلى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه ، وإما خدمة يصلح لها لا يتهيأ لذلك الملك أن يستغني إلا به وإما باب من العلوم والحكم هو فقير إلى أن يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج إلى مال ذلك الملك الغني ، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته .

ثم ليس للملك أن يقول: هلا اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير ولا للفقير أن يقول: هلا اجتمع إلى رأيي ومعرفتي وعلمي وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني، ثم قال تعالى: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا﴾.

ثم قال : يا محمد ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا .

وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيّب قال: سألت علي بن الحسين سَنَكَ عن قول الله عز وجل: ﴿ولولا أن يكون الناس أُمة واحدة﴾ قبال: عنى بذلك أُمة محمد أن يكونوا على دين واحد كفاراً كلهم ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمان﴾ إلى آخر الآية.

وفي تفسير القمي بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبي عبد الله طلا قال : وفإما نذهبن بك با محمد من مكة إلى المدينة فإنا رادوك إليها ومنتقمون منهم بعلى بن أبي طالب الله .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الـرزاق وعبد بن حميـد وابن جريـر وابن المنذر والحاكم وصححه عن قتادة في قوله : ﴿ فَإِمَا نَذَهُ بِنَ كَا اللَّهُ عَلَا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَا اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّا عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّهُ عَلَا عَلَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلّ

قال أنس ذهب رسول الله سَلَمْ وبقيت النقمة ولم ير الله نبيه في أمنه شيئاً يكرهـ حتى قبض ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمنه إلا نبيكم رأى ما يصيب أمنه بعده فما رؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبض .

أقبول : وروى فيه هـذا المعنى عنه وعن علي بن أبي طـالب وعن غيـرهمـا بطرق أخرى .

وفيه أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي مسلفة في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَا نَـذُهُبُنُ بِكُ فَإِنَا مَنْهُمُ مَنْ مَنْ النّاكِثُينُ وَالقَاسُطِينُ بَعْدِي . منتقمون ﴾ نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي .

أقول: ظاهر الرواية وما قبلها وما في معناهما أن الوعيد في الآيتين للمنحرفين عن الحق من أهل القبلة دون كفار قريش.

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عشف في حديث طويل يقول فيه: وأما قوله تعالى: ﴿ وَاسَالُ مِنْ أَرْسِلُنَا مِنْ قَبِلُكُ مِن رَسِلْنا ﴾ فهذا من براهين نبينا مُسْلَقُ التي الله إياها وأوجب به الحجة على سائر خلقه لأنه لما ختم به الأنبياء وجعله الله رسولاً إلى جميع الأمم وسائر الملل خصه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه. الحديث.

أقول: وروى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده عن أبي الربيع عن أبي جعفر على الله عن أبي جعفر على الله المنشور بطرق عن سالم الله عن الله المنشور بطرق عن سعيد بن جبير وابن جريح وابن زيد .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآیَاتِنَا إِلَیٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ آلْعٰالَمِینَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآیَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا یَضْحَکُونَ (٤٧) وَمَا نُرِیهِمْ مِنْ آیَةٍ إِلَّا هِیَ أَكْبَرُ مِنْ أَخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِآلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا یَا أَیُّهَ السَّاحِرُ آدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا یَا أَیُّهَ السَّاحِرُ آدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا

لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَلَمْذِهِ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَلهٰ ذِهِ آلَانْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ لهٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينُ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٦) فَلَوْلاَ أَلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبِ الَّذِي هُو مَهِينُ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ (٥٦) فَلَوْلاَ أَلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبِ الَّذِي هُو مَهِينُ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ (٥٦) فَلَوْلاَ أَلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبِ أَوْ جَاءَ مَعَهُ آلْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٦) فَلَوْلاَ أَلْقِي عَلَيْهِ أَسُورَةً مِنْ ذَهَبِ أَوْ جَاءَ مَعَهُ آلْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٦) فَلَمَّا آسَفُونَا آنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْنَاهُمْ مَنْكَاهُمْ مَنْكَا لِلاَخِرِينَ (٥٦) .

(بیان)

لما ذكر طغيانهم بعد تمتيعهم بنعمه ورميهم الحق الذي جاءهم به رسول مبين بأنه سحر وأنهم قالوا: ﴿لُولا نَزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿ فَرجّحوا الرجل على النبي سَنِيْنَ بكثرة ماله مثّل لهم بقصة موسى عَنْنَ وفرعون وقومه حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهرة فضحكوا منها واستهزءوا بها ، واحتج فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر وأنهار تجري من تحته فاستخفّهم فأطاعوه فآل أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم .

قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنــا إلى فرعــون وملأه فقــال إني رسول رب العالمين﴾ اللام في ﴿لقد﴾ للقسم ، والباء في قوله : ﴿بآياتنــا﴾ للمصاحبــة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ المراد بمجيئهم بالآيلت إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة ، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافاً بالآيات .

قوله تعالى : ﴿وَمَا نَرِيهُمْ مِن آيَةً إِلَّا هِي أَكْبَرُ مِن أَخْتَهَا﴾ النّج ، الأخت المثل ، وقوله : ﴿هِي أَكْبَرُ مِن أَخْتَهَا﴾ كناية عن كون كل واحدة منها بالغة في الـدلالة على حقية الرسالة ، وجملة ﴿وما نريهم من آية﴾ النّج ، حال من ضمير

ومنها، ، والمعنى : فلما أتاهم بالمعجزات إذا هم منها يضحكون والحال أن كـلاً منها تامة كاملة في إعجازها ودلالتها من غير نقص ولا قصور .

وقوله: ﴿وَأَخَذَنَاهُم بِالعَذَابِ لَعَلَهُم يُوجِعُونَ ﴾ أي رجاء أن يرجعُوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته، والمراد بالعذاب الذي أخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كما في سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الساحر ادعُ لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ما في ﴿بما عهد عندك مصدرية أي بعهده عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم.

وقولهم: يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكباراً منهم كما قالـوا: ادع ربك ولم يقولوا: ادع ربنا أو ادع الله استكباراً، والمـراد أنهم طلبوا منـه الدعـاء لكشف العذاب عنهم ووعدوه الاهتداء.

وقيل : معنى الساحر في عرفهم العالم وكان الساحر عندهم عظيماً يعظمونه ولم يكن صفة ذم . وليس بذاك بـل كانـوا ساخـرين على استكبارهم كمـا يشهد بـه قولهم : ادع لنا ربك .

قوله تعالى : ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ النكث نقض العهد وخلف الوعد ، ووعدهم هو قولهم : ﴿إننا لمهتدون﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَنَادَى فَرَعُونَ فِي قَوْمُهُ قَالَ يَا قَاوُمُ أُلِيسَ لِي مَلَكُ مَصَرُ وَهُـذُهُ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفْلًا تَبْصُرُونَ ﴾ أي ناداهم وهو بينهم ، وفصل «قال» لكونه في موضع جواب السؤال كأنه قيل : فماذا قال ؟ فقيل : قال كذا .

وقوله: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتى ﴾ أي من تحت قصري أو من بستاني الذي فيه قصري المرتفع العالمي البناء، والجملة أعني قوله: ﴿وهذه الأنهار ﴾ الخ ، حالية أو ﴿وهذه الأنهار ﴾ معطوف على ﴿ملك مصر ﴾ ، وقوله: ﴿تحري من تحتى ﴾ حال من الأنهار ، والأنهار أنهار النيل .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ في معنى تكرير الاستفهام السابق في قوله : ﴿ أَلْيُسَ

لي ملك مصر، الخ .

قوله تعالى: ﴿أَمَّ أَنَا خَيْرَ مِنْ هَذَا اللَّذِي هُو مَهِينَ وَلَا يَكَادُ يَبِينَ﴾ المهين الحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة ، ويريد بالمهين موسى عَلَيْكُ لما به من الفقر ورثاثة الحال .

وقوله : ﴿ولا يكاد يبين﴾ أي يفصح عن مراده ولعله كان يصف موسى على الله باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكن الله رفع عنه ذلك لقول : ﴿قَالَ قَـدَ أُوتِيتُ سُؤَلُكُ يَا مُوسَى﴾ (١) بعد قوله على الرسالة في ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ (٢) .

وقوله في صدر الآية: ﴿أَم أَنَا خير﴾ النّج ، أم فيه إما منقطعة لتقرير كلامه السابق والمعنى: بل أنا خير من موسى لأنه كذا وكذا ، وإما متصلة ، وأحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام ، والتقدير: أهذا أنا خير أم أنا خير الخ ، وفي المجمع قال سيبويه والخليل: عطف أنا بأم على ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن معنى ﴿أنا خير﴾ معنى أم تبصرون فكأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى . أي إن وضع ﴿أم أنا خير﴾ موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس .

وكيف كان فالإشارة إلى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير وتـوصيفه بقوله : ﴿الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ للتحقير وللدلالة على عدم خيريته .

قوله تعالى: ﴿ فلولا أَلقيَ عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ الأسورة جمع سوار بالكسر، وقال الراغب: هو معرب دستواره قالوا: كان من دأبهم أنهم إذا سودوا رجلاً بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فالمعنى لوكان رسولا وساد الناس بذلك لالقى إليه أسورة من ذهب.

وقوله: ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي ، والمراد إنيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته ، وهذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ (١) .

⁽١)طه: ٣٦.

⁽٣) الفرقان : ٧ .

قوله تعالى : ﴿فاستخف قومه فـأطاعـوه إنهم كانـوا قومـاً فاسقين﴾ أي استخف عقول قومه وأحلامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ الإيساف الإغضاب أي فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة .

قوله تعالى: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلًا لللآخرين﴾ السلف المتقدم والظاهر أن المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدمهم عليهم في دخول النار، والمثل الكلام السائر الذي يتمثّل به ويعتبر به، والظاهر أن كونهم مثلًا لهم كونهم مما يعتبر به الأخرون لو اعتبروا واتعظوا.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ولا يكاد يبين﴾ قال : لم يبين الكلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى أحمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي عبد الله مالئين في قول الله عزّ وجل ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ قال: إن الله لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك.

وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، وقد قال أيضاً من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها ، وقال أيضاً : ﴿إن الذين يبايعونك إنما أيضاً : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك ، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك .

ولو كان يصل إلى المكون يبيد يوماً لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير لقائل أن يقول: إن المكون يبيد يوماً لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المكون من المكون من المكون ولا القادر من المقدر ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علواً كبيراً.

هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيــه فافهم ذلك إن شاء الله .

أقول: وروى مثله في الكافي بإسناده عن محمد بن إسماعيـل بن بزيـع عن عمه حمزة بن بزيع عنه م^{اننخ}ه.

وَلَمّا ضُرِبَ آبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٥) وَقَالُوا وَلَهَ تَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٥) وَلَوْ هُوَ اللّه عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ إِنَّ هُوَ إِلّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي آلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٢٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَآتَبِعُونِ هَنذَا صِرَاطُ مُسْتَقِيمً (٢١) وَلاَ يَصُدِّنَكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُو مُبِينَ (٢٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى يَصُدِّنَكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُو مُبِينَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ يَصَى اللّهَ مَا اللّهَ وَأَطِيعُونِ (٣٢) إِنَّ اللّهَ هُو رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَاذَا فِي طَرَاطُ مُسْتَقِيمً (١٤) وَلَا اللّهَ مُورَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَاذَا فِي صَرَاطُ مُسْتَقِيمً (١٤) فَا خَتَلَفَ آلاَّحزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلُ لِلّذِينَ طَلَكُم وَا لِيمِ (١٤) فَا لَلْذِينَ طَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (١٥) .

(بیان)

إشارة إلى قصة عيسى بعد الفراغ عن قصة موسى عليهما السلام وقدم عليها مجادلتهم النبي سَلَاتُهِ في عيسى سَلَاتُهُ وأُجيب عنها .

قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدُّون ﴾ إلى قوله ﴿ خصمون ﴾ الآية إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم ، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظراً إلى كون السورة مكية ومع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ هو ما أنزله الله من

وصفه في أول سورة مريم فإنها السورة المكية الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى ابن مريم علين تفصيلاً ، والسورة تقص قصص عدة من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله : ﴿أُولئك اللّين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ (١) ، وقد وقع في هذه الآيات قوله : ﴿إِنْ هُو إِلاَ عَبْدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهُ وَهُو مِن السّواهِدُ عَلَى كُونَ قُولُه : ﴿وَلَمَا ضَرِبُ ابن مريم مثلاً ﴾ إشارة إلى ما في سورة مريم .

والمراد بقوله: ﴿إذا قومك منه يصلُّون﴾ بكسر الصاد أي يضجون ويضحكون ذم لقريش في مقابلتهم المثل الحق بالتهكم والسخرية، وقرىء ﴿يصدُّون﴾ بضم الصاد أي يعرضون وهو أنسب للجملة التالية.

وقوله: ﴿وقولواء آلهتنا خير أم هو﴾ الاستفهام للانكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن وأخذوه بما له من الصفة عند النصارى أنه إله ابن إله فردُّوا على النبي النبي المنا خير منه وهذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك إلى أن اللذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به وما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه

وقوله: ﴿ مَا ضَرِبُوهُ لَكَ إِلاَ جَدَلاً ﴾ أي ما وجُهوا هذا الكلام: ﴿ -آلهتنا خير أم هو ﴾ إليك إلا جدلاً يريدون به إبطال المثل المذكور وإن كان حقاً ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ أي ثابتون على خصومتهم مصرُّون عليها .

وقوله: ﴿إِنْ هُو إِلاَ عَبِدُ أَنْعَمَنَا عَلَيْهِ ﴾ رد لما يستفاد من قولهم: ﴿وَ-آلهتنا خيرِ أَمْ هُو ﴾ أنه إله النصاري كما سيجيء .

وقال الزمخشري في الكشاف وكثير من المفسرين ونسب إلى ابن عباس وغيره في تفسير الآية : إن النبي المنتقل لما قرأ قوله تعالى : ﴿إِنكُم وما تعبدون من دونَ الله حصب جهنم كه على قريش امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً فقال ابن الزبعري : يا محمد ، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال منتقل المحمد ، ولالهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال منتقل المحمد ، ولا لهتنا أم لجميع الأمم أولجميع الأمم .

فقال : خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مــريم نبي وتثني عليه

⁽۱) مریم : ۸۵ .

خيراً وعلى أمه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فيراً وعلى أمه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فيان كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن والهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي عَشْنَا في فأنزل الله : ﴿إِن اللّذِين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ونزلت هذه الآية .

والمعنى: ولما ضرب ابن الـزبعري عيسى ابن مـريم مثلاً وجادل رسول الله مسلما المسلمة النصارى إياه إذا قومك يعني قريشاً من هذا المثل يضجُّون فرحاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول المنتائية ، وقالوا : «آلهتنا خير أم هو أي إن عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا هين . ما ضربوا هذا المثل لك إلا جدلاً وغلبة في القول لا لميز الحق من الباطل .

وفيه أنه تقدم في تفسير (١) قوله : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (٢) ، أن هذه الرواية بما فيها من وجوه الوهن والخلل ضعيفة لا يعبأ بها حتى نقبل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يبوجد في شيء من كتب الحديث لا مسنداً ولا غير مسند . وقصة ابن الزبعري هذه وإن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشة لكن لم يذكر فيها نزول قوله : ﴿ولما ضرب ابن مريم ﴾ الآية هناك .

على أن ظاهر قوله : ﴿ضُوبِ ابن مريم مثلًا﴾ وقوله : ﴿ءَالهتنا خيـر أم هو﴾ لا يلائم ما فسّرته تلك الملاءمة .

وقيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(٣) ، قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم يعبدون آدمياً ونحن نعبد الملائكة ـ يريدون أرباب الأصنام ـ فآلهتنا خير من إلههم فالمذي ضرب المثل بابن مريم هـو الله سبحانه ، وقولهم: ﴿ وَآلهتنا خير أم هـو لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما في الوجه السابق .

وفيه أن قوله تعالى : ﴿إِنْ مثل عيسى عند الله كمثـل آدم﴾ مدنيـة . وهـذه الآيات أعني قوله : ﴿ولما ضرب ابن مريم﴾ الخ ، آيات مكية من سورة مكية .

⁽١) في البحث الروائي المعقود بعد الآية .

 ⁽۲) الأنبياء : ۹۸ .
 (۳) آل عمران : ۹۵ .

على أن الأساس في قولهم على هذا السوجه تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا قوله : ﴿إِنْ هُو إِلاَ عَبْدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهُ ﴾ النح ، بما تقدمه .

وقيل: إنهم لما سمعوا قوله: ﴿إنْ مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ ضجّوا وقالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده كما يعبد النصارى المسيح، والهتنا خير منه أي من محمد.

وفيه ما في سابقه .

وقيل: مرادهم بقولهم: ﴿ آلهتنا خير أم هو ﴾ التنصل والتخلص عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة بنات الله، ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا: ما كان ذلك منا بدعاً فإن النصارى يعبدون المسيح وينسبونه إلى الله وهو بشر ونحن نعبد الملائكة وننسبهم إلى الله وهم أفضل من البشر.

وفيه أنه لا يفي بتوجيه قوله : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلًا إذا قومك منه يصدُّون﴾ على أن قوله : ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين .

وقيل: معنى قولهم: ﴿ وَالهتنا خير أم هـو﴾ أن مثلنا في عبادة الألهة مشل النصارى في عبادة المسيح فأيهما خير ؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ؟ فإن قال: عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله، وإن قال: عبادة الآلهة فكذلك، وإن قال: ليس في عبادة المسيح خير فقد قصر به عن منزلته وجوابه أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته.

وفيه أنه في نفسه لا بأس به لكن الشأن في دلالة قول تعالى : ﴿ - آلهتنا خير أم هو﴾ على هذا التفصيل .

وقال في المجمع في الوجوه التي أوردها في معنى الآية: ورابعها ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليهم السلام أنه قال: جئت إلى رسول الله والمراب يرمأ فوجدته في ملأ من قريش فنظر إليَّ ثم قال: يا علي ، إنما مثلك في هذه الأمة مثل عيسى ابن مريم أحبَّه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا ، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا ، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا ، واقتصد فيه قوم فنجوا . فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء

والرسل ، فنزلت الآية .

أقول: والرواية غير متعرضة لتوجيه قولهم: ﴿ اللهتنا خير أم هو﴾ ولئن كانت القصة سبباً للنزول فمعنى الجملة: لئن نتبع آلهتنا ونطيع كبراءنا خير من أن نتبولى علياً فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمداً فيحكم علينا ابن عمه.

ويمكن أن يكون قوله : ﴿وقالوا ءآلهتنا خير أم هو﴾ الخ ، استئنافاً والنازل في القصة هو قوله : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿إِن هُو إِلاَ عَبِدُ أَنْعَمَنَا عَلَيْهُ وَجَعَلْنَاهُ مَثْلًا لَبْنِي إِسْرَائِيـلَ﴾ الذي يستدعيه السياق أن يكون الضميـر لابن مريم ، والمـراد بكونـه مثلًا ـ على مـا قيل ـ كونه آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة .

والمعنى: ليس ابن مريم إلا عبداً متظاهراً بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوة وتأييده بروح القدس وإجمراء المعجزات الباهرة على يـديه وغيـر ذلك وجعلنـاه آية خـارقة نصف به الحق لبني إسرائيل .

وهذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم :﴿ الهتناخير أم هـ و﴾ الظاهـ ر في تفضيلهم الهتهم في ألوهيتها على المسيح سنتن في ألوهيته ومحصّله أن المسيح لم يكن إلها حتى ينظر في منزلته في ألوهيته وإنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم ، وأما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ الظاهر أن الآية متصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبّس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى سنن في فيخلق الطير ويحيي الموتى ويكلم الناس في المهد إلى غير ذلك ، فيكون كالملائكة المتوسطين في الإحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع التدبير ويكون مع ذلك عبداً غير معبود ومألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنية مختص بالملائكة وهو ملاك الوهيتهم ومعبوديتهم وبالجملة هم يحيلون تلبّس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة .

فاجيب بأن لله أن يـزكي الإنسان ويـطهره من أدنـاس المعاصي بحيث يصيـر بـاطنه بـاطن الملائكـة فظاهـره ظاهـر البشر وبـاطنه بـاطن الملك يعيش في الأرض

يخلف مثله ويخلفه مثله ويظهر منه ما يظهر من الملائكة(١) .

وعلى هذا فمن في قوله ﴿منكم﴾ للتبعيض ، وقوله : ﴿يخلفون﴾ أي يخلف بعضهم بعضاً .

وفي المجمع أن ﴿من﴾ في قوله : ﴿منكم﴾ تفيد معنى البدلية كما في قوله :

فليت لنامن ماء زمزم شربة مبردة باتت على الطهيان(٢)

وقوله : ﴿ يَخْلَفُونَ ﴾ أي يخلفون بني آدم ويكونون خلفاء لهم ، والمعنى : ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها ويعبدون الله .

وفيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنهُ لَعَلَمُ لَلْسَاعَةُ فَلَا تَمْتُرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَـذَا صَرَاطُ مَسْتَقِيمٍ ﴾ ضمير ﴿إِنه ﴾ لعيسى عَلَىٰ وَالْمُراد بالعلم ما يعلم به ، والمعنى : وإن عيسى يعلم به الساعة في خلقه من غير أب وإحيائه الموتى فيعلم به أن الساعة ممكنة فلا تشكُّوا في الساعة ولا ترتابوا فيها البتة .

وقيل : المراد بكونه علماً للساعة كون من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعة .

وقيل : الضمير للقرآن وكونه علماً للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء .

وفي الوجهين جميعاً خفاء التفريع الذي في قوله : ﴿فلا تمترنُّ بها﴾ .

وقـولـه: ﴿واتّبعـون هـذا صـراط مستقيم﴾ قيـل: هـو من كـلامـه تعـالى ، والمعنى : اتّبعوا هداي أو شـرعي أو رسولي ، وقيـل: من كلام الـرسول بـأمر منـه تعالِي .

 ⁽١) وليس هذا من الانقلاب المحال في شيء بل نوع من التكامل الوجودي بالخروج من حد منه أدنى
 إلى حد منه أعلى كما بين في محله .

 ⁽٢) الطهيان قلة الجبل ، ومعنى البيت : ليت لنا بـدلاً من ماء زمـزم شربـة من الماء مبـردة بقيت ليلة
 على قلة الجبل .

قوله تعالى : ﴿ولا يصدنَّكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ الصد الصوف ، والباقى ظاهر .

قوله تعالى: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ الخ ، المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات ، وبالحكمة المعارف الإلهية من العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة .

وقوله: ﴿ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ أي في حكمه من الحوادث والأفعال ، والذي يختلفون فيه وإن كان أعمّ من الاعتقادات التي يختلف في كونها حقة أو باطلة والحوادث والأفعال التي يختلف في مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله: ﴿قد جَتْنَكُم بالحكمة ﴾ أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم .

وقيل : المراد بقوله : ﴿بعض الذي تختلفون فيه﴾ كل الذي تختلفون فيه . وهو كما ترى .

وقيل : المراد لأبين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام .

وقوله : ﴿ فَاتَقُوا الله وأطيعون ﴾ نسب التقوى إلى الله والـطاعـة إلى نفسـه ليسجل أنه لا يدعى إلا الرسالة .

قوله تعالى : ﴿إِنْ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنه هـو ربـه وربهم جميعاً وإتمـام للحجـة على من يقــول بالوهيته .

قوله تعالى : ﴿فَاخْتَلْفُ الأَحْرَابِ مِن بِينَهُمْ فُويِلُ لَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن عَلَّابِ يُومُ أليم ﴾ ضمير ﴿من بينهم ﴾ لمن بعث إليهم عيسى عَشَيْنَهُ والمعنى : فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه ، ومن مؤمن به غال فيه ، ومن مقتصد لزم الاعتدال .

وقوله : ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ تهديـد ووعيد للقـالي منهم والغالي . سورة الزخرف.. آية ٦٦ ـ ٧٨ ١٢١

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) الْأَخِلاء يَوْمَثِذِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ عَدُو إِلاَّ ٱلْمُتَقِينَ (٢٥) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٢٩) ادْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُون (٧٠) يُطَافُ مُسْلِمِينَ (٢٩) ادْخُلُوا ٱلْجَنَّة أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُون (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكُوابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ آلْأَنْفُسُ وَتَلَدُّ الْأَغْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةً كَثِيرَةً مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٣٧) إِنَّ لَنُمُ جُورِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٤٤) لاَ يُقَتِّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ أَلْكُمْ مَاكِثُونَ (٧٤) لاَ يُقَتِّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مَلْكُلُونَ (٧٥) وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٢٧) وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِثْنَاكُمْ بِٱلْحَقِّ مَالِكُ لِيقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِثْنَاكُمْ بِٱلْحَقِ مَالِكُ لِيقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِثْنَاكُمْ بِٱلْحَقِ كَارِهُونَ (٧٧) لَقَدْ جِثْنَاكُمْ بِٱلْحَقِ كَارِهُونَ (٧٧) لَقَدْ جِثْنَاكُمْ بِٱلْحَقِ كَارِهُونَ (٧٧) .

(بیان)

رجوع إلى إنذار القوم وفيه تخويفهم بالساعة والإشارة إلى ما يؤول إليه حال المتقين والمجرمين فيها من الثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ هِل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ النظر الانتظار ، والبغتة الفجأة ، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بامور الدنيا كما قال تعالى : ﴿ مَا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ (١) ، فلا يتكرر المعنى في قوله : ﴿ بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم وتكذيبهم لأيات الله إلا أن تأتيهم الساعة مباغتة لهم وهم غافلون عنها مشتغلون بامور دنياهم أي إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسل بشيء من أسباب النجاة وقعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن

⁽۱) پس : ٤٩ .

عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب .

قوله تعالى: ﴿الأخلاء يـومئذ بعضهم لبعض عـدو إلا المتقين﴾ الأخلاء جمع خليل وهو الصديق حيث يرفع خلة صديقه وحاجته ، والظاهر أن المراد المطلق الشامل للمخالة والتحاب في الله كما في مخالة المتقين أهل الآخرة والمخالة في غيره كما في مخالة أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل .

والوجه في عداوة الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخالة إعانة أحد الخليلين الأخر في مهام أموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكياً عن الظالمين يوم القيامة: ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني (١) ، وأما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد وتنفعهم يومئذٍ .

وفي الخبر النبوي: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلّت الأنساب وذهبت الأخوّة إلا الأخوة في الله وذلك قوله: ﴿الأخلاء يــومئـذ بعضهم لبعض عــدو إلا المتقين﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ يَا عَبَادُ لَا خُوفَ عَلَيْكُمُ الْيُومُ وَلَا أَنتُمْ تَحَزَّنُونَ ﴾ من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ النح ، وفي الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل ومورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا .

قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ الموصول بدل من المنادى المضاف في ﴿ يَا عَبَادَ ﴾ أو صفة له ، والآيات كل ما يبدل عليه تعالى من نبي وكتاب وأي آية أُخرى دالة ، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله وأمره .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها .

والحبور ـ على ما قيل ـ السرور الذي يظهر أثره وحُباره في الوجه والحبرة الـزينة

⁽١) الفرقان : ٢٩ .

⁽٢) رواه في الدر المنثور في الآية عن سعد بن معاذ .

وحسن الهيئة ، والمعنى : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات والحال أنكم تسرّون سروراً يظهر أثره في وجوهكم أو تزينون بأحسن زينة .

قوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ الخ الصحاف جمع صحفة وهي القصعة أو أصغر منها، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له، وفي ذكر الصحاف والأكواب إشارة إلى تنعمهم بالطعام والشراب.

وفي الالتفات إلى الغيبة في قوله: ﴿ يَسْطَافُ عَلَيْهُم ﴾ بين الخطابين ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ و ﴿ أنتم فيها خالدون ﴾ تفخيم لإكرامهم وإنعامهم أن ذلك بحيث ينبغي أن يذكر لغيرهم ليزيد به اغتباطهم ويظهر به صدق ما وُعدوا به .

وقوله: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق ومشموم ومسموع وملموس مما يتشارك فيه الإنسان وعامة الحيوان ، والمراد بما تلذه الأعين الجمال والزينة وذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجة والوجه الحسن واللباس الفاخر ، ولذا غير التعبير فعبر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهاء وفيما يتعلق بالأعين باللذة وفي هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا .

ويمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلذه الأعين فـإن الالتذاذ الـروحي يعد من رؤية القلب .

قال في المجمع : وقد جمع الله سبحانه في قوله : ﴿مَا تَشْتُهِيهُ الْأَنْفُسُ وَتُلَّذُ اللهِ مَا لُو المُجْمَع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان . انتهى .

وقوله : ﴿ وَأَنتُم فيها خالدون ﴾ إخبار ووعد وتبشير بالخلود ولهم في العلم به من اللذة الروحية ما لا يقاس بغيره ولا يقدر بقدر .

قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ قيل: المعنى أعطيتموها بأعمالكم ، وقيل أورثتموها من الكفار وكانوا داخليها لو آمنوا وعملوا صالحاً ، وقد تقدم الكسلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولئك هم الوارثون ﴾ (١)

⁽١) المؤمنون : ١٠ .

قوله تعالى : ﴿لَكُم فِيهَا فَاكَهَةَ كَثَيْرَةَ مَنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أضاف الفاكهة إلى ما مرت الإشارة إليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة ، و ﴿من﴾ في ﴿منها تأكلون﴾ للتبعيض ولا يخلو من إشارة إلى أنها لا تنفد بالأكل .

قوله تعالى : ﴿إِن المجرمين في عـذاب جهنم خالـدون لا يفتر عنهم وهم فيسه مبلسون﴾ المراد بالمجرمين المتلبّسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار ويؤيده إيراده في مقابلة المتقين وهو أخص من المؤمنين .

والتفتير التخفيف والتقليل ، والإبلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أو من الخروج من النار .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكُنْ كَانُوا هُمُ الظَّالَمِينَ ﴾ وذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة .

قوله تعالى : ﴿وَنَادُوا يَا مَالُكُ لَيْقَضَ عَلَيْنَا رَبِكُ قَالَ إِنْكُمُ مَاكِنُونَ﴾ مالـك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامة والخاصة .

وخطابهم مالكاً بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى : ﴿كُلَّا إِنْهُم عَنْ رَبُهُم يُومئذُ لَمُحَجُوبُونَ﴾(١) ، وقال : ﴿قَالَ اخْسُوا فَيُهَا وَلَا تَكُلُمُونَ﴾(٢) .

فالمعنى : أنهم يسألون مالكاً أن يسأل الله أن يقضي عليهم .

والمراد بالقضاء عليهم إماتتهم ، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا . بذلك عما هم فيه من الشقوة وأليم العذاب ، وهذا من ظهور ملكاتهم الدنيوية فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام وفوت لا انتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الذي ارتكز في نفوسهم وإلا فهم قد ماتوا وشاهدوا ما هي حقيقته .

وقوله : ﴿ قَالَ إِنَّكُمُ مَاكِشُونَ ﴾ أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقيَّة والعذاب الأليم ، والقائل هو مالك جواباً عن مسألتهم .

قوله تعالى : ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ ظاهره أنه من

⁽١) المطففين: ١٥.

٤(٢) المؤمنون : ١٠٨ .

تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكة وهو منهم ، وقيل : من كلامه تعالى ويبعّده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى .

والخطاب لأهل النار بما أنهم بشر ، فالمعنى : لقد جئناكم معشر البشر بـالحق ولكن أكثركم وهم المجرمون كارهون للحق .

وقيل : المراد بالحق مطلق الحق أي حق كـان فهم يكرهـونه وينفـرون منه وأمــا الحق المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه .

والمراد بكراهتهم للحق الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأول الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله ، قال تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾(١) ، وقال : ﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾(٢) .

ويظهر من الآية أن الملاك في السعادة والشقاء قبول الحق وردّه .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدُ فَأَنَا أَوَّلُ آلْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمْوَاتِ وَآلاَّرْضِ رَبِّ الْسَمْوَاتِ وَآلاَّرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ النَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي آلاَّرْضِ إِلَهُ وَهُو الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمْوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ وَمَا بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ وَمَا بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ وَمَا بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدُعُونَ مِنْ دُونِهِ السَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَقِيلِهِ يَا رَبُّ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٥) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ

⁽١) الروم : ٣٠ .

⁽٢) الشمس: ٨.

إِنَّ هٰؤُلاَءِ قَوْمُ لاَ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) .

(بیان)

رجوع إلى سابق الكلام وفيه تـوبيخهم على ما يـريدون من الكيـد برسـول الله مسلمات وتهـديدهم بـأن الله يكيدهم ، ونفي الـولد الـذي يقولـون به ، وإبـطال القول بمطلق الشريـك وإثبات الـربوبيـة المطلقـة لله وحـده ، وتختتم السـورة بـالتهـديـد والوعيد .

قوله تعالى : ﴿أَمَ أَبَرَمُوا أَمَراً فَإِنَا مِبْرِمُونَ﴾ الابرام خلاف النقض وهو الإحكام ، وأم منقطعة .

والمعنى : على ما يفيده سياق الآية التالية : بـل أحكموا أمـراً من الكيد بـك يا محمد فإنا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى : ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْداً فَالْـذَيْنَ كَفُرُوا هُمُ الْمُكَيْدُونَ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿أَم يحسبون أَنَا لَا نَسْمَع سَرَّهُم وَنَجُواهُمْ بِلَى وَرَسَلْنَا لَلْدَيْهُمُ يُكُونُ اللهِ وَلَنْجُونُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَّا عَلَى اللهُ عَلَى ال

وقوله : ﴿ بلى ورسلنا لـديهم يكتبون ﴾ أي بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم ورسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك .

قوله تعالى : ﴿قُلُ إِنْ كَانَ للرحمان ولد فأنا أول العابدين﴾ إبطال لألوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس ، والتعبير بإن الشرطية دون لو الدالة على الامتناع _ وكان مقتضى المقام أن يقال : لو كان للرحمن ولد ، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف .

والمعنى : قل لهم إن كان للرحمان ولد كما يقولون ، فأنا أول من يعبده أداء لحقّ بنوّته ومسانخته لوالده ، لكنى أعلم أنه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض ونحوه .

⁽١) الطور : ٤٢ .

وقد أوردوا للآية معانى أخرى :

منها : أن المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده ولا أعبد الـولد الذي تزعمون .

ومنها : أن ﴿إن﴾ نافية والمعنى : قل ما كان لله ولد فأنا أول العابدين الموحدين له من بينكم .

ومنها: أن ﴿العابدين﴾ من عبد بمعنى أنف والمعنى: قل لو كان للرحمان ولـ د فأنا أول من أنف واستنكف عن عبادته لأن الذي يلد لا يكون إلا جسماً والجسمية تنافي الألوهية.

ومنها: أن المعنى: كما أني لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد أي لـو جاز لكم أن تدعوا ذلك المحال جاز لي أن أدعي هذا المحال. إلى غير ذلك مما قيل لكن الظاهر من الآية ما قدمناه.

قوله تعالى : ﴿ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ تسبيح له سبحانه عما ينسبون إليه ، والظاهر أن ﴿ رب العرش عطف بيان لرب السماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذي استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره .

ولا يخلو من إشارة إلى حجة على الوحدانية إذ لما كان الخلق مختصاً به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شؤون عرش ملكه ، والتدبير من الخلق والايجاد فإنه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضاً من شؤون عرشه فربوبيته للعرش ربوبية لجميع السماوات والأرض .

- قوله تعالى : ﴿فَذَرَهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَى يَلَاقُوا يُومُهُمُ الذِي يُوعِدُونَ﴾ وعيد إجمالي لهم بأمر النبي سَنْدُكِ بالاعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذَّرهم منه من عـذاب يوم القيامة .

والمعنى: فاتركهم يخوضوا في أباطيلهم ويلعبوا في دنياهم ويشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه وهو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة: ﴿هُلُ ينظرون إلا الساعة﴾ الخ.

قوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم﴾ أي هو الذي هو في السماء إله مستحق للمعبودية وهو في الأرض إله أي هو المستحق لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده ، ويفيد تكرار ﴿إله كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلها في السماء والأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما .

وفي الآية مقابلة لما يثبته الوثنية لكل من السماء والأرض إلهاً أو آلهة ، وفي تذييل الآية بقوله : ﴿وهو الحكيم العليم﴾ الدال على الحصر إشارة إلى وحدانيته في الربوبية التي لازمها الحكمة والعلم .

قوله تعالى : ﴿وتبارك الله علله السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾ ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير .

وكل من الصفات الثلاث المذكورة حجة على توحّده في الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبر الأمر والتدبير للملك ، وأما اختصاص علم الساعة به فلأن الساعة هي المنزل الأقصى إليه يسير الكل ، وكيف يصحّ أن يربّ الأشياء من لا علم له بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدّعونه ، وأما رجوع الناس إليه فإن الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن إليه الرجوع فإليه الرجوع .

قوله تعالى : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون ، أي يعبدونهم من دونه ، كل معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم .

والمراد ﴿بالحق﴾ الحق الذي هو التوحيد ، والشهادة به الاعتراف به ، والمراد بقوله : ﴿وهم يعلمون﴾ حيث أطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفعوا لـه وحقيقة عمله كما قال : ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾(١) ، وإذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ .

والأية مصرّحة بوجود الشفاعة .

⁽١) النبأ : ٣٨ .

قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله فأنَى يؤفكون﴾ أي إلى متى يصرفون عن الحق الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك، وذلك أنهم معترفون أن لا خالق إلا الله والتدبير الذي هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مراراً فالرب المعبود هو الذي بيده الخلق وهو الله سبحانه.

قوله تعالى : ﴿فَاصِفْحَ عَنْهُم وَقُلُ سَلَامُ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أمر بالإعراض عنهم وإقناط من إيمانهم ، وقوله : ﴿قُلُ سَلَامِ ﴾ أي وادعهم موادعة ترك من غير هم لك فيهم ، وفي قوله : ﴿فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

(بحث روائی)

في الاحتجاج عن على عَنْفَهُ في حديث طويل يقول فيه: قوله: ﴿إِن كَانَ للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي الجاحدين ، والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره .

أقول: الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ينصرف إليه لفظ عابد عند الإطلاق.

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكر الديصاني: إن في القرآن آية هي قولنا. قلت: وما هي ؟ قال: هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله على فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل: ما اسمك بالكوفة ؟ فإنه يقول: فلان، فقل: ما اسمك بالكوفة ؟ فإنه يقول: فلان، فقل السماء إله، وفي السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كل مكان إله.

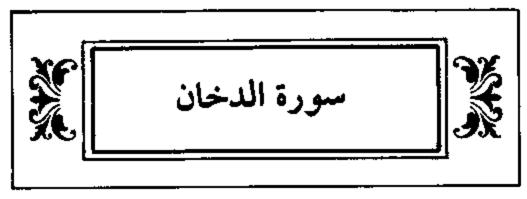
قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه

. الجزء الخامس والعشرون		۱۳۰
-------------------------	--	-----

الشفاعة ﴾ قال : هم الذين عبدوا في الدنيا لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال: سألت أبا جعفر الثاني ملفظة: ما معنى الواحد؟ فقال: إجماع الألسن عليه بالوحدانية لقوله: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله﴾ .



مكية ، وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ آللهِ آلْرَّحْمٰنِ آلرَّحِيمِ

خم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُلَوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْمِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوْلِينَ (٨).

(بیسان)

يتلخص غرض السورة في إندار المرتابين في الكتاب بعداب الدنيا وعداب الأخرة وقد سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله إلى الناس لإندارهم وقد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم .

غير أن الناس وهم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم وسيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون إلى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد .

ثم يذكر لهم تنظيراً لأول الوعيدين قصة إرسال موسى منتخه إلى قوم فرعون

لإنجاء بني إسرائيل وتكذيبهم له وإغراقهم نكالاً منه .

ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين وهمو الرجوع إلى الله في يـوم الفصـل فيقيم المحبجة على أنه آت لا محالة ثم يذكر طرفاً من أخباره وما سيجسري فيه على المجـرمين ويصيبهم من ألوان عذابه ، وما سيثاب به المتقون من حياة طيبة ومقام كريم .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قول تعالى : ﴿ حم والكتاب المبين﴾ الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن .

قوله تعالى: ﴿إِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لِيلَةً مِبَارِكَةً إِنَا كُنَا مَنْدُرِينَ ﴾ المراد بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةُ القدر ﴾ (١) ، وكونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينبسط على الخلق من الرحمة الواسعة ، وقد قال تعالى: ﴿وما أدراكُ ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ (٢) .

وظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض وظاهر قوله: ﴿فيها يفرق﴾ الدال على الاستمرار أنها تتكرّر وظاهر قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾(٣)، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية وتقع في كل سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان، وأما أنها أي ليلة هي ؟ فعلا إشعار في كلامه تعالى بذلك، وأما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

والمراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله: ﴿إِنَا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةُ مَبَارِكَةً عَلَى ما هو ظاهر قوله: ﴿إِنَا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾(٤) ، وقوله: ﴿شهر رمضان الذي أُنزَلُ فَيهُ القَرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾(٥) ، أن النازل هو القرآن كله .

ولا يدفع ذلك قوله: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا﴾(١) ، وقوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا﴾(٧) ، الظاهرين في نزوله تدريجاً ، ويؤيد ذلك آيات

⁽١) القدر: ١. (٤) الفرقان: ٣٢.

⁽٢) القدر : ٣ . (٥) البقرة : ١٨٥ .

⁽٣) البقرة : ١٨٥ . (٦) الإسراء : ١٠٦ .

أخر كقوله: ﴿فَإِذَا أَنزلت سورة محكمة ﴾(١) ، وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾(٢) ، وغير ذلك ويؤيد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمنة لأسباب النزول .

وذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مرة مجموعاً وجملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان ، ومرة تدريجاً ونجوماً في مدة ثـلاث وعشرين سنـة وهي مدة دعوته منطقة والمينانية و

لكن الذي لا ينبغي الارتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور والآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصية لا يقبل النزول دفعة فإن الآيات النازلة في وقائع شخصية وحوادث جزئية مرتبطة بأزمنة وأمكنة وأشخاص وأحوال خاصة لا تصدق إلا مع تحقق مواردها المتفرقة زماناً ومكاناً وغير ذلك بحيث لو أجتمعت زماناً ومكاناً وغير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن وهو على هيئته وحاله بعينها مرة جملة ، ومرة نجوماً .

فلو قبل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المرتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلاً مرة إجمالاً ومرة تفصيلاً ونعني بهذا الإجمال والتفصيل ما يشير إليه قبوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ (٤) ، وقد مر الكلام في معنى الإحكام والتفصيل في تفسير سورتي هود والزخرف .

وقيل: المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التدريجي في ليلة القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آيات القرآن ـ وهو سورة العلق أو سورة الحمد ـ نزل في ليلة القدر .

وهذا القول مبني على استشعار منافاة نزول الكتاب كله في ليلة ونزوله التدريجي الذي تدل عليه الآيات السابقة وقد عرفت أن لا منافاة بين الآيات .

على أنك خبير بأنه خلاف ظاهر الآيات .

وقيل : إنه نزل أولاً جملة على السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل من السماء

(۱) محمد : ۲۰ . (۳) هود : ۱ .

(٢) التوبة : ١٢٧ . (٤) الزخرف : ٤ .

الدنيا على الأرض تدريجاً في ثلاث وعشرين سنة مدة الدعوة النبوية .

وهذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسيــر الآيات الــظاهرة في نــزوله جملة وستمر بك في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقوله: ﴿إِنَا كُنَا مَنْدُرِينَ﴾ واقع موقع التعليل، وهو يـدل على استمرار الإنـذار منه تعالى قبل هذا الإنـذار، فيدل على أن نـزول القرآن من عنـده تعالى ليس ببـدع، فإنما هـو إنذار والإنـذار سنة جـارية لـه تعالى لم تـزل تجري في السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء والرسل وبعثهم لإنذار الناس.

قوله تعالى : ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ ضمير ﴿فيها﴾ لليلة والفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان ويقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميز بعض أجزائه من بعض ولا يتعين خصوصياته وأحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم﴾(١).

فللامور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان : مرحلة الإجمال والإبهام ومرحلة التفصيل، وليلة القدر _ على ما يدل عليه قوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ _ ليلة يخرج فيها الأمور من مرحلة الإحكام إلى مرحلة الفرق والتفصيل ، وقد نزل فيها القرآن وهو أمر من الأمور المحكمة فرق في ليلة القدر .

ولعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته وما يقارن منها نزول كل آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها وأطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلًا عليه دفعة وجملة قبل نزوله تدريجاً ومفرّقاً .

وماًل هذا الوجه اطلاع النبي مُشِنَاتُهِ على القرآن في مرحلة نزول إلى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض واستقراره في مرحلة العين ، وعلى هذا السوجه لا حاجة إلى تفريق المرتين بالإجمال والتفصيل كما تقدم في الوجه الأول .

وظاهر كلام بعضهم أن المراد بقوله: ﴿ فيها يَفْرَقَ كُلُ أَمْرَ حَكَيْمَ ﴾ تفصيل الأمور المبينة في القرآن من معارف وأحكام وغير ذلك. ويدفعه أن ظاهر قوله: ﴿ فيها يفرق ﴾ الاستمرار والذي يستمر في هذه الليلة بتكررها تفصيل الأمور الكونية

⁽١) الحجر: ٢١ .

بعد إحكامها وأما المعارف والأحكام الإلهية فلا استمرار في تفصيلها فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال : «فيها فرق» .

وقيل: المراد بكون الأمر حكيماً إحكامه بعد الفرق لا الإحكام الـذي قبل التفصيل، والمعنى: يقضي في الليلة كل أمر محكم لا يتغير بـزيادة أو نقصـان أو غير ذلك هذا، والأظهر ما قدمناه من المعنى.

قوله تعالى : ﴿أَمَراً مَن عَنَدُنَا إِنَا كُنَا مُرَسَلِينَ﴾ المراد بالأمر الشأن وهو حال من الأمر السابق والمعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمراً من عندنا ومبتدأ من لدنا ، ويمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي والمعنى : يفرق فيها كل أمر بأمر منا ، وهو على أي حال متعلق بقوله : ﴿يفرق﴾ .

ويمكن أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿أَنْزَلْنَاهِ﴾ أي حال كون الكتـاب أمراً أو بـأمر من عندنا ، وقوله : ﴿إِنَا كِنَا مُرْسَلِينَ﴾ لا يخلو من تأييـد لذلك ، ويكون تعليـلاً له والمعنى : إنا أنزلناه أمراً من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء والرسل .

قوله تعالى : ﴿ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾ أي إنـزاله رحمة من ربك أو الناس أو الاقتضاء رحمة ربك إنزاله فقوله : ﴿ رحمة ﴾ حال على المعنى الأول ومفعول له على الثاني والثالث .

وفي قوله : ﴿من ربك﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ووجهه إظهار العناية بالنبي مُشِرِّةٍ لأنه هو الذي أنزل عليه القرآن وهو المنذر المرسل إلى الناس .

وقوله: ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي السميع للمسائل والعليم بالحوائج فيسمع مسألتهم ويعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربك فينزل الكتاب ويرسل الرسول رحمة منه لهم .

قوله تعالى : ﴿ رَبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بِينَهُمَا إِنْ كُنتُم مُوقَنِينَ ﴾ لما كانت الوثنية يرون أن لكل صنف من الخلق إلها أو أكثر وربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله : ﴿ مِن ربك ﴾ بقوله : ﴿ رب السَّمَاوَاتِ ﴾ النح ، لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي مُسِنَّة ليست بالاختصاص كالتي بينهم بل هو تعالى ربه ورب السماوات والأرض وما بينهما ، ولذلك عقبه أيضاً في الآية التالية بقوله : ﴿ لا إِلَّهُ إِلَّا هُو ﴾ .

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُوقَنِينَ﴾ هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته فالمعنى هو الذي يعرفه الموقنون بنانه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شيء.

قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ لما كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبية وهي الملك والتدبير فيه تعالى والألوهية وهي المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمة التوحيد النافية لكل إله دونه تعالى .

وقوله : ﴿ يحيي ويميت ﴾ من أخص الصفات به تعالى وهما من شؤون التدبير ، وفي ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد .

وقوله: ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فيه كمال التصريح بأنه ربهم ورب آبائهم فليعبدوه ولا يتعللوا بـاتباع آبائهم في عبادة الأصنام، ولتكميـل التصـريـح سيقت الجملة بالخطاب فقيل: ﴿ ربكم ورب آبائكم ﴾ .

وهما أعني قوله : ﴿يحيي ويميت﴾ وقوله : ﴿ربكم﴾ خبران لمبتـدأ محذوف والتقدير هو يحيي ويميت الخ .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿إِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةً مَبَارِكَةً﴾ : والليلة المباركة هي ليلة القدر ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبه جعفر عليه عن قول الله تعالى : ﴿إِنَا أَنزَلْنَاهُ فِي لِيلَةُ مِبَارِكَةً ﴾ قال : نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله تعالى : ﴿فيها يفرق كمل أمر حكيم ﴾ قال : يقدر في ليلة القدر كمل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل : خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق فما قدر في تلك السنة وقضى فهو المحتوم ولله تعالى فيه المشية .

سورة الدخان ـ آية ٩ ـ ٣٣ ١٣٧

أقول : قوله : فهو المحتوم ولله فيه المشيّـة أي إنه محتـوم من جهة الأسبـاب والشرائط فلا شيء يمنع عن تحققه إلا أن يشاء الله ذلك .

وفي البصائر عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن سنان قال : سألته عن النصف من شعبان فقال : ما عندي فيه شيء ولكن إذا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قسم فيها الأرزاق وكتب فيها الأجال وخرج فيها صكاك الحاج واطلع الله إلى عباده فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر .

فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم ثم ينهي ذلك ويمضي ذلك . قلت : إلى من ؟ قال : إلى صاحبكم ولولا ذلك لم يعلم .

وفي الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ قال : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج : يحجّ فلان ويحجّ فلان .

أقول : والأخبار في ليلة القدر وما يقضى فيها وفي تعيينها كثيـرة جداً وسيـأتي عمدتها في تفسير سورة القدر إن شاء الله تعالى .

بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ (٩) فَآرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينِ (١٠) يَغْشَىٰ النَّاسَ هَلْذَا عَلْمَابُ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا آكْشِفْ عَنَا الْعَلْمَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَىٰ لَهُمُ الذَّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَولُّوا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونُ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا أَلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ آلْبَطْشَةَ آلْكُبْرِیٰ إِنَّا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائدُونَ (١٥) يَوْمَ فَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولُ مُبَيْنِ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعُونَ وَجَاءَهُمْ رَسُولُ كَرِيمٌ (١٦) أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينُ (١٦) وَأَنْ لَا كُولِيمٌ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عَلْدُ بِرَبِي

وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُـوْمِنُوا لِي فَآعْتَزِلُونِ (٢١) فَلَمَ وَبَّهُ أَنَّ هَوُلاَءِ فَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْسلاً إِنَّكُمْ مُتَّعُونَ (٣٢) وَآتُرُكِ آلْبُحْرَ رَهُواً إِنَّهُمْ جُنْدُ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مُنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثُنَاهَا قَومًا آخرِينَ (٢٨) وَنَعْمَةٍ كَانُوا عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَآلأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَيْنَا بَنِي عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَآلأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ آلْعَذَابِ آلْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ آلْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ آخَتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ آلْعَالَمِينَ (٣٢) وَلَقَدِ آخَتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ آلْعَالَمِينَ (٣٢) وَآقَدِ آخِتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ آلْعَالَمِينَ (٣١) وَآقَدِ آخِتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ آلْعَالَمِينَ (٣١) وَآقَدِ آخِتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ آلْعَالَمِينَ (٣١) وَلَقَدِ آخِتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ آلْوَيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءُ مُبِينً (٣٣) .

(بیان)

تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإنذار رحمة من الله ، ثم تهددهم بعذاب الدنيا وبطش يوم القيامة وتتمثل لهم بقصة إرسال موسى إلى قوم فرعون وتكذيبهم له وإغراقهم .

ولا تخلو القصة من إيماء إلى أنه تعالى سينجّي النبي ﷺ والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكة ثم إهلاك صناديد قـريش في تعقيبهم النبي والمؤمنين به .

قوله تعالى: ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ ضمير الجمع لقوم النبي المناسلة الإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول وصفة الكتاب الذي أنزل عليه بل هم في شك وارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم ، وذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله : ﴿إن كنتم موقنين﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَارَتُقَبِ يُومُ تَأْتِي السَمَاءُ بِدِخَانَ مَبِينَ يَغْشَى النَّاسِ﴾ الارتقاب الانتظار وهذا وعيد بالعذاب وهو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس .

واختلف في المراد بهذا العذاب المذكور في الأية .

فقيل: المراد به المجاعة التي ابتلي بها أهل مكة فإنهم لما أصروا على كفرهم وأذاهم للنبي بوانية والمؤمنين به دعا عليهم النبي بوانية فقال: اللهم سنين كسني يوسف فأجدبت الأرض وأصابت قريشاً مجاعة شديدة ، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وأكلوا الميتة والعظام ثم جاءوا إلى النبي بوانية وقالوا: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا ، ووعدوه إن كشف الله عنهم الجدب أن يؤمنوا ، فدعا وسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثم عادوا إلى كفرهم ونقضوا عهدهم .

وقيل: إن الدخان المذكور في الآية من أشراط الساعة وهو لم يأت بعد وهو يأتي قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الناس حتى أن رؤوسهم تكون كالرأس الحنيذ. ويصيب المؤمن منه مثل الزكمة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص (١) ويمكث ذلك أربعين يوماً.

وربما قيل : إن المراد بيوم الدخان يـوم فتح مكـة حين دخل جيش المسلمين مكة فارتفع الغبار كالدخان المظلم ، وربما قيل : المراد به يـوم القيامـة ، والقولان كما ترى .

وقوله : ﴿ يغشى الناس ﴾ أي يشملهم ويحيط بهم ، والمراد بالناس أهل مكة على القول الأول ، وعامة الناس على القول الثاني .

قوله تعالى : ﴿ هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين : هذا غذاب أليم ويسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته وإظهار الإيمان بالدعوة الحقة فيقولون : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ أَنِي لَهُمُ الذَّكرِي وقد جاءهم رسول مبين ﴾ أي من أين لهم أن يتذكروا ويذعنوا بالحق والحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الارتياب وهو محمد علم التي الآية ردّ صدقهم في وعدهم .

⁽١) الخصاص : الثقبة والفرجة .

قوله تعالى : ﴿ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون﴾ التولي الإعراض ، وضمير ﴿عنه ﴾ للرسول و ﴿معلّم مجنون ﴾ خبران لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول والمعنى : ثم أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلم مجنون فرموه أولاً بأنه معلم يعلّمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر﴾(١) ، وثانياً بأنه مجنون مختل العقل .

قوله تعالى : ﴿إِنَا كَاشَفُوا الْعَدَابِ قَلِيلًا إِنْكُمْ عَائِدُونَ ﴾ أي إنا كاشفون للعذاب زماناً انكم عائدون إلى ماكنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأول والآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان .

وأما على القول الثاني فالأقرب أن المعنى : إنكم عائدون إلى العذاب يـوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ الفتنة الامتحان والابتلاء للحصول على حقيقة الشيء ، وقوله : ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ المتحان ، والرسول الكريم موسى المنتف ، والكريم هو المتصف بالخصال الحميدة قال الراغب : الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله : ﴿إن ربي غني كريم ﴾ وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه ، قال : وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى : ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ ﴿وزروع ومقام كريم ﴾ ﴿إنه لقرآن كريم ﴾ ﴿وقل لهما قولاً كريم ﴾ أنتهى .

⁽١) النحل : ١٠٣ .

⁽٢) الغاشية : ٢٤ .

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُوا إِلَيْ عَبَادُ اللهُ إِنِي لَكُم رَسُولُ أَمِينَ ﴾ تفسير لمجيء الرسول فإن معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة وكان من رسالة موسى عَلَيْكَ إلى فرعون وقومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ولا يعذبوهم ، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل وعبر عنهم بذلك استرحاماً وتلويحاً إلى أنهم في استكبارهم وتعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله .

وفي قوله: ﴿إِنِّي لَكُم رَسُولُ أُمِينَ ﴾ حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن يخونهم في دعوى الرسالة وإنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملاحوله: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحَرَ عَلَيْم يُرِيدُ أَنْ يَخْرِجُكُم مِنْ أَرْضَكُم بِسَحَرِه ﴾(١).

وقيل : ﴿عباد الله﴾ نداء لفرعون وقومـه والتقديـر أن أدّوا إليَّ ما آمـركم به يــا عباد الله ، ولا يخلو من التقدير المخالف للظاهر .

قـولـه تعـالى : ﴿وأن لا تعلـوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين﴾ أي لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي والإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء وتجبر على من أرسله والـدليل على أن المراد ذلك تعليل النهي بقوله : ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ أي حجة بارزة من الآيات المعجزة أو حجة المعجزة وحجة البرهان .

وقيل : ومن حسن التعبيسر الجمع بين التأديمة والأمين وكذا بين العلو والسلطان .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْيَ عَلْتَ بِرِبِي وَرَبِكُم أَنْ تَرَجَمُونَ﴾ أي التجأت إليه تعالى من رجمكم إياي فلا تقدرون على ذلك ، والطاهر أنه إشارة إلى ما آمنه ربه قبل المجيء إلى القوم كما في قوله تعالى : ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى (٢).

وبما مر يظهر فساد ما قيل : إن هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه : ﴿فلا يصلون إليكما﴾ .

⁽١) الشعراء : ٢٥ .

⁽٢) طه : ٤٦ .

قوله تعالى : ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا علي ولا تتعرضوا لي بخير أو شر ، وقيل : المراد تنحوا عني وانقطعوا ، وهو بعيد .

قوله تعالى : ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون وقد ذكر من دعائه السبب الداعي له إلى الدعاء وهو إجرامهم إلى حد يستحقون معه الهلاك ويعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال : ﴿فأسر بعبادي﴾ الخ ، وهو الإهلاك .

قوله تعالى : ﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متّبعون ﴾ الإسراء : السير بالليل فيكون قوله : ﴿ ليلاً ﴾ تأكيداً له وتصريحاً به ، والمراد بعبادي بنو إسرائيل ، وقوله : ﴿ إنكم متّبعون ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده ، وهو استئناف يخبر عما سيقع عقيب الإسراء .

وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له : أســر بعبادي ليــلًا إنكم متّبعون يتبعكم فرعون وجنوده .

قوله تعالى : ﴿وَاتَرَكُ البَحْرُ رَهُواً إِنْهُمْ جَنْدُ مَغْرَقُـونَ﴾ قال في المفردات : واتبرك البحر رهبواً أي ساكناً ، وقيل : سعة من الطريق وهبو الصحيح . انتهى . وقوله : ﴿إِنْهُمْ جَنْدُ مَغْرَقُونَ﴾ تعليل لقوله : ﴿وَاتْرَكُ الْبَحْرُ رَهُواً﴾ .

وفي الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً والتقدير : أسر بعبادي ليلاً يتبعكم فرعون وجنوده حتى إذا بلغتم البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه واتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون .

قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك ﴿ وَكم للتكثير أي كثيراً ما تركوا ، وقوله : ﴿من جنات﴾ الغ . . بيان لما تركوا ، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية ، والنعمة بفتح النون التنعم وبناؤها بناء المرة كالضربة وبكسر النون قسم من التنعم وبناؤها بناء النوع كالجلسة وفسروا النعمة ههنا بما يتنعم به وهو أنسب للترك ، وفاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الأنس ولعل المراد به ههنا التمتع كما يتمتع بالفواكه وهي أنواع الثمار .

وقوله : ﴿كذلك﴾ قيل : معناه الأمر كذلك ، وقيل : المعنى نفعل فعلاً كـذلك

لمن نريد إهلاكه ، وقيل : الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق ، والمعنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها .

ويمكن أن يكون حالًا من مفعول ﴿تركوا﴾ المحدوف والمعنى : كثيراً مـا تركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وأورثناها قوماً آخرين﴾ الضمير لمفعول ﴿تركوا﴾ المحذوف المبيّن بقوله : ﴿من جنات﴾ الخ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فَمَا بِكُتَ عَلَيْهُمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مَنْظُرِينَ ﴾ بَكَاءُ السَّمَاءُ والأَرْضُ على شيء فائت كناية تخييلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون .

وقوله: ﴿وما كانـوا منظرين﴾ كنـاية عن سـرعة جـريان القضـاء الإلهي والقهـر الربوي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعـه حتى يتأخـر به .

قوله تعالى : ﴿ولقد نجيّنا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ وهو ما يصيبهم وهم في أسارة فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك .

قوله تعالى: ﴿من فرعون إنه كان عالماً من المسرفين﴾ ﴿من فرعون﴾ بدل من قوله: ﴿من العذاب﴾ إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون ، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة ، وقوله: ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾ أي متكبراً من أهل الإسراف والتعدّي عن الحد .

قوله تعالى : ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ أي اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيده السياق .

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الأمم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الأمم بكثرة الأنبياء المبعوثين منهم ويمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل في التيه وهم يتظللون بالغمام ويأكلون المن والسلوى إلى غير ذلك .

وعالموا أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقة فيإنهم لم يختاروا على الأمة الإسلامية التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله: ﴿كنتم خير أُمَة أُخرجت للنـاس﴾(١) ، وقوله: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾(٢) .

قوله تعالى: ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ البلاء الاختبار والامتحان أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد في غيرهم من الأمم وابتلوا بذلك ابتلاء مبيناً.

قيل : وفي قوله : ﴿فيه﴾ إشارة إلى أن هناك أموراً أخرى ككونه معجزة .

وفي تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعني قوله: ﴿ولقد نَجِينَا بَنِي إسرائيل﴾ إلى قوله ﴿ولقد نَجِينَا بَنِي إسرائيل﴾ إلى قوله ﴿وبلاء مبين﴾ نوع تسطيب لنفس النبي وَالله والمؤمنين به من فراعنة مكة ويختارهم ويمكنهم في الأرض فينظر كيف يعملون .

(بحث روائي)

عن جوامع الجامع في قوله تعالى : ﴿فارتقب يـوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ واختلف في الدخان فقيل : إنه دخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيـذ (٣) ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيـه خصاص يمـد ذلك أربعين يـوماً ، وروي ذلك عن علي وابن عباس والحسن .

أقول : ورواه في الدر المنشور عنهم وأيضاً عن حـذيفة بن اليمـان وأبي سعيـد الخدري عن النبي منظلة ، ورواه أيضاً عن ابن عمر موقوفاً .

وفي تفسير القمي في الآية قال : ذلك إذا خرجوا في الرجعة من القبـر يغشى الناس كلهم الظلمة فيقولون : هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

وفي المجمع وروى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه أنه قال: بكت السماء على يحيى بن زكريا والحسين بن علي عليهما السلام أربعين صباحاً.

⁽١) آل عمران : ١١٠ .

⁽٢) الحج : ٧٨ .

قلت : فما بكاؤها؟ قال : كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين . قيل لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه وحيث يصعد عمله . قال : وتدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا . قال : تحمر وتصير وردة كالدهان . إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً ، وإن الحسين بن على يوم قتل احمرت السماء .

وفي الفقيه عن الصادق مُشْخَهِ قال : إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض التي كان يعبد الله عز وجل فيها والباب الذي كان يصعد منه عمله وموضع سجوده .

أقول: وفي هذا المعنى ومعنى الـروايتين السابقتين روايــات أخر من طــرق الشيعة وأهل السنة .

ولو بني في معنى بكاء السماء والأرض على ما يـظهر من هـذه الروايـات لم يحتج إلى حمل بكائهما على الكناية التخييلية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وقالوا معلَّم مجنون﴾ قال : قـالوا ذلـك لما نزل الوحي على رسول الله مَشِينه فأخذه الغشي فقالوا : هو مجنون .

إِنَّ هَنُولَا عِلَيْ وَلُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرً أَمْ قَوْمُ تَبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكُنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمُواتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا يَالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ إِنَّهُمُ عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ أَجْمَعِينَ (٤١) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤١) يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤١) إِنَّ يَوْمَ الْفَصِلِ مِيقَاتُهُمْ أَبُونَ مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ أَجْمَعِينَ (٤١) إِنَّ يَوْمَ الْقُولِي عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ أَيْضَرُونَ (٤١) إِنَّا يَوْمَ الْقُولِي عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ أَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤١) إِنَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤١) إِنَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُو آلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤١) إِنَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُو آلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤١) إِنَّ

شَجَرَتَ الزَّقُومِ (٤٧) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَعَلْي الْحَمِيمِ (٤٦) خُلُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْبُحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ الْبَحَيِيمِ (٤٧) ثُمَّ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينِ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) يَلْبَسُونَ مِنْ اللهُ اللهُ وَاللهُ وَوَقَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٤٥) لَلهُ مُنْدُس وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٣٥) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٤٥) يَدُعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ يَدُعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ يَدُعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ لَمُؤْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ هُو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٥) فَإِنَّمَا يَسَرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكِّرُونَ (٨٥) فَارْتَقِبُونَ (٩٥) وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٢٥) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٥) فَإِنَّمَا يَسَرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكِّرُونَ (٨٥) فَارْتَقِبُونَ (٩٥) .

(بیان)

لما أنذر القوم بالعذاب الدنيوي ثم بالعذاب الأخروي وتمثل للعذاب الدنيوي بما جرى على قوم فرعون إذ جاءهم موسى عائله بالرسالة من ربه فكذبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم .

رجع إلى الكلام في العذاب الأخروي فذكر إنكار القوم للمعاد وقولهم أن ليس بعد الموتة الأولى حياة فاحتج على إثبات المعاد بالبرهان ثم أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب في الآخرة وبعض ما سيلقاه المتقون من النعيم المقيم وعند ذلك تختتم السورة بما بدأت به وهو نزول الكتاب للتذكر وأمره والمرة والمرة بالارتقاب .

قـوله تعـالى : ﴿إِن هؤلاء ليقـولـون إِن هي إلا موتنا الأولى وما نحن بمنشرين وجوع إلى أول الكلام من قوله : ﴿بل هم في شلك يلعبون والإشارة بهؤلاء إلى قريش ومن يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد ، وقولهم : ﴿إِن هي إلا موتنا الأولى ويريدون به نفي الحياة بعـد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده : ﴿وما نحن بمنشرين وأي بمبعـوثين ، قال في الكشاف يقال :

أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم . انتهى .

فقولهم : ﴿إِن هِي إِلا مُوتَمَنَّا الأُولَى﴾ الضمير فيه للعاقبة والنهاية أي ليست عاقبة أمرنا ونهاية وجودنا وحياتنا إلا موتتنا الأولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبداً .

ووجه تقييد الموتة في الآية بالأولى ، بأنه ليس بقيد احترازي إذ لا ملازمة بين الأول والآخر أو بين الأول والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أول ولا ثـاني له ولا في قبالة آخر ، كذا قيل .

وهناك وجه آخر ذكره الزمخشري في الكشاف فقال: فإن قلت: كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت فهلا قيل: إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين كما قيل: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، وما معنى قوله: ﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ ؟ وما معنى ذكر الأولى ؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى .

قلت: معناه ـ والله الموفق للصواب ـ أنهم قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة وذلك قوله عز وجل: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا فرق إذاً بين هذا وبين قوله: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا في المعنى انتهى .

ويمكن أن يوجّه بوجه ثالث وهو أن يقولوا : ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ بعد ما سمعوا قوله تعالى : ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ الآية ، وقد تقدم في تفسير الآية أن الإماتة الأولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا ، والإماتة الثانية هي التي بعد الحياة البرزخية فهم في قولهم : ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ ينفون الموتة الثانية الملازمة للحياة البرزخية التي هي حياة بعد الموت فإنهم يرون موت الإنسان انعداماً له وبطلاناً لذاته .

ويمكن أن يوجه بـوجه رابـع وهو أن يـرجع التقيـد بالأولى إلى الحكـاية دون المحكي وذلـك بأن يكـون الذي قـالوا إنمـا هـو ﴿إن هي إلا مـوتتنـا﴾ ويكون معنى الكلام أن هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت ويقولون : إن هي إلا موتتنا يريدون الموتة

الأولى من الموتتين اللتين ذكرنا في قولنا : ﴿قَالُوا رَبُّنَا أَمَّتُنَا اثْنَتِينَ﴾ الآية .

والـوجوه الأربـع مختلفة في القـرب من الفهم فأقـربهـا ثـالثهـا ثـم الـرابـع ثـم الأول .

قوله تعالى: ﴿ فَأَتُوا بِآبَائنا إِنْ كُتُتُم صَادَقِينَ ﴾ تتمة كلام القوم وخطاب منهم للنبي عَبِيْنَ فَهُ والمؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث والإحياء فاحتجوا لرد الإحياء بعد الموت بقولهم: ﴿ فَأَتُوا بِآبَائنا إِنْ كُنتُم صَادَقِينَ ﴾ أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأي وسيلة اتخذتموها حتى نعلم صدقكم في دعواكم أن الأموات سيحيون وأن الموت ليس بانعدام.

قوله تعالى : ﴿ أَهُم خَيْرَ أَمْ قُـومُ تَبِّعُ وَالْـذَيْنُ مِنْ قَبِلُهُمْ أَهْلَكُنَاهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا مجرمين﴾ تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبِّع والذين من قبلهم من الأمم .

وتبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن واسمه على ما ذكروا اسعد أبـوكرب وقيل : سعد أبـوكرب وسيـأتي في البحث الروائي نبـذة من قصته وفي الكـلام نوع تلويح إلى سلامة تبّع نفسه من الإهلاك .

قوله تعالى : ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون فلل ضمير التثنية في قوله : ﴿وما بينهما فللجنسي السماوات والأرض ولذا لم يجمع ، والباء في قوله ﴿بالحق فللملابسة أي ما خلقناهما إلا متلبستين بالحق ، وجوّز بعضهم كونها للسبية أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ، ولا يخفى بعده .

ومضمون الآيتين حجة برهانية على ثبوت المعاد وتقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء أخر ثم يعدمها ويحيي هذا ثم يميته ويحيي آخر وهكذا كان لاعباً في فعله عابشاً به واللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمي ينتقل إليه الأشياء وما في هذا العالم الدنيوي الفاني البائد مقدمة للانتقال إلى ذلك العالم وهو الحياة الآخرة .

وقد فصَّلنا القول في هذا البرهان في تفسير الآية ١٦ من سورة الأنبياء،

سورة الدخان ـ آية ٣٦-٤٢ ١٤٩

والآية ٢٧ من سورة ص فليراجع .

وقوله : ﴿وَلَكُنَ أَكْثُرُهُمُ لَا يَعْلُمُونَ﴾ تقريع لهم بالجهل .

قوله تعالى : ﴿إِن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ بيان لصفة اليـوم الذي يثبتـه البرهان السابق وهو يوم القيامة الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين .

وسماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق والباطل وبين المحق والمبطل والمتقين والمجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى .

وقوله : ﴿ميقاتهم أجمعين﴾ أي موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبّع وقوم فرعون ومن تقدمهم وقريش وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمِ لَا يَغْنِي مُولَى عَنْ مُولَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ بيان ليوم الفصل ، والمولى هو الصاحب الذي له أن يتصرف في أمور صاحبه ويطلق على من يتولى الأمر وعلى من يتولى أمره والمولى الأول في الآية هو الأول والثاني هو الثانى .

والآية تنفي أولاً إغناء مولى عن مولاه يومئذٍ ، وتخبر ثانياً أنهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك ، والنصرة إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة ويتم له ذلك بنصرة الناصر .

والوجه في انتفاء الإغناء والنصر يومئذ أن الأسباب المؤشرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يـوم القيامـة ، قال تعـالى : ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾(١) ، وقـال : ﴿ فَرَيَّلْنَا بِينَهُم ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ إِلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾ استثناء من ضمير ﴿ لا ينصرون ﴾ والآية من أدلة الشفاعة يومئذ وقد تقدم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

هـذا على تقديـر رجوع ضميـر ﴿لا ينصرون﴾ إلى النـاس جميعاً على مـا هو

⁽١) البقرة : ١٦٦ .

⁽٢) يونس : ٢٨ .

الظاهر . وأما لو رجع إلى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى : لكن من رحمه الله وهم المتقون فإنهم في غنى عن مولى يغني عنهم وناصر ينصرهم .

وأما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلاً من ﴿مولى﴾ فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شيء من أسباب البنجاة ومن كان على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء والشفاعة نصرة تحتاج إلى بعض أسباب النجاة وهو الدين المرضي وقد تقدم في بحث الشفاعة ، نعم يمكن أن يوجه بما سيجيء في رواية الشحام .

وقوله : ﴿إِنه هو العزيز الرحيم﴾ أي الغالب الذي لا يغلبه شيء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه ، ومفيض الخير على من يريد أن يسرحمه ويفيض الخير عليه ومناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة .

قوله تعالى : ﴿إِن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ تقدم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافات ، والأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمداومة على معصية أو بالإكثار من المعاصي والآية إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار .

قوله تعالى: ﴿كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما ، والغلي والغليان معروف ، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة ، وقوله : ﴿كالمهل﴾ خبر ثان لقوله : ﴿إِنَ كَمَا أَن قوله : ﴿طعام الأثيم ﴾ خبر أول ، وقوله : ﴿يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ خبر ثالث ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾ الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف وسواء الجحيم وسطه ، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أي نقول للملائكة خذوا الأثيم وادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى : ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾(١) .

قوله تعالى : وثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم كأن المراد بالعذاب ما يعذّب به ، وإضافته إلى الحميم بيانية والمعنى . ثم صبّوا فوق رأسه من الحميم الذي يعذب به .

⁽١) التوبة : ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿ وَنَقَ إِنْكُ أَنْتَ الْعَزِيزِ الْكُويِمِ ﴾ خطاب بخاطب به الأثيم وهو يقاسي العذاب بعد العذاب ، وتوصيفه بالعزة والكرامة على ما هو عليه من الذلة واللأمة استهزاء به تشديداً لعذابه وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزة وكرامة لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: ﴿ وَمَا أَظُنَ الساعة قَائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسني ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هذا ما كنتم به تمترون ﴾ الامتراء الشك والارتياب ، والآية تتمة قولهم له: ﴿فَقَ الْخُ ، وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطئهم وزلتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان ، ولذا عبر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبر عن إدراك ألم المولمات ولذة الملذات إدراكاً تاماً بالذوق .

ويمكن أن تكون الآية استئنافاً من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة ، وربما أيَّده قوله : ﴿كنتم بـه تمترون﴾ بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالإفراد .

قوله تعالى : ﴿إِن المتقين في مقام أمين ﴾ المقام محل القيام بمعنى الثبوت والركوزولذا فسر أيضاً بموضع الإقامة ، والأمين صفة من الأمن بمعنى عدم إصابة المكروه ، والمعنى : إن المتقين ـ يوم القيامة ـ ثابتون في محل ذي أمن من إصابة المكروه مطلقاً .

وبذلك يظهر أن نسبة الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز في النسبة .

قوله تعالى : ﴿ فَي جَنَاتَ وَعَيُونَ ﴾ بيان لقوله : ﴿ فَي مَقَامَ أَمِينَ ﴾ وجعل العيون ظرفاً لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنات التي هي ظرف ، وجمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنة أو أكثر .

قوله تعالى : ﴿ يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ﴾ السندس الرقيق من الحرير والإستبرق الغليظ منه وهما معرّبان من الفارسية .

⁽١) السجدة : ٥٠ .

وقـوله : ﴿متقـابلين﴾ أي يقابـل بعضهم بعضاً للاستيناس إذ لا شـر ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين .

قوله تعالى: ﴿كذلك وزوجناهم بحور عين ﴾ أي الأمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهن من الزوج بمعنى القرين وهو أصل التزويج في اللغة ، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين وبياضها أو ذات المقلة السوداء كالنظباء ، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين ، وظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فَيُهَا بِكُلِّ فَاكُهُمْ آمَنِينَ ﴾ أي آمنين من ضررها .

قوله تعالى : ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عـذاب الجحيم﴾ أي إنهم في جنة الخلد أحياء بحياة أبدية لا يعتريها موت .

وقد استشكل في الآية بأن استثناء الموتة الأولى من قوله: ﴿لا يذوقون فيها الموت﴾ يفيد أنهم يذوقون الموتة الأولى فيها ، والمراد خلافه قطعاً ، وبتقرير آخر الموتة الأولى هي موتة الدنيا وقد مضت بالنسبة إلى أهل الجنة ، والتلبس في المستقبل بأمر ماض محال قطعاً فما معنى استثناء الموتة الأولى من عدم الذوق في المستقبل ؟ .

وهنا إشكال آخر لم يتعرضوا له وهو أنه قد تقدم في قوله تعالى : ﴿ رَبُّنا أُمَّتُنَا اثْنَتِينَ ﴿ أَنْ بَيْنَ الْحَيَّاةُ الْدَنِّيا والساعة مُوتَتِينَ : مُوتَةُ بالانتقالُ من البرزخ إلى الآخرة ، والظاهر أن المراد بالموتة الدنيا إلى البرزخ وموتة الدنيا الناقلة للإنسان إلى البرزخ فهب أنَّا أصلحنا استثناء الموتة الأولى في الآية هي موتة الدنيا الناقلة للإنسان إلى البرزخ فهب أنَّا أصلحنا استثناء الموتة الأولى بوجه فما بال الموتة الثانية لم تستثن ؟ وما الفرق بينهما وهما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في جنة الخلد ؟ .

وأجيب عن الإشكال الأول بأن الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكنهم قـد ذاقوا الموت في الدنيا وقـد مضت فعموم قـوله : ﴿لا يـذوقون فيهـا الموت﴾ على حاله .

وعلى تقدير عدم كون الاستثناء منقطعاً ﴿إلا ﴾ بمعنى سوى و ﴿إلا الموتة

⁽١) المؤمن : ١١ .

سورة الدخان_ آية ٤٥-٥٧ ٣٥٠

الأولى ﴾ بـدل من ﴿الموت﴾ وليس من الاستثناء في شيء ، والمعنى : لا يذوقـون فيها سوى الموتة الأولى من المـوت أما المـوتة الأولى فقـد ذاقوهـا ومحال أن تعـود وتذاق وهي أولى .

وأجيب ببعض وجوه أخر لا يعبأ به ، وأنت خبير بأن شيئاً من الوجهين لا يوجه الصاف الموتـة بالأولى وقـد تقدم في تفسيـر قـولـه : ﴿إن هِي إلا مـوتتنـا الأولى ﴾ الآية ، وجوه في ذلك .

وأما الإشكال الشاني فيمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدم لما أن هناك موتتين الموتة الأولى وهي الناقلة للإنسان من الدنيا إلى البرزخ والموتة الشانية وهي الناقلة له من البرزخ إلى الأخرة فإذا كان ﴿إلا﴾ في قوله: ﴿إلا الموتة الأولى﴾ بمعنى سوى والمجموع بدلاً من الموت كانت الآية مسوقة لنفي غير الموتة الأولى وهي الموتة الثانية التي هي موتة البرزخ فلا موت في جنة الأخرة لا موتة الدنيا لأنها تحققت لهم قبلاً ولا غير موتة الدنيا التي هي موتة البرزخ ، ويتبين بهذا وجه تقييد الموتة بالأولى .

وقوله: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، فالمعنى: وحفظهم من عذاب الجحيم ، وذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تتميم لقسمة المكاره أي إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار ومن نشأة الجنة إلى نشأة غيرها وهو الموت ومصونون من الانتقال من حال سعيدة إلى حال شقية وهي عذاب الجحيم .

قوله تعالى : ﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ حال مما تقدم ذكره من الكرامة والنعمة ، ويمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً له ، وعلى أي حال هو تفضّل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقاً يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شيء ، وإنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده ، وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة .

وقوله : ﴿ذَلَكَ هُو الْفُوزُ الْعَظَيم﴾ الْفُوزُ هُو الظَّفَرُ بالمرادُ وَكُـونُهُ فَـوزاً عَظَيمًا لكونه آخر ما يسعد به الإنسان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْمَا يَسَرِئَاهُ بِلْسَانِكُ لَعَلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من أول السورة إلى هنا وفذلكة للجميع ، والتيسير التسهيل ، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبي سَمِنْكُ العربية .

والمعنى: فإنما سهَّلنا القرآن ـ أي فهم مقاصده ـ بالعربية لعلهم ـ أي لعل قومك ـ يتذكرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله: ﴿إِنَا جَعَلْنَاهُ قَرْآنًا عَرْبِياً لَعَلَكُمُ تَعَقَّلُونَ﴾(١) .

وقيل : المراد من تيسيسر الكتاب بلسان النبي ﴿ الله على السانه وهـو أُمي لا يقرأ ولا يكتب ليكون آية لصدق نبوته ، وهو بعيد من سياق الفذلكة .

قوله تعالى : ﴿فَارِتَقَبِ إِنْهُم مُرِتَقَبُونَ ﴾ كأنه متفرع على ما يتفرع على الآية السابقة ، ومحصّل المعنى أنا يسرناه بالعربية رجاء أن يتـذكروا فلم يتـذكروا بـل هم في شك يلعبون وينتظرون العذاب الذي لا مردّ له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له .

فإطلاق المرتقبين على القوم من بـاب التهكم ، ومن سخيف القول قـول من يقول إن في ألاّية أمراً بالمتاركة وهي منسوخة بآية السيف .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿أهم خير أم قوم تبُّع﴾ روى سهل بن ساعد عن النبي سَلَنَهُ أنه قال : لا تسبوا تبّعاً فإنه كان قد أسلم .

أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً ، وأيضاً عن ابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبي سنداني .

وفيه وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله سنواني قال : إن تبَّعاً قال لـلأوس والخزرج : كونوا ههنا حتى يخرج هذا النبي ، أمـا أنا فلو أدركتـه لخدمتـه وخرجت معه .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبـد الله بن سلام قـال : لم يمت تبّع حتى صدّق بالنبي مسنرة لما كان يهود يثرب يخبرونه .

⁽١) الزخرف : ٣ .

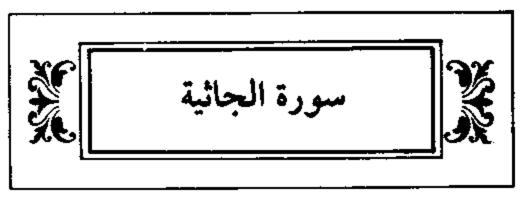
أقول : والأخبار في أمر تبُّع كثيرة ، وفي بعضها أنه أول من كسى الكعبة .

وفي الكافي بإسناده عن زيد الشحّام قال : قال لي أبو عبد الله على ونحن في الطريق في ليلة الجمعة : اقرأ فإنها ليلة الجمعة قرآناً ، فقرأت ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله ﴾ فقال أبو عبد الله الفظائة : نحن والله الذي استثنى الله فكنا نغني عنهم .

أقول : يشير عَشِينَهِ إلى الشفاعة وقد أخذ الاستثناء عن ﴿مُولَى ﴾ الأول .

وفي تفسير القمي : ثم قال : ﴿إِن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ نـزلت في أبي جهـل بـن هشام ، وقـوله : ﴿كـالمهل﴾ قـال : المهل الصفـر المـذاب ﴿يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ وهو الذي قد حمي وبلغ المنتهى .

أقول : ومن طرق أهل السنة أيضاً روايات تؤيد نزول الآية في أبي جهل .



مكية ، وهي سبع وثلاثون آية

بِسُمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

خم (١) تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَآخِتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مَنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بَٱلْحَقِّ فَبِالِيَّ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بَٱلْحَقِّ فَبِالِيَّ مَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (١) وَيْلُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَيْسٍ (٧) يَسْمَعُ اللهِ تَتْلَى عَلَيهِ ثُمَّ يُصِورُ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعُهَا فَبَشُورُهُ بِعَذَابِ اللهِ تُتَلَى عَلَيهِ ثُمَّ يُصِورُ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعُهَا فَبَشُورُهُ بِعَذَابِ اللهِ تُتَلَى عَلَيهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعُهَا فَبَشُورُهُ بِعَذَابِ اللهِ تُتَلَى عَلَيهِ ثُمَّ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً آتَّخَذَهَا هُزُوا أُولِيكَ لَهُمْ عَذَابُ مُهِينٌ (٩) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً آتَّخَذَهَا هُزُوا أُولِيكَ لَهُمْ عَذَابُ مُهِ اللهِ أُولِياءَ وَلَهُمْ عَذَابُ عَظِيمُ (١٠) هَذَا هُدَى مُنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اللهُ الَّذِي اللهِ أُولِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابُ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمُ (١٠) هَذَا هُدَى فَاللهُ الَّذِي وَاللهِ وَلَعَلَّمُ الْمَالِي وَلَيْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ الْبُحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ الْمُحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلُكُ فِيهِ بِأُمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ الْمُحْرَ لِتَجْرِيَ آلْفُلُكُ فِيهِ بِأُمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ الْمُذَا اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللّذِي اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الْمُولِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمْوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) .

(بیسان)

غرض السورة دعوة عامة على الإنذار تفتتح بآيات الوحدانية ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي علم الله وتشير إلى لزوم اتباعها له ولغيره بما أن أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتباع الشريعة واجتسراحهم السيئات بالإعراض عن الدين ، ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة .

وفي خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والذين اتخذوا إلههم هـواهم وأضلُهم الله على علم .

ومن طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال واستنساخها .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها واستثنى بعضهم قـوله تعـالى : ﴿قُلُ لَلَّذِينَ آمنوا﴾ الآية ، ولا شاهد له .

قوله تعالى : ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ الظاهر أن ﴿تنزيل الكتاب﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول ، و ﴿من الله﴾ متعلق بتنزيل ، والمجموع خبر لمبتدأ محذوف .

والمعنى : هـذا كتاب منـزَّل من الله العزيـز الحكيم ، وقد تقـدم الكـلام في مفردات الآية فيما تقدم .

قوله تعالى : وإن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين آية الشيء علامته التي تدلُّ عليه وتشير إليه ، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض وسائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالَّة عليه تعالى .

ومن الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يـذكر أن في الشيء آيـة له وأخـرى يعدّه بنفسـه آية كقـوله تعـالى : ﴿إِنْ فِي خلق السماوات

والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات (١) ، وقوله : ﴿ وَمِن آيَاتُهُ خَلَقُ السماواتُ وَالأَرْضِ (٢) ، ونظائرهما كثيرة ، ويستفاد من اختلاف التعبير الذي فيها أن معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله : ﴿ إِنْ فِي خَلَقُ السماواتُ والأرضُ واختلاف الليل والنهار لآيات ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنْ فَي خَلَقُ السماواتُ والأرضُ لآيات ﴾ الآية ، أن المراد من خلق السماواتُ والأرضُ نفسها لا غير .

والعناية في أخذ الشيء ظرفاً للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده وأن لوجوده جهة أو جهات كل واحدة منها آية من الآيات ولو أخذت نفس الشيء لم يستقم إلا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى : ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ (٣) ، ولو أخذت الآية نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال : والأرض آية للموقنين وضاع المراد وهو أن في وجود الأرض جهات كل واحدة منها آية وحدها .

فمعنى قوله: ﴿إِن في السماوات والأرض﴾ النح، أن لوجود السماوات والأرض جهات دالة على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فإنها يحاجتها الذاتية إلى من يوجدها وعظمة خلقتها وبداعة تركيبها واتصال وجود بعضها ببعض وارتباطه على كثرتها الهائلة واندراج أنظمتها الجزئية الخاصة بكل واحد تحت نظام عام يجمعها ويحكم فيها تدل على أن لها خالقاً هو وحده ربها المدبر أمرها فلولا أن هناك من يوجدها لم توجد من رأس ، ولولا أن مدبرها واحد لتناقضت النظامات وتدافعت واختلف التدبير .

ومما تقدم يظهر أن قول بعضهم : إن قوله : ﴿ فِي السماوات ﴾ بتقدير مضاف محذوف والتقدير في خلق السماوات ، تكلف من غير ضرورة تدعو إليه .

قوله تعالى: ﴿وفي خلقكم وما يبثُ من دابة آيات لقوم يوقنون﴾ البث التفريق والإثارة وبثه تعالى للدواب خلقها وتفريقها ونشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان: ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾(٤).

ومعنى الآية : وفيكم من حيث وجودكم المخلوق وفيما يفرِّقه الله من دابة من

(١) آل عمران : ١٩٠ .

(٢) الروم : ٢٢ . (3) الروم : ٢٠ .

حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين .

وخلق الإنسان على كونه موجوداً أرضياً له ارتباط بالمادة نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات والأرض لأنه مركب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونية عنصرية تفسد بالموت بالتفرق والتلاشي وأمر آخر وراء ذلك علوي غير مادي لا يفسد بالموت بل يتوفى ويحفظ عند الله ، وهو الذي يسميه القرآن بالروح قال تعالى : ﴿ونفخت فيه من روحي ﴾(١) ، وقال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم من علقة ثم من مضغة ثم تتميم خلق بدنه : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾(٢) ، وقال : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾(٢) .

فالناظر في خلق الإنسان ناظر في آية ملكوتية وراء الآيات المادية وكذا الناظر في خلق الدواب ولها نفوس ذوات حياة وشعور وإن كانت دون الإنسان في حياتها وشعورها كما أنها دونه في تجهيزاتها البدنية ففي الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته .

قوله تعالى : ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ إلى آخر الآية هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء والأرض .

وقوله: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافاً منظماً باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرر بتكرر السنين يدبر سبحانه بدلك أقوات أهل الأرض ويربيهم بذلك تربية صالحة قال تعالى: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾(١).

وقوله: ﴿ وَهِمَا أَنْزِلَ الله مِن السماء مِن رَزِقَ فَأَحِيا بِهِ الأَرْضِ بِعِد مُوتِها ﴾ المراد بالرزق الذي ينزله الله مِن السماء هـ و المطر تسمية للسبب باسم المسبب مجازاً أو لأن المطر أيضاً مِن الرزق فإن مياه الأرض مِن المطر ، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب مجازاً ، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها مِن النبات بالأخذ في الرشد والنمو ، ولا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح إلى المعاد .

وقوله : ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي تحويلها وإرسالها من جانب إلى جانب ،

(١) الحجر: ٢٩. (٣) الم السجدة: ١١.

(٢) المؤمنون : ١٤ .(٤) حم السجلة : ١٠ .

لتصريفها فوائد عـامـة كثيـرة من أعمهـا سـوق السحب إلى أقـطار الأرض وتلقيـح النباتات ودفع العفونات والروائح المنتنة .

وقوله : ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ أي يميزون بين الحق والباطل والحسن والقبيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم .

وقد خص كل قبيل من الأيات بقوم خاص فخصت آية السماوات والأرض بالمؤمنين وآية الإنسان وسائر الحيوان بقوم يوقنون ، وآية اختلاف الليل والنهار والأمطار وتصريف الرياح بقوم يعقلون .

ولعل الوجه في ذلك أن آية السماوات والأرض تدل بدلالة بسيطة ساذجة على أنها لم توجد نفسها بنفسها ولا عن اتفاق وصدفة بل لها موجد أوجدها مع ما لها من الأثار والأفعال التي يتحصل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجميع ورب الكل والإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج والمؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك وينتفعون به .

وأما أنه خلق الإنسان وسائر الدواب التي لها حياة وشعور فإنها من حيث أرواحها ونفوسها الحية الشاعرة من عالم وراء عالم المادة وهو المسمى بالملكوت وقد خص القرآن كمال إدراكه ومشاهدته بأهل اليقين كما قال : ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾(١).

وأما أية اختلاف الليل والنهار والأمطار المحيية للأرض وتصريف الرياح فإنها لتنوع أقسامها وتعدد جهاتها وارتباطها بالأرض والأرضيات وكثرة فوائدها وسعة منافعها تحتاج إلى تعقل فكري تفصيلي عميق ولا تنال بالفهم البسيط الساذج ولذلك خصت بقوم يعقلون والأيات آيات لجميع الناس لكن لما كان المنتفع بها بعضهم خصت بهم .

وقد عبر عن أهل اليقين والعقل بقوم يوقنون وبقوم يعقلون وعن أهل الإيمان بالمؤمنين لأن بساطة آية أهل الإيمان تفيد أن المراد بالإيمان أصله وهو ثابت فيهم فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتي أهل اليقين والعقل فإنهما لدقّتهما وعلو

⁽١) الأنعام: ٧٥ .

منالهما تدركان شيئاً فشيئاً فناسبتا التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرار التجددي .

وقيل في وجه ما في الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أولاً أهل الإيمان ثم الإيقان ثم العقل أنه على ترتيب الترقي فإن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان فهو بعد الإيمان والعقل مدار الإيمان والإيقان ونعني العقل المؤيّد بنور البصيرة فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كل وجه وفي استحكامه كل خير. وروعي في ترتيب الأيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث(۱).

وفيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثاني بل قبل أول المراتب على ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصوّره .

وقيل في وجه الترتيب: إن تمام النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السماوات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين أما الأول فظاهر، وأما الشاني فلأنه العلة الغائية فلا بد أن يكون جامعاً أي إن الثالث وهو المعلول يتوقف في معرفته على ذكر علّته الغائية قبله.

وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الأيات دون مراتب الصفات الشلاث أعني الإيمان والإيقان والعقل على أن الثالث أيضاً كالأول من أسباب تكوّن الحيوان فيجب أن يتقدم على الثاني ، وبوجه آخر الثاني علة غائية للأول فيجب أن يتقدم على الثالث .

وقيل: إن السبب في ترتيب هذه الفواصل أنه قيل: إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم بمؤمنين وكنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم بمؤمنين ولا موقنين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الصفات الثلاث دون أقسام الآيـات الثــلاثة على أن لازمــه أن لا يختص شيء من الآيات الثــلاث بواحــدة من الصفــات الثلاث بل يكون الجميع للجميع والسياق لا يســاعد عليــه على أن ظاهــر كلامــه أنه

 ⁽۱) هذا الوجه مستفاد من الكشاف ، وما يتلوه لصاحب الكشف ، والوجـه الأخير للرازي في التفسيــر
 الكبير .

فسّر اليقين بالجـزم وهو العلم فـلا يبقى للعقـل إلا الحكم الـظني ولا يعبـأ بــه في المعارف الاعتقادية .

قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملًا فلو لم يلتزم لم يكن إيماناً وإن كان هناك علم ، قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وأضلّه الله على علم ﴾ (١) .

والآيات هي العلامات الدالة فآيات الله الكونية هي الأمور الكونية الدالة بوجودها الخارجي على كونه تعالى واحداً في الخلق متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن كل نقص وحاجة ، والإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالتها عليه تعالى ولازمه الإيمان به تعالى كما تدل هي عليه .

والآيات القرآنية آيات لـه تعالى بما تدلّ على الآيات الكونية الدالة عليه سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عملية أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه ويأمر بها فإن مضامينها دالّة عليه ومن عنده ، والإيمان بهذه الآيات أيضاً إيمان بدلالتها ويلزمه الإيمان بمدلولها .

والأيات المعجزة أيضاً إما آيات كونية ودلالتها دلالـة الأيات الكـونية وإمـا غير كونية كالقرآن في إعجازه ومرجع دلالتها إلى دلالة الآيات الكونية .

وقوله: ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ الإشارة إلى الأيات القرآنية المتلوّة عليه مِنْ ﴿ مَا اللّهِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّ

وقوله: ﴿ فَبَأَي حَدَيْثُ بَعِدَ اللهُ وآياتُه يؤمنُونَ ﴾ قيل : هو من قبيل قولك : أعجبني زيد وكرمه ، وإنما أعجبك كرمه والمعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد وزيد من حيث كرمه ، فمعنى الآية فبأي حديث بعد آيات الله يعني الآيات القرآنية يؤمنون ؟ يعني إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث يؤمنون ؟ .

وقيل : الكلام بتقدير حديث أي إذا لم يؤمنوا فبأي حديث بعد حديث الله

⁽١) النمل : ١٤ .

⁽٢) الجاثية : ٢٣ .

وآياته يؤمنون ، والأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالأيات الآيات الكونية ولذا قال الطبرسي بعد ذكر هذا المعنى : والفرق بين الحديث الذي هو القرآن وبين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر تبيين الحق من الباطل ، والآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح والفاسد . انتهى وأول الوجهين ألطف .

قوله تعالى : ﴿ويل لكل أفّاك أثيم﴾ الويل والهلاك ، والأفاك مبالغة من الإفك وهو الكذب، والأثيم من الإثم بمعنى المعصية والمعنى : ليكن الهلاك على كل كذاب ذي معصية .

قوله تعالى : ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ﴾ المخ صفة لكل أفاك أثيم ، و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي وتفيد معنى الاستبعاد ، والإصرار على الفعل ملازمته وعدم الانفكاك عنه .

والمعنى : يسمع آيات الله ـ وهي آيـات القرآن ـ تقـرأ عليه ثم يـلازم الكفـر والحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم .

قوله تعالى : ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ الخ ، ظاهر السياق أن ضمير ﴿اتخذها ﴾ للآيات ، وجعل الهزء متعلقاً بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله ، والمعنى : وإذا علم ذلك الأفّاك الأثيم المصرّ المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعاً .

وقوله: ﴿ أُولئك لهم عذاب مهين﴾ أي مذل مخز ، وتوصيف العذاب بالاهانة مقابلة لاستكبارهم واستهزائهم ، والاشارة باولئك إلى كل أفّاك ، وقيل في الآية بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها .

قوله تعالى : ﴿من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ الخ ، لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم وهم سائرون نحوها متوجهون إليها .

وقيل: وراءهم بمعنى قدامهم قال في المجمع: وراء اسم يقع على القدام والخلف فما توارى عنك فهو وراءك حلفك كان أو أمامك. انتهى وفي قوله: هومن ورائهم جهنم وقضاء حتم.

وقوله: ﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ المراد بما كسبوا ما حصلوه في الدنيا من مال ونحوه ، وتنكير ﴿شيئاً ﴾ للتحقير أي ولا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال وجاه وأنصار في الدنيا شيئاً يسيراً حقيراً .

وقوله : ﴿ وَلا مَا اتَخَذُوا مِن دُونَ اللهِ أُولِياء ﴾ ﴿ مَا ﴾ مصدرية والمراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أرباباً آلهة وزعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام .

وقوله : ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ تأكيد لوعيدهم وقد أوعدهم الله سبحانه أولاً بقوله : ﴿ ويل لكل أفاك ﴾ الخ ، وثانياً بقوله : ﴿ فبشّره بعذاب أليم ﴾ وثالثاً بقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ ورابعاً بقوله : ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ النخ ، وخامساً بقوله : ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ، ووصف عذابهم في خلالها بأنه أليم مهين عظيم .

قوله تعالى : ﴿هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ الإشارة بقوله : ﴿هذا هدى ﴾ إلى القرآن ووصف بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل والرجز _ كما قيل _ أشد العذاب وأصله الاضطراب .

والآية في مقام الردّ لما رموا به القرآن وعدّوه مهاناً بالهزء والسخـرية وخــلاصة وعيد من كفر بآياته .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ الخ ، لما ذكر سبحانه حال الأفّاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم والاستهزاء بما علموا منها وأوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع إليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن ويكفر ، وذكر بعض آيات ربوبيته التي فيها منّ عظيم عليهم وليس في وسعهم إنكارها فذكر أولاً تسخير البحر لهم ثم ما في السماوات والأرض جميعاً ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطرة الإنسانية ونسي التفكر الذي هو من أجلى خواص الإنسان .

فقوله: ﴿ الله الـذي سخّر لكم البحر﴾ اللام في ﴿ لكم ﴾ للغايـة أي سخر لأجلكم البحـر بأن خلقـه على نحو يحمـل الفلك ويقبل أن تجـري فيـه فينتفـع بــه الإنسان ، ويمكن أن تكون للتعدية فيكون الإنسان يسخر البحر بإذن الله .

وقوله : ﴿لتجري الفلك فيه بأمره﴾ غاية لتسخير البحر ، وجبريان الفلك فيه بأمره ، هو إيجاد الجريان بكلمة كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة إليه تعالى

وقوله : ﴿ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَصَلَّهُ ﴾ أي والتطلبوا بركوبه عطيته تعالى وهو رزقه .

وقوله : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة التي هي تسخير البحر .

قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ الخ ، هذا من الترقي بعطف العام على الخاص ، والكلام في ﴿لكم﴾ كالكلام في مثله في الآية السابقة ، وقوله : ﴿جميعاً ﴾ تأكيد لما في السماوات والأرض أو حال منه .

وقوله: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً ﴾ معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويسربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يـزال المجتمع البشري يتوسع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له.

وقوله: ﴿منه﴾ من للابتداء ، والضمير لله تعالى وهو حال مما في السماوات والأرض ، والمعنى : سخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً حال كونه مبتدأ منه حاصلاً من عنده فذرات الأشياء تبتدىء منه بإيجاده لها من غير مثال سابق وكذلك خواصها وآتارها بخلقه ومن خواصها وآثارها ارتباط بعضها ببعض وهو النظام الجاري فيها المرتبط بالإنسان قال تعالى : ﴿الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾(١) ، وقال : ﴿إله هو يبدىء ويعيد﴾(١) .

وقد ذكروا لقوله : ﴿منه﴾ معاني أخر لا يخلو شيء منها عن التكلف تبركنا التعرّض لها .

وقوله : ﴿ إِنْ فِي ذَلَكَ لَآيَاتَ لَقُومَ يَتَفَكَّرُ وَنَ ﴾ وجه تعلقها بالتفكر ظاهر .

* * *

⁽١) الروم : ١١ .

⁽٢) البروج : ١٣ .

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِي قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَالنَّسُوّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ السَطِيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا آخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا آخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَيمَا كَانُوا فِيهِ يَحْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَآتَبِعْهَا وَلاَ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَآتَبِعْهَا وَلاَ وَيْهِ يَخْوَا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَقِينَ (١٩) .

(بیان)

لما ذكر آيات الوحدانية وأشار فيها بعض الإشارة إلى المعاد وكذا إلى النبوّة في ضمن ذكر تنزيل الكتاب وإيعاد المستكبرين المستهزئين به ذكر في هذه الآيات تشريع الشريعة للنبي والمنتلف وتوسّل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من الكلام إحداهما دعوة المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا يرجون أيام الله فإن الله مجازيهم لأن الأعمال مسؤول عنها صالحة أو طالحة ، وهذا هو السبب لتشريع الشريعة ، والثانية : أن إنزال الكتاب والحكم والنبوة ليس ببدع فقد أتى الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وآتاهم البينات التي لا يبقى معها في دين الله ريب لمرتاب إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغياً منهم وسيقضي الله بينهم .

ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعة له وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء الجاهلين .

قوله تعالى : ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يسرجون أيهام الله الله ، أصر منه تعالى لنبيه مُشِنَّةٍ أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية : قل سورة الجاثية ـ آية ١٤١١٠١٦٧

لهم : اغفروا يغفروا فهي كقول تعالى : ﴿قُلْ لَعَبَّادِي الَّذِينَ آمَنُوا يَقْيَمُوا الصلاة﴾(١) .

والآية مكية واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين المستهزئين بآيات الله المهددة لهم بأشد العذاب وكأن المؤمنين بالنبي المنابي المنابي المنابية كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون في طعنهم وإهانتهم للنبي واستهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله ومن أرسله به ويدعوهم إلى رفض ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممن حقّت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقة ، فأمر الله سبحانه نبيه المنابية أن يأمرهم بالعفو والصفح عنهم وعدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم سيلحق بهم وجزاء ما كسبوه سينالهم .

وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا﴾ الصفح والإعراض عنهم بترك مخاصمتهم ومجادلتهم ، والمراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا في الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون لله أياماً لا حكم فيها ولا ملك إلا له تعالى كيوم الموت والبرزخ ويوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال .

وقوله: ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر بالأمر بالمغفرة ومحصله ليصفحوا عنهم ولا يتعرضوا لهم ، فلا حاجة إلى ذلك لأن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله: ﴿وفرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ثم فرهم في خوضهم يلعبون﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ثم فرهم ألله الذي يلعبون﴾ (١) ، وقوله: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ (٥) .

ومعنى الآية: مر الـذين آمنوا أن يعفوا ويصفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يـوم من أيـامـه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيـام الله حتى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيامه.

وفي قـوله : ﴿ليجـزي قومـاً﴾ وضع الـظاهر مـوضع الضميـر ، وكان مقتضى

(١) إبراهيم : ٣١ .
 (٣) الأنعام : ٩١ .
 (٥) الزخرف : ٨٩ .

(٢) المزمل : ١٢ . (٤) المعارج : ٢٦ .

Presented by: https://jafrilibrary.con

الظاهر أن يقال: ليجزيهم ، والنكتة فيه مع كون ﴿قوماً ﴾ نكرة غير موصوفة تحقير أمرهم وعدم العناية بشانهم كأنهم قـوم منكرون لا يعـرف شخصهم ولا يهتم بشيء من أمرهم .

وبما تقدم من تقرير معنى الآية تتصل الآية وما بعدها بما قبلها وتندفع الاشكالات التي أوردوها عليها واهتموا بالجواب عنها ، ويظهر فساد المعاني المختلفة التي ذكروها لها ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ في موضع التعليل لقوله : ﴿ليجزي قوماً﴾ الخ ، ولذا لم يعطف وليس من الاستئناف في شيء .

ومحصل المعنى: ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تـذهب سُدى وبـلا أثر بل من عمل صالحاً انتفع بـه ومن أساء العمـل تضرر بـه ثم إلى ربكم ترجعون فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ النع ، لما بين أن للأعمال آثاراً حسنة أو سيئة تلحق صاحبيها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي مسلمات إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم كما قال تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾ (١) .

فنبه على ذلك بقوله الآتي: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر﴾ الخ، وقدّم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم وإيتائهم البينات ليؤذن به أن الإفاضة الإلهية بالشريعة والنبوة والكتاب ليست ببدع لم يسبق إليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم.

فقوله: ﴿ وَلَقَدَ آتَينَا بَنِي إِسَرَائِيلَ الْكَتَابِ وَالْحَكُمُ وَالْنَبُوةِ ﴾ المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى عليه وأما الإنجيل فلا يتضمن الشريعة وشريعته شريعة التوراة ، وأما زبور داود فهي أدعية وأذكار ، ويمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق في القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة .

⁽١) النحل: ٩.

والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾(١) ، وقال في التوراة: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ﴾(١) ، فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوة من لوازمه .

والمراد بالنبوة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جماً غفيراً من الأنبياء كما في الأخبار وقص في كتابه جماعة من رسلهم .

وقوله: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي طيبات الرزق ومن ذلك المن والسلوى . وقوله: ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين والمعجزات الكثيرة الطاهرة من أنبيائهم ، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات .

قوله تعالى : ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ إلى آخر الآية المراد بالبينات الآيات البينات التي تزيل كل شك وريب وتمحوه عن الحق ويشهد بذلك تفريع قوله : ﴿فَمَا الْحَتَلَفُوا إِلَّا مِن بعد ما جاءهم العلم﴾ .

والمراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و ﴿من﴾ بمعنى في والمعنى: وأعطيناهم دلائل بيّنة في أمر الدين ويندرج فيه معجزات موسى عَائِدَةِ.

وقيسل : االمراد به أمر النبي مُشَنِّدَ والمعنى : آتيناهم آيات من أمر النبي وعلامات مبينة لصدقه كظهوره في مكة ومهاجرته منها إلى يشرب ونصرة أهله وغير ذلك مما كان مذكوراً في كتبهم .

وقوله : ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَا مِنْ بَعْدُمَا جَاءُهُمُ الْعَلْمُ بَغْياً بِينَهُم ﴾ يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهة أو جهل وإنما أوجدها علماؤهم بغياً وكان البغي دائراً بينهم .

وقوله : ﴿إِنْ رَبِكَ يَقْضِي بِينَهُم يُومُ القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ إشارة إلى أن اختلافهم الذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يلذهب سدى وسيؤثر أثره ويقضي الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم .

⁽١) البقرة : ٢١٣ .

⁽٢) المائدة : ٤٤ .

قوله تعالى: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون والخطاب للنبي وسنوات ويشاركه فيه أمته ، والشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين ، والمعنى : بعدما آتينا بني إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقة خاصة من أمر الدين الإلهي وهي الشريعة الإسلامية التي خص الله بها النبي والمناه وأمته .

وقوله : ﴿ فَاتَبِعُهَا ﴾ النَّح ، أمر للنبي ﴿ مُلْتَبَيُّ بِاتْبَاعَ مَا يُوحَى إليه مَن الدين وأنَّ لا يُتَبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الإلهي .

ويظهر من الآية أولًا: أن النبي مُشَرَّتُ مكلف بالدين كسائر الأمة .

وثـانياً : أن كـل حكم عملي لم يستند إلى الـوحي الإلهي ولم ينته إليـه فهـو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم .

قوله تعالى : ﴿إِنهِم لَن يَعْنُوا عَنْكُ مِن اللهِ شَيْئاً ﴾ النّج ، تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، والإغناء من شيء رفع الحاجة إليه ، والمحصل : أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلا هو والذريعة إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغني عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئاً من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغني شيئاً من الإغناء .

وقوله: ﴿ وَإِن الظالمين بعضهم أُولِياء بعض والله ولي المتقين ﴾ الذي يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين ، وأن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعة وبالمتقين المتبعون لدين الله .

والمعنى: أن الله ولي الذين يتبعون دينه لأنهم متقون والله وليهم ، والذين يتبعون أهواء الجهلة ليس هو تعالى ولياً لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك ولياً ولا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئاً .

وتسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هـ و الموافق لمـ ايستفاد من قـ وله : ﴿ أَنْ لَعْنَا مَا يَسْتَفَادُ مِن قَـ وَلَّهُ : ﴿ أَنْ لَعْنَا مَا اللهُ عَلَى الظَّالَمِينَ اللَّهُ يَنْ يُصَدُونَ عَنْ سَبِيلُ اللهُ وَيَبْغُونُهَا عَـ وَجَا وَبِالْآخِرَةُ هُمُ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

⁽١) الأعراف: ٤٥.

هَـٰذَا بَصَائِـرُ لِلنَّاسِ وَهُـدِيُّ وَرَحْمَةً لِقَـوْم يُـوقِنُـونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّـذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَـٱلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَن آتَّخَذَ إِلَّهَـهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِـهِ وَقَلْبهِ وَجَعَـلَ عَلَىٰ بَصَرهِ غِشَـاوَةً فَمَنْ يَهْدِيـهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَـذَكَّرُونَ (٣٣) وَقَـالُوا مَـا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَـا الدُّنْيَـا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدُّهْـرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمَ إِنَّا هُمْ إِلَّا يَـظُنُونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَـاتُنَا بَيِّنَـاتِ مَا كَـانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا آئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثَمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَـوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لاَ رَيْبَ فِيـهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّــاس لاَ يَعْلَمُ وِنَ (٢٦) وَللَّهِ مُلْكُ السَّمْ وَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّاعَـةُ يَوْمَئِذِ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرِيٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعِيٰ إِلَيٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِـٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّـا نَسْتَنْسِخُ مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَـأَمَّـا الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُـوَ ٱلْفَـوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّــا الَّــذِينَ كَفَــرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَــاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُـمْ فَـأَسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَـوْماً مُجْـرِمِينَ (٣١) وإِذَا قِيـلَ إِنَّ وَعْـذَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَـظُنُّ إِلَّا ظَنَّا وَمَـا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا

بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ آلْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَاذَا وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُمْ بِأَنْكُمُ آتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتُكُمُ آلْحَيوٰةُ الدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتُكُمُ آلْحَيوٰةُ الدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ آلْحَمْدُ رَبِّ السَّمْوَاتِ وَرَبِّ آلْأَرْضِ رَبِّ لَيْ السَّمْوَاتِ وَرَبِّ آلْأَرْضِ وَهُوَ آلْعَزِيزُ آلْحَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ آلْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمْوَاتِ وَآلْأَرْضِ وَهُوَ آلْعَزِيزُ آلْحَكِيمُ (٣٦) .

(بیان)

لما أشار إلى جعل النبي عَلَيْتُ على شريعة من الأمر وهو تشريع الشريعة الإسلامية أشار في هذه الآيات إلى أنها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن يسلكوه من سبيل الحياة الطيبة في الدنيا وتتلوها سعادة الحياة الآخرة ، وهدى ورحمة لقوم يوقنون بآيات الله .

وأشار إلى أن الذي يدعو مجترحي السيئات أن يستنكفوا عن التشرع بالشريعة إنكارهم المعاد فيحسبون أنهم والمتشرعون بالدين سواء في الحياة والممات وأن لا أثر للتشرع بالشريعة فلا ثمرة للعمل الصالح الذي تهدي إليه الشريعة إلا إتعاب النفس بالتقيد من غير موجب . فبرهن تعالى على بطلان حسبانهم بإثبات المعاد ثم أردف بوصف المعاد وما يثيب به الصالحين يومئذ وما يعاقب به الطالحين أهل الجحود والإجرام ، وعند ذلك تختتم السورة بالتحميد والتسبيح .

قوله تعالى: ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يموقنون الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذي هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشتمل على الشريعة ، والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك المصيب للواقع ، والمراد بها ما يبصر به ، وإنما كانت الشريعة بصائر لأنها تتضمن أحكاماً وقوانين كل منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة .

والمعنى : هـذه الشريعـة المشرّعـة أو القرآن المشتمـل عليها وظائف عملية يتبصّر بكل منها الناس ويهتـدون إلى السبيل الحق وهـو سبيل الله وسبيـل السعادة ،

فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة : ﴿هذا بصائر للناس﴾ كقوله بعد ذكر آيات الوحدانية في أول السورة : ﴿هذا هدى والذين كفروا﴾الخ .

وقوله : ﴿وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي دلالة واضحة وإفاضة خير لهم ، والمراد بقوم يـوقنون : الـذين يوقنـون بآيـات الله الدالـة على أصول المعـارف فإن المعهود في القرآن تعلّق الإيقان بالاصول الاعتقادية .

وتخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر ، وبالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتّقى وآمن برسوله بعد الإيمان بالله ، قال تعالى : فيا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم (١) ، وقال : وذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين النذين يؤمنون بالغيب إلى أن قال وبالأخرة هم يوقنون (١) ، وللرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقاً ثم للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضاً مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها .

وأما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن بما يشتمل على الشريعة رحمة للناس كافة كما أن الرسول المبعوث به رحمة لهم جميعاً ، قال تعالى : ووما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (٢) ، وقد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة .

قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالدين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم الخ ، قال في المجمع: الاجتراح الاكتساب ، يقال: جرح واجترح وكسب واكتسب وأصله من الجراح لأن لذلك تأثيراً كتأثير الجراح . قال: والسيئة الفعلة القبيحة التي يسوء صاحبها باستحقاق الذمّ عليها . انتهى .

والجعل بمعنى التصيير ، وقوله : ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالَحَاتِ﴾ في محل المفعولُ الثاني للجعل ، والتقدير كائنين كالذين آمنوا ، الخ .

⁽١) الحديد : ٢٨ .

 ⁽٣) البقرة : ٤ .
 (٣) الأنبياء : ١٠٧ .

وجزم الزمخشري في الكشاف على كون الكاف في ﴿كَالَّذِينَ﴾ اسماً بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: ﴿نجعلهم﴾، وقوله: ﴿سواءَ﴾ بدلًا منه.

وقوله : وسواء بالنصب على القراءة الدائرة وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستوياً أو متساوياً ، وقوله : ومحياهم مصدر ميمي وفاعل وسواء وضميره راجع إلى مجموع المجترحين والمؤمنين ، و ومماتهم معطوف على ومحياهم وحاله كحاله .

والآية مسوقة سوق الإنكار و ﴿أم﴾ منقطعة ، والمعنى : بـل أحسب وظنَّ الـذين يكتسبون السيئات أن نصيّرهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مستوياً محياهم ومماتهم أي تكون حياة هؤلاء كحياة أولئك ومـوتهم كموتهم فيكـون الإيمان والتشرع بالدين لغواً لا أثر له في حياة ولا موت ويستوي وجوده وعدمه .

وقوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ ردّ لحسبانهم المذكور وحكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات ومساءة الحكم كناية عن بطلانه .

فالفريقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات .

أما أنهما لا يتساويان في الحياة فلأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في سلوكهم مسلك الحياة على بصيرة من أمرهم وهدى ورحمة من ربهم كما ذكره سبحانه في الآية السابقة والمسيء صفر الكف من ذلك ، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَمَن اتبع هذاي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ﴾(١) ، وقال في موضع آخر: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾(١) .

وأما أنهما لا يتساويان في الممات فلأن الموت كما ينطق به البراهين الساطعة ليس انعداماً للشيء وبطلاناً للنفس الإنسانية كما يحسبه المبطلون بل هو رجوع إلى الله تسبحانه وانتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة التي هي دار البقاء وعالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة ونعمة وغيره في شقاء وعذاب .

وقبد أشار سبحانه إليه فيما تقدم من كلامه بقوله : ﴿كَذَلُّكُ يَحِيُّ اللَّهُ

⁽١) طه : ١٢٤ .

⁽٢) الأنعام : ١٢٢ .

الموتى ﴾ وقوله : ﴿ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ وغير ذلك ، وسيتعرض لـه بقولـه : ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ الخ .

والآية من حيث تركيب ألفاظها والمعنى المتحصل منها من معارك الأراء بين المفسرين وقد ذكروا لها محامل كثيرة والذي يعطيه السياق ويساعد عليه هو ما قدمناه ولا كثير فائدة في التعرض لوجوه أخر ذكروها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: ﴿ وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا ينظلمون ﴾ النظاهر أن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة فكون خلق العالم بالحق كونه حقاً لا باطلاً ولعباً وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه .

وقدوله: ﴿ولتجزى النح ، عطف على ﴿بالحق ﴾ والباء في قوله: ﴿بما كسبت ﴾ للتعدية أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب وإن كان معصية فالعقاب ، وقوله: ﴿وهم لا يظلمون ﴾ حال من كل نفس أي ولتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل .

فيؤول معنى الآية إلى مثل قولنا وخلق الله السماوات والأرض بالحق وبالعدل فكسون الخلق بالحق يقتضي أن يكسون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضي أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزي جزاء حسناً والمسيء يجزى جزاء سيئاً وإذ ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة أخرى .

وبهذا البيان يظهر أن الآية تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أشير إليه بقوله: ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ ويسلك من طريق الحق ، والثانية ما أشير إليه بقوله: ﴿ولتجزى﴾ الخ ، ويسلك من طريق العدل .

فتؤول الحجتان إلى ما يشتمل عليه قوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾(١).

⁽۱) ص : ۲۸ .

والآية بما فيها من الحجة تبطل حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإن حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الممات ، ولازم ذلك إبطال حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الحياة فإن ثبوت المجازاة يومئذٍ يقتضي وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل ويتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساويين .

قبوله تعالى : ﴿أَفْرَأَيْتُ مِنْ اتَخَدْ إِلَهُهُ هُواهُ وَأَصْلُهُ اللَّهُ عَلَى عَلَمَ﴾ إلى آخر الآية ظاهر السياق أن قبوله : ﴿أَفْرَأَيْتَ﴾ مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال ؟ .

والمراد بقوله: ﴿ اتخذ إلهه هواه ﴾ حيث قدم ﴿ إلهه ﴾ على ﴿ هواه ﴾ أنه يعلم أن له إلها يجب أن يعبده _ وهو الله سبحانه _ لكنه يبدله من هواه ويجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ أي إنه ضال عن السبيل وهو يعلم .

ومعنى اتخاذ الإله العبادة والمراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدَّ الطاعـة عبادة كما في قوله : ﴿ أَلَم أُعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ (٣) .

والاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع وتمثيل أن العابـد عبد لا يريد ولا يفعل إلا ما أراده ورضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذه إلهـاً وعبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ولا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته .

فقوله : ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي ألا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعتـه واتباعه وهو يعلم أن له إلها غيره يجب أن يعبده ويطيعه لكنه يجعـل معبوده ومـطاعه هو هواه .

وقوله : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ أي هو ضال بإضلال منه تعالى يضله بـه

⁽۱) يس: ٦١.

⁽٢) التوبة : ٣١ . (٣) آل عمران : ٦٤ .

مجازاة لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقراً على علم هذا الضال ، ولا ضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل ومعرفته كما في قوله تعالى : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾(١) ، وذلك أن العلم لا يلازم الهدى ولا الضلال يلازم الجهل بل الذي يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء وأما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم .

وأما قول بعضهم: إن المراد بالعلم هو علمه تعالى والمعنى: وأضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق.

وقوله: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ كالعطف التفسيري لقوله: ﴿وأضله الله على علم ﴾ والختم على السمع والقلب هو أن لا يسمع الحق ولا يعقله ، وجعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله ومحصّل الجميع: أن لا يترتب على السمع والقلب والبصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه وإتباع للهوى ، وقد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه .

وقوله: ﴿ وَمَن يَهِدِيهُ مِن بَعِدُ اللهِ ﴾ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه والتفريع على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم الخ ، فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى : ﴿ قال إن هدى الله هو الهدى ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تَذَكُرُونَ ﴾ أي أفلا تتفكرون في حالـه فتتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا .

قوله تعالى : ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ إلى آخر الآية ، قال الراغب : الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ ثم يعبّر به عن كل مدّة كثيرة ، وهو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة . انتهى .

⁽١) النمل : ١٤ .

⁽٢) البقرة : ١٢٠ -

والآية على ما يعطيه السياق ـ سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد ـ حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريّين الناسبين للحوادث وجوداً وعدماً إلى الدهر المنكرين للمبدأ والمعاد جميعاً إذ لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة .

فقولهم: ﴿ وَما هِي إِلا حياتنا الدنيا ﴾ الضمير للحياة أي لا حياة لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهي من البعث والحياة الآخرة ، وهذا هو القرينة المؤيدة لأن يكون المراد بقوله: ﴿ نموت ونحيا ﴾ يموت بعضنا ويحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنساني بموت الأسلاف وحياة الأخلاف ويؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده: ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ المشعر بالاستمرار.

فالمعنى: وقال المشركون: ليست الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا وهم الأسلاف ويحيى آخرون وهم الأخلاف وما يهلكنا إلا الزمان ـ الذي بمروره يبلى كل جديد ويفسد كل كائن ويميت كل حي ـ فليس الموت انتقالاً من دار إلى دار منتهياً إلى البعث والرجوع إلى الله .

ولعل هذا كلام بعض الجهلة من وثنية العرب وإلا فالعقيدة الدائرة بين الوثنية هي التناسخ وهو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان أخرى جديدة فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعادة في بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تتنعم فيه وتسعد ، وإن كانت اكتسبت الشقاء في البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه وتعذب جزاء لعملها السيء وهكذا ، وهؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياة إلى وساطة الملائكة .

ولهذا أعني كون القول بالتناسخ دائراً بين الوثنية ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآية قولهم بالتناسخ ، والمعنى : ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا فلسنا نخرج من الدنيا أبداً ﴿نموت عن حياة دنيا ﴿ونحيا ﴾ بعد الموت بالتعلق ببدن جديد وهكذا ﴿وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

وهنذا لا يخلو من وجه لكن لا يبلائمه قبولهم المنقول ذيبلًا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر وسيلة يتوسل الدهر وسيلة يتوسل الدهر كون الدهر وسيلة يتوسل بها الملك الموكل على الموت إلى الإماتة ، وكذا لا تلائمه حجتهم المنقولة ذيلًا:

﴿ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ الظاهرة في أنهم يرون آباءهم معدومين باطلي الذوات .

وذكر في معنى الآية وجوه أُخر لا يعبأ بها كقول بعضهم: المعنى نكون أمواتاً لا حياة فيها وهو قبل ولوج الروح ثم نحيا بولوجها على حد قولـه تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾(١).

وقول بعضهم : المراد بالحياة بقاء النسل مجازاً ، والمعنى : نموت نحن ونحياً ببقاء نسلنا . إلى غير ذلك مما قيل .

وقوله: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ أي إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم وإنما هو ظن يظنونه وذلك أنهم لا دليل لهم يبدل على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلة على ثبوته.

قوله تعالى : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولاً بغير علم .

والمراد بالآيات البينات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد وكنونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك ، وتسمية قبولهم : ﴿ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ مع كونه اقتراحاً جزافياً بعد قيام الحجة إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل : ما كانت حجتهم إلا اللاحجة .

والمعنى: وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول وهو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين.

قوله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يـوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر النـاس لا يعلمون﴾ إلى قـوله ﴿والأرض﴾ مـا ذكر من اقتـراحهم الحجة على مطلوب قامت عليه الحجة وإن كان اقتراحاً جزافياً لا يستدعي شيئاً من الجواب

⁽١) البقرة : ٢٨ .

لكنه سبحانه أمر نبيه عَيْمُنْ أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذي كانوا يستبعدونه .

ومحصله: أن الذي يحييكم لأول مرة ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه ولله ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء ويتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه ويتصرف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة والقضاء بينكم ثم الجزاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ويوم تقوم الساعة يومشد يخسر المبطلون قال الراغب : الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال : خسر فلان ، وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارته ، قال تعالى : ﴿تلك إذا كرَّة خاسرة ﴾ ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر ، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين .

قال : وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهـو على هذا المعنى الأخيـر دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية والتجارات البشرية .

وقال: والإبطال يقال في إفساد الشيء وإزالته سواء كان ذلك الشيء حقاً أو باطلاً قال تعالى: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له نحو ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾، وقوله تعالى: ﴿خسر هنالك المبطلون﴾ أي الذين يبطلون الحق. انتهى.

والأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعلية ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب والجزاء وظهوره ، وبذلك صح جعل الساعة مظروفاً لليوم وهما واحد ، والأشبه أن يكون قوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ تأكيداً لقوله : ﴿ يوم تقوم الساعة ﴾ .

والمعنى : ويوم تقوم الساعة وهي يوم الرجوع إلى الله يومئذٍ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق وعدلوا عنه .

قوله تعالى : ﴿وترى كل أُمة جاثية كل أُمة تـدعى إلى كتابها﴾ النح ، الجشوُّ البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع .

والخطاب عام لكل من يصح منه الرؤية وإن كان متوجهاً إلى النبي مُعَلَّمُهُمُ والمراد بالدعوة إلى الكتاب باحصائه

الأعمال بشهادة قوله بعده : ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

والمعنى : وترى أنت وغيرك من الرائين كل أمة من الأمم جالسة على الجثوّ جلسة الخاضع الخائف كـل أمة منهم تـدعى إلى كتابهـا الخاص بهـا وهي صحيفة الأعمال وقيل لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون .

ويستفاد من ظاهر الآية أن لكل أمة كتاباً خاصاً بهم كما أن لكل إنسان كتابـاً خاصاً به قال تعالى : ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً بلقاه منشوراً﴾(١) .

قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون قال في الصحاح: ونسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته كله بمعنى، والنسخة اسم المنتسخ منه. انتهى، وقال الراغب: النسخ إزالة الشيء بشيء بتعقبه كنسخ الشمس الظل ونسخ الظل الشمس والشيب الشباب إلى أن قال ونسخ الكتاب نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة اخرى كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة، والاستنساخ التقدم بنسخ الشيء والترشح للنسخ. انتهى

ومقتضى ما نقل أن المفعول الذي يتعدى إليه الفعل في قولنا: استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه ، ولازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون كتاباً وأصلاً وإن شئت فقل: في أصل وكتاب يستنسخ وينقل منه ولو أريد به ضبط الأعمال الخارجية القائمة بالإنسان بالكتابة لقيل: إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتاباً وأصلاً يستنسخ ، ولا دليل على كون ويستنسخ و بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم .

ولازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجية بما أنها في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال وجزء من اللوح المحفوظ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال.

⁽١) الإسراء : ١٣ .

وهذا هو المعنى الـذي وردت به الـرواية من طـرق الشيعة عن الصــادق عَلَيْكُمْ. ومن طرق أهل السنة عن ابن عباس ، وسيوافيك في البحث الروائي التالي .

وعلى هذا فقوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ من كـلامه تعـالى لا من كلام الملائكة ، وهو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكـون في معنى : «ويقال لهم هذا كتابنا» الخ .

والإشارة بهذا - على ما يعطيه السياق - إلى صحيفة الأعمال وهي بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدم وإضافة الكتاب إليه تعالى نظراً إلى أنه صحيفة الأعمال من جهة أنه مكتوب بأمره تعالى ونظراً إلى أنه اللوح المحفوظ من جهة التشريف وقوله: ﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾ أي يشهد على ما عملتم ويدل عليه دلالة واضحة ملابساً للحق.

وقوله: ﴿إِنَا كُنَا نَسْتَنْسَخُ مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ تعليل لكون الكتباب ينطق عليهم بالحق أي إن كتابنا هذا دال على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم يجميع جهاتها الواقعية .

ولولا أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك ولا يحتمل منهم التكذيب لكذّبوه ، قال تعالى : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾(١) .

وللقوم في الآية أقوال أُخر :

منها ما قيل : إن الآية من كلام الملائكة لا من كلام الله ومعنى الاستنساخ الكتابة والمعنى : هذا أي صحيفة الأعمال كتابنا معشر الملائكة الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحق إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون .

وفيه أن كونه من كلام الملائكة بعيـد من السياق على أن كـون الاستنسـاخ بمعنى مطلق الكتابة لم يثبت لغة .

ومنها: أن الآية من كلام الله ، والإشارة بهذا إلى صحيفة الأعمال ، وقيل : إلى اللوح المحفوظ ، والاستنساخ بمعنى الاستكتاب مطلقاً .

⁽١) آل عمران : ٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴾ تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والشواب والعقاب ، والسعداء المثابون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين .

والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها ومنها الجنة ، والفوز المبين الفلاح الظاهر ، والباقي واضح .

قوله تعالى : ﴿وأما اللذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾ المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب وجحود بشهادة قوله : ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتَلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبُرْتُمْ﴾الْخ

والفاء في ﴿أفلم تكن﴾ للتفريع فتدلّ على مقدّر متفرع عليه هو جواب لما ، والتقدير : فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، والمراد بالأيات الحجج الإلهية الملقاة إليهم عن وحي ودعوة ، والمجرم هو المتلبس بالإجرام وهو الذنب .

والمعنى : وأما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً : ألم تكن حججي تقرأ وتبين لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها وكنتم قوماً مذنبين .

قوله تعالى: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة الله الله المراد بالوعد الموعود وهو ما وعده الله بلسان رسله من البعث والجزاء فيكون قوله: ﴿والساعة لا ريب فيها من عطف التفسير ، ويمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدري .

وقولهم : ﴿ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةِ ﴾ معناه أنه غير مفهوم لهم والحال أنهم أهل فهم ودراية فهو كناية عن كونه أمراً غير معقول ولو كان معقولاً لدروه .

وقوله : ﴿إِن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ أي ليست مما نقطع به ونجزم بل نظن ظناً لا يسعنا أن نعتمد عليه ، ففي قولهم : ﴿ما ندري ما الساعة ﴾ الخ ، غبّ ما تليت عليهم من الآيات البينة أفحش المكابرة مع الحق .

قوله تعالى : ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ إضافة السيئات إلى ما عملوا بيانية أو بمعنى من ، والمراد بما عملوا جنس ما عملوا ١٨٤١٠٠٠ الجزء الخامس والعشرون

أي ظهر لهم أعمالهم السيئة أو السيئات من أعمالهم فالآية في معنى قوله: ﴿يومِ تَجِدُ كُلُ نَفْسُ مَا عَمَلَتُ مِن حَشِراً ومَا عَمَلَتُ مِن سَوِّهُ (١).

فالآية من الآيـات الدالـة على تمثل الأعمـال ، وقيل : إن في الكــلام حذفـاً والتقدير : وبدا لهم جزاء سيئات ما عملوا .

وقوله : ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي وحلُّ بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء والرسل .

قوله تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يـومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين و النسيان كناية عن الإعـراض والترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم وتركه لهم في شدائده وأهواله ، ونسيانهم لقاء يـومهم ذاك في الدنيا إعراضهم عن تذكّره وتركهم التأهب للقائه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ الخ ، الإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات وحلول العذاب والهزء السخرية التي يستهزء بها والباء للسببية .

والمعنى: ذلكم العـذاب الـذي يحـل بكم بسبب أنكم اتخـذتم آيــات الله مسخرية تستهزءون بها وبسبب أنكم غرتكم الحياة الدنيا فأخلدتم إليها وتعلقتم بها.

وقوله: ﴿ فَاليُّومُ لَا يَخْرَجُونَ مَنْهَا وَلَا هُمْ يَسْتَعْتُبُونَ ﴾ صرف الخطاب عنهم النبي مُنْدُلُهُ ، ويتضمن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يـومئذ وهو الخلود في النار وعدم قبول العذر منهم .

والاستعتباب طلب العتبى والاعتذار ، ونفي الاستعتباب كنايبة عن عدم قببول العذر .

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين﴾ تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم في السورة من كونه خالق السماوات والأرض وما بينهما والمدبر لأمر الجميع ومن بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتبع ليوم الرجوع إليه والجزاء بالأعمال وهو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق إلى السعادة

⁽١) آل عمران : ٣٠ .

والنواب ويتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء واستقرار الجميع على الرحمة والعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً ولم يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله .

وقد كرر «الرب» فقال: رب السماوات ورب الأرض ثم أبدل منهما قوله: ورب العالمين ليأتي بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلوجي، برب العالمين واكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصة رب آخر وللأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنية ، وكذا لو اكتفى بالسماوات والأرض لم يكن صريحاً في ربوبيته لغيرهما ، وكذا لو اكتفى بإحداهما .

قبوله تعالى : ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض وهبو العنزين الحكيم ﴾ الكبرياء على ما عن الراغب : الترفع عن الانقياد ، وعن ابن الأثير : العنظمة والملك وفي المجمع السلطان القاهر والعظمة القاهرة والعظمة والرفعة .

وهي على أي حال أبلغ معنى من الكبر وتستعمل في العظمة غير الحسية ومرجعه إلى كمال وجوده ولا تناهي كماله .

وقوله : ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾ أي له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شيء فيهما ولا يستصغره شيء وتقديم الخبر في ﴿لهالكبرياء﴾ يفيد الحصر كما في قوله : ﴿فله الحمد﴾ .

وقوله: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق وتدبير في الدنيا والأخرة والباني خلقه وتدبيره على الحكمة والإتقان .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿أَفْرَأَيْتُ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هُواهُ﴾ قال : نزلت في قريش كلما هووا شيئاً عبدوه .

وفي الـدر المنثور أخرج النسائي وابن جرير وابن المنـذر وابن مردويـه عن ابن عباس قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه أخـذه وألقى الآخر فأنزل الله ﴿أَفْرَأَيْتُ مَنَ اتَّخَذَ إِلَهُ هُواه﴾ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿وما يهلكنا إلا الـدهر﴾ وقـد روي في الحديث

عن النبي مُشَرِّفُ أنه قال: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.

أقول: قال الطبرسي بعد إيراد الحديث: وتأويله أن أهل الجاهلية كانوا ينسبون الحوادث المجحفة والبلايا النازلة إلى الدهر فيقولون: فعل الدهر كذا، وكانوا يسبون الدهر فقال مُشْرَاهِ : إن فاعل هذه الأمور هو الله فلا تسبوا فاعلها انتهى . ويؤيد هذا الوجه الرواية التالية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريسرة قال : قال رسول الله مُسْلَنَّهُ : قال الله تبارك وتعالى : لا يقبل ابن آدم يسب الدهسريا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ الآية ، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله على قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد ثم قال لنهر في الجنة : كن مداداً فجمد النهر وكان أشد بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد . ثم قال للقلم : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رق أشد بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت . ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلن ينطق أبداً .

فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أو لستم عرباً ؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام ؟ وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل ؟ وهو قوله: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ .

أقول: قوله على القلم في رق النح ، تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق والرق ما يكتب فيه شبه الكاغد على ما ذكره الراغب وقد تقدم الحديث عنه على أن القلم ملك واللوح ملك ، وقوله : فجعله في ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم وقوله : ثم ختم على فم القلم والنح ، كناية عن كون ما كتب في الرق قضاء محتوماً لا يتغير ولا يتبدل ، وقوله : أو لستم عرباً «الخ» ، إشارة إلى ما تقدم توضيحه في تفسير الأية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون وهو الـدواة وخلق القلم فقال : اكتب . قـال : ما أكتب ؟ قـال : اكتب ما هـو كائن إلى

يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر أو رزق مسرزوق حلال أو حــرام ثم ألزم كــل شيء من ذلك شأنه : دخوله في الدنيا ومقامه فيها كم ، وخروجه منها كيف ؟ .

ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزاناً تحفظه ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فإذا فنى ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فيقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا .

قـال ابن عباس : ألستم قـوماً عـرباً ؟ تسمعـون الحفظة يقـولون : ﴿إنـا كنـا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ؟ .

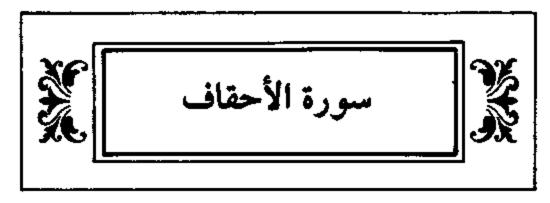
أقول : والخبر كما ترى يجعل الآية من كلام الملائكة الحفظة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب .

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس قال بعد ذكر الملكين الموكلين بالعبد: وفي رواية أنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساء ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً ومساء بديوان العبد قابله إسرافيل بالنسخ التي انتسخ لهما حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه.

وفي المجمع في قول تعالى : ﴿ول الكبرياء في السماوات والأرض﴾ وفي الحديث يقول الله : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في نارجهنم .

أقول : ورواه في الدر المنشور عن مسلم وأبي داود وابن ماجـة وغيـرهم عن أبي هريرة عن النبي منطقة .



مكية ، وهي خمس وثلاثون آية

بِسُمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

خم (١) تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلَ مُسَمَّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلُ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلُ أَرَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَمْ لَهُمْ شِرْكُ فِي السَّمْوَاتِ النَّونِي مِكْنَابِ مِنْ قَبْلِ هَلْذَا أُو أَثَارَةٍ مِنْ عِلْم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَصَلُ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَا جَاءَهُمْ هَنذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ آفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ آفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ اللّهِ شَيئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ قُلْ إِنِ آفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ قُلْ إِنِ آفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ عَلَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيَنْكُمْ وَهُو ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيَنْكُمْ وَهُو ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعًا مِنَ الرَّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَبِعُ إِلَّا مَا كُنْتُ بِدُعُ مِنَ اللهِ مِنَا لَيْ مِنَ اللهِ مُا لَيْ يَعْلُونَ الْمُعْلَى بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَبِعُ إِلَا مَا كُنْتُ مِنَا الْمُعْلَى بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَبِعُ إِلَا مَا كُنْتُ مِنَ اللهُ مَنَا لَونَ مِنَ اللْهُ مِنَ الْهُو مَا يُغْتَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَبِعُ إِلَا مَا كُنْتُ مُ الْمُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِ

سورة الأحقاف ـ آية ١ ـ ١٤

149

يُوحىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرُ مُبِينُ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَآسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِي آلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِي آلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَا إِنْكُ قَدِيمُ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَالَمَا كِتَابُ مُصَدِّقُ لِللّهُ مُنْ اللّهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَالَمَ الْكَابُ مُصَدِّقً لِللّهُ عَرْبِياً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ اللّه لِينَ اللّهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا فَلَا خَوْقُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أَوْ اللّهُ مُنْ اللّهُ مُنَافًا مُوا فَلَا خَوْقُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولًا مُنْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ مُنْ اللّهُ مُنْ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَعْمَلُونَ (١٤) أُولُولُكُ أَصْحَابُ آلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) .

(بیان)

غرض السورة إنذار المشركين المرادين للدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد : بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه ، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد : فرما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ثم يعود إليه عودة بعد عودة كقوله : فوإذا حشر الناس ، وقوله : فوالذي قال لموالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج ، وقوله : فويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم ، وقوله : فويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ، وقوله في مختتم السورة : فوكانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبئوا إلا ساعة من نهار بلاغ الآية .

وفيها احتجاج على الوحدانية والنبوة ، وإشارة إلى هلاك قـوم هود وهـَـلاك القرى التي حين التي عن التي عن المعن عند النبي عن التي حين المعن عند النبي عن التي عن المعن عند النبي عن التي عن التي عنه ورجوعهم إلى قومهم منذرين لهم .

والسورة مكية كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله ، قوله تعالى : ﴿أَم يقولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ اللَّح ، وقوله : ﴿قُـلُ أَرَأَيْتُم إِنْ كَانَ مَنْ عَنْدَ الله ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ تقدُّم تفسيره .

قوله تعالى: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى ﴾ الخ ، المراد بالسماوات والأرض وما بينهما مجموع العالم المشهود علويه وسفليه ، والباء في ﴿بالحق﴾ للملابسة ، والمراد بالأجل المسمى ما ينتهي إليه أمد وجود الشيء ، والمراد به في الآية الأجل المسمى لوجود مجموع العالم وهو يوم القيامة الذي تطوى (١) فيه السماء كطي السجل للكتب وتبدل الأرض (٢) غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار .

والمعنى: ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلوية والسفلية إلا ملابساً للحق له غاية ثابتة وملابساً لأجل معين لا يتعداه وجوده وإذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء وهو المعاد الموعود ، وقد تكرر الكلام فيما تقدم في معنى كون الخلق بالحق .

وقوله: ﴿والمدّين كفروا عما أندروا معرضون﴾ المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد ، و «ما» في ﴿عما﴾ مصدرية أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى : والمشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به _ وهو يوم القيامة بما فيه من ألم العذاب لمن أشرك بالله _ معرضون منصرفون .

قوله تعالى : ﴿ قُلُ أُرأيتم مَا تَدْعُونَ مِن دُونَ الله ﴾ إلى آخر الآية ﴿ أُرأيتم ﴾ بمعنى أخبروني والمراد بما تـدعون من دون الله الأصنام التي كانوا يـدعونها ويعبدونها وإرجاع ضمائر أولي العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال أولي العقل وحجّة الآية وما بعدها مع ذلك تجري في كل إله معبود من دون الله .

وقوله : ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أَرُونِي بِمَعْنَى أَخْبِرُونِي وَ ﴿مَا ﴾ اسم استفهام و ﴿ذَا ﴾ بعده زائدة والمجموع مفعول ﴿خَلَقُوا ﴾ ومن الأرض متعلق به .

وقـوله : ﴿أَم لَهُم شُـرَكُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي شـركة في خلق السمـاوات فـإن خلق شيء من السماوات والأرض هو المسؤول عنه .

تـوضيح ذلـك أنهم وإن لم ينسبوا إليهـا إلا تدبيـر الكـون وخصـوا الخلق بــه

⁽١) إشارة إلى الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء .

⁽٢) إشارة إلى الآية ٤٨ من سورة إبراهيم .

سورة الأحقاف_ آية ١-٥١٠٠٠ ١٩١

سبحانه كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾(١) ، وقال: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾(١) ، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيه والمناهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق .

وقوله: ﴿ اثتوني بكتاب من قبل هذا أو أثبارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ الإشارة بهذا إلى القرآن ، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوي كالتوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض .

والاثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل والرواية قبال: وأثرت العلم رويته آثره أثراً وأثارة وأثرة وأصله تتبعت أثره انتهى . وعليه فالاثبارة في الآية مصدر بمعنى المفعلول أي شيء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض ، وفسره غالب المفسرين بمعنى البقية وهو قريب مما تقدم .

والمعنى: ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوي من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقية من علم أورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ الخ ، الاستفهام إنكاري ، وتحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة .

وقوله: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ صفة أخرى من صفات آلهتهم مضافة إلى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلًا لعدم الاستجابة فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا يملكون لعبادهم شيئاً قال تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك

⁽١) الزمر : ٣٨ .

⁽٢) الزخرف : ٨٧ .

لكم ضراً ولا نفعاً﴾(١) .

بل هي صفة مضافة إلى صفة مذكورة لتكون توطئة وتمهيداً لما سيذكره في الآية التالية من عداوتهم لهم وكفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم وسيطلعون عليه يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم .

وفي الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد وقد نسب إليها الغفلة والغفلة من شؤون ذوي الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَشَرِ النَّاسِ كَانُوا لَهُمْ أَعَدَاءُ وَكَانُوا يَعْبَادَتُهُمْ كَافُرِينَ﴾ المحشر إخراج الشيء من مقرّه بإزعاج ، والمراد بعث النَّاس من قبورهم وسوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم ويكفرون بشرك عبّادهم بالتبرّي منهم كما قال تعالى : ﴿ وَيُومُ القيامة يكفرون بشرككم ﴾ (٢) ، وقال حكاية عنهم : ﴿ تَبَرَّأْنَا إليكُ مَا كَانُوا إِيانًا يَعْبَدُونَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهُ شَهِيداً بِيننا وبِينكُم أَن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ (٤) .

وفي سياق الأيتين تلويح إلى أن هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أن لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أن لها حياة وتظهر آثارها وقد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾(٥) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتَلَى عَلَيْهُم آيَاتُنَا بِينَاتَ قَالُ الذَينَ كَفُرُوا لَلْحَقَ لَمَا جَاءُهُمُ هَذَا سَحَرَ مَبِينَ ﴾ الآية والتي بعدها مسوقتان للتوبيخ ، والمراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم ، ثم بدّلها من الحق الذي جاءهم حيث قال: ﴿للحق لمنا جاءهم ﴾ وكان مقتضى النظاهر أن يقال: ﴿لها لللله على أنها حق جاءهم لا مسوّغ لرميها بأنها سحر مبين وهم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح .

(١) المائدة : ٧٦ . (٤) يونس : ٢٩ .

(٢) فاطر : ١٤ . (٥) السجدة : ٢١ .

(٣) القصص : ٦٣ .

سورة الأحقاف_ آية ٦-٨١٩٣

قـوله تعـالى : ﴿أَم يقولـون افتراه قـل إن افتريته فلا تملكـون لي من الله شيئاً ﴾ الخ ، ﴿أُم ﴾ منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه .

وقوله: ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً أي إن افتريت القرآن لأجلكم آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء ولستم تقدرون على دفع عذابه عني فكيف أفتريه عليه لأجلكم ، والمحصل أني على يقين من أمر الله وأعلم أنه يأخذ المفتري عليه أو يعاجل في عقوبته وأنكم لا تقدرون على دفع ما يريده فكيف أفتري عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم ؟ أي لست بمفتر عليه .

ويتبين بذلك أن جزاء الشرط في قوله: ﴿إِنَ افتريته فلا تملكون لي﴾ النع ، محذوف وقد أقيم مقامه ما يجري مجرى ارتفاع المانع ، والتقدير: إن افتريته آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب ولا مانع من قبلكم يمنع عنه ، وليس من قبيل وضع المسبب موضع السبب كما قيل .

وقوله : ﴿هُو أَعلَم بِمَا تَفْيضُونَ فَيه ﴾ الإفاضة في الحديث الخوض فيه و ﴿ما ﴾ موصولة يرجع إليه ضمير ﴿فيه ﴾ أو مصدرية ومرجع الضمير هو القرآن ، والمعنى : الله سبحانه أعلم بالذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء على الله أو المعنى : هو أعلم بخوضكم في القرآن .

وقوله: ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ احتجاج ثان على نفي الافتراء وأول الاحتجاجين قوله: ﴿إِن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ وقد تقدم بيانه آنفاً ، ومعنى الجملة: أن شهادة الله سبحانه في كلامه بأنه كلامه وليس افتراء مني يكفي في نفي كوني مفترياً به عليه ، وقد صدًق سبحانه هذه الدعوى بقوله: ﴿لكن الله يشهد بماأنزل إليك أنزله بعلمه﴾(١) ، وما في معناه من الآيات ، وأما أنه كلامه فيكفي في ثبوته آيات التحدي .

وقوله : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفي ما يتضمنه تحكمهم الباطل من نفي الرسالة كأنه قيل : إن قولكم : ﴿ افتراه ﴾ يتضمن دعويين : دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله ودعوى بطلان الرسالة ـ والوثنيون ينفونها مطلقاً ـ أما الدعوى الأولى فيدفعه أولاً : أنه إن افتريته فلا تملكون ،

⁽١) النساء : ١٦٦ .

الخ ، وثانياً : أن الله يكفيني شهيداً على كونه كلامه لا كلامي .

وأما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم ، ومن الواجب في حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلا التاثبين الراجعين إليه الصالحين للذلك وذلك بأن يهديهم إلى صراط يقربهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته ورحمته بحط السيئات والاستقرار في دار السعادة الخالدة ، وكونه واجباً في حكمته لأن فيهم صلاحية هذا الكمال وهو الجواد الكريم ، قال تعالى : ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾(١) ، وقال : ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾(١) ، والسبيل إلى هذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل إلى الناس رسولاً يدعوهم إلى سبيله الموصلة إلى مغفرته ورحمته .

قوله تعالى : ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ النح ، البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله وأفعاله ولذا فسره بعضهم بأن المعنى : ما كنت أول رسول أرسل إليكم لا رسول قبلي ، وقيل : المعنى : ما كنت مبدعاً في أقوالي وأفعالي لم يسبقني إليها أحد من الرسل .

والمعنى الأول لا يبلائم السياق ولا قول المتقدم: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ بالمعنى الذي تقدم توجيهه فثاني المعنيين هو الأنسب، وعليه فالمعنى: لست أخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة وفي قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم في من آثار البشرية ما فيهم وسبيلهم في الحياة سبيلى.

وبهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم : ﴿مَا لَهَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامِ وَيَمْشَيُ فِي الْأُسُواقُ لُولًا أُنْـزَلُ إِلَيْهُ مَلْكُ فَيْكُـونَ مَعْهُ نَـذَيْراً أَو يَلْقَى إِلَيْهُ كُنْرُ أُو تَكُونَ لَهُ جَنَّةً يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ (٣) .

وقوله: ﴿ وَمَا أَدَرِي مَا يَفْعَلَ بِي وَلَا بَكُم ﴾ نفي لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: ﴿ وَلُو كُنْتُ أَعْلَمُ الغيبُ لاستكثرت مِن الخير وما مسّني السوء ﴾ (أ) ، والفرق بين الآيتين أن قوله: ﴿ وَلُو كُنْتُ أَعْلَمُ الغيبِ ﴾ الخ، نفي للعلم بمطلق الغيب واستشهاد له بمسّ السوء وعدم الاستكثار من الخير، وقوله: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلَ بِي وَلَا بَكُم ﴾

الإسراء : ۲۰ . (۳) الفرقان : ۸ .

 ⁽٢) النحل : ٩ .
 (١٨٨ : ١٨٨ .

سورة الأحقاف۔ آیة ۹ ۱۹۵

نفي للعلم بغيب خاص وهو ما يفعل به وبهم من الحوادث التي يواجهونها جميعاً ، وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوة لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبية كما يظهر من اقتراحاتهم المحكية في القرآن فامر من يعترف مصرحاً به أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفي عن نفسه العلم بالغيب ، وأن ما يجري عليه وعليهم من الحوادث خارج عن إرادته واختياره وليس له في شيء منهاصنع بل يفعله به وبهم غيره وهو الله سبحانه .

فقوله : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعُلُ بِي وَلَا بَكُم ﴾ كما ينفي عنه العلم بالغيب ينفي عنه القدرة على شيء مما يصيبه ويصيبهم مما هو تحت أستار الغيب .

ونفي الآية العلم بالغيب عنه ويشت لا ينافي علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله: ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ (١) ، (٢) ، وقوله: ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ (٣) ، وقوله: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ (٤) ، ومن هذا الباب قبول المسيح والله : ﴿ وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ﴾ (٥) ، وقول يوسف والله السجن : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبّاتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ (١) .

وجه عدم المنافاة أن الآيات النافية للعلم بالغيب عنه وعن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم بل بإذن من الله وأمر ، قال تعالى : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾(٧) ، جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات ، وقال : ﴿قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾(٨) ، وقال :

⁽١) آل عمران : ٤٤ . (٤) الإسراء : ٩٣ . (٧) الإسراء : ٩٣ .

 ⁽۲) يوسف: ۱۰۲.
 (۵) آل عمران: ٤٩.
 (۸) العنكبوت: ۵۰.

⁽٣) هود : ٤٩ . (٩) المؤمن : ٧٨ . (٩) المؤمن : ٧٨ .

ويشهد بذلك قوله بعده متصلاً به: ﴿إِنْ أَتَّبِعِ إِلاَ مَا يُوحِى إِلَيَ ﴾ فإن اتصاله بما قبله يعطي أنه في موضع الإضراب ، والمعنى : إني ما أدري شيئاً من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي وإنما أتَّبع ما يوحى إليَّ من ذلك .

وقوله : ﴿ وَهُومَا أَمُا إِلاَ نَذْيَرَ مَبِينَ ﴾ تأكيد لجميع ما تقـدم في الآية من قـوله : ﴿ مَا كُنت بدعاً ﴾ الخ ، و ﴿ وَمَا أَدْرِي ﴾ الخ ، وقوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِع ﴾ الخ ،

(بحث فلسفي ودفع شبهة)

تظافرت الأخبار من طرق أئمة أهل البيت أن الله سبحانه علّم النبي منطرة والأئمة عليه السلام علم كل شيء ، وفسّر ذلك في بعضها أن علم النبي منطرة من طريق الوحي وأن علم الأثمة عليهم السلام ينتهي إلى النبي منطرة .

وأورد عليه أن المأثور من سيرتهم أنهم كانوا يعيشون مدى حياتهم عيشة سائر الناس فيقصدون مقاصدهم ساعين إليها على ما يرشد إليه الأسباب الظاهرية ويهدي إليه السبل العادية فربما أصابوا مقاصدهم وربما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا ، ولو علموا الغيب لم يخيبوا في سعيهم أبداً فالعاقل لا يترك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مصيب فيه ولا يسلك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مخطىء فيه .

وقد أصيبوا بمصائب ليس من الجائز أن يلقي الإنسان نفسه في مهلكتها لو علم بواقع الأمر كما أصيب النبي مترات يوم أحد بما أصيب ، وأصيب علي بالنبخ في مسجد الكوفة حين فتك به المرادي لعنه الله ، وأصيب الحسين بالله فقتل في كربلاء ، وأصيب سائر الأئمة بالسم ، فلو كانوا يعلمون ما سيجري عليهم كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو محرم ، والإشكال كما ترى مأخوذ من الأيتين : ﴿ وَلُو كُنْتُ أَعْلُمُ الْغَيْبُ لاستكثرت من الخير ﴾ ﴿ وَمَا أُدرِي مَا يَفْعُلُ بِي وَلا بَكُم ﴾ .

ويردّه أنه مغالطة بالخلط بين العلوم العاديـة وغير العـادية فـالعلم غير العـادي بحقائق الأمور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجية .

توضيح ذلك أن أفعالنا الاختيارية كما تتعلق بـإرادتنـا كـذلـك تتعلق بعلل وشرائط أخرى مادية زمـانية ومكـانية إذا اجتمعت عليهـا تلك العلل والشرائط وتمّت

سورة الأحقاف_ آية ٩ ١٩٧

بـالإرادة تحققت العلة التامـة وكان تحقق الفعـل عنـد ذلـك واجبـاً ضـروريـاً إذ من المستحيل تخلف المعلول عن علته التامة .

فنسبة الفعل وهـو معلول إلى علته التـامة نسبـة الوجـوب والضرورة كنسبـة جميع الحوادث إلى عللها التامة ، ونسبته إلى إرادتنا وهي جزء علته نسبة الجواز والإمكان .

فتبين أن جميع الحوادث الخارجية ومنها أفعالنا الاختيارية واجبة الحصول في الخارج واقعة فيها على صفة الضرورة ولا ينافي ذلك كون أفعالنا الاختيارية ممكنة بالنسبة إلينا مع وجوبها على ما تقدم .

فإذا كان كل حادث ومنها أفعالنا الاختيارية بصفة الاختيار معلولاً له علة تامة يستحيل معها تخلفه عنها كانت الحوادث سلسلة منتظمة يستوعبها الوجوب لا يتعدى حلقة من حلقاتها موضعها ولا تتبدل من غيرها ، وكان الجميع واجباً من أول يوم سواء في ذلك ما وقع في الماضي وما لم يقع بعد ، فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هي عليها في متن الواقع لم يؤثر ذلك في إخراج حادث منها وإن كان اختيارياً عن ساحة الوجوب إلى حدّ الإمكان .

فإن قلت: بل يقع هذا العلم اليقيني في مجرى أسباب الأفعال الاختيارية كالعلم الحاصل من الطرق العادية فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العادية فيصير سبباً للفعل أو الترك حيث يبطل معه العلم العادي .

قلت: كلا فإن المفروض تحقق العلة التامة للعلم العادي مع سائر أسباب الفعل الاختياري فمثله كمثل أهل الجحود والعناد من الكفار يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود إلى النار ومع ذلك يصرون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود وهذا منهم هو العلم العادي بوجوب الفعل، قال تعالى في قصة آل فرعون: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾(١).

وبهذا يندفع ما يمكن أن يقال : لا يتصور علم يقيني بالخلاف مع عدم تأثيره في ارادة فليكشف عدم تأثيره في الإرادة عن عدم تحقق علم على هذا الوصف .

وجه الاندفاع : أن مجرد تحقق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقق الإرادة مستندة إليه وإنما هو العلم الذي يتعلق بوجوب الفعل مع التزام النفس به كما مرّ في

⁽١) النمل : ١٤ .

جحود أهل الجحود وإنكارهم الحق مع يقينهم به ومثله الفعل بالعناية فـإن سقوط الواقف على جذع عال ، منه على الأرض بمجرد تصوّر السقـوط لا يمنع عنـه علمه بأن في السقوط هلاكه القطعي .

وقد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأن للنبي مسلم والأئمة عليهم السلام تكاليف خاصة بكل واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك وإن كان ذلك منا إلقاء النفس في التهلكة وهو حرام ، وإليه إشارة في بعض الأخبار .

وأجاب بعضهم عنه بـأن الذي ينجـز التكاليف من العلم هـو العلم من الطرق العادية وأما غيره فليس بمنجز ، ويمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿قُلُ أُرَايِتُم إِنْ كَانَ مِن عَنْدُ الله وَكَفَرَتُم بِهُ وَشَهْدُ شَاهَدُ مِنْ بِنِي إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم النخ ، ضمائر ﴿كَانَ ﴾ و ﴿به ﴾ و ﴿مثله ﴾ على ما يعطيه السياق للقرآن ، وقوله : ﴿وشهد شاهد مِن بني إسرائيل ﴾ النخ ، معطوف على الشرط ويشاركه في الجزاء ، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهية وهو كتاب التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عائد ، وقوله : ﴿ فَامَنُ الشّاهِدُ الإسرائيلي المذكور بعد شهادته .

وقوله: ﴿إِن الله لا يهدي القوم الظالمين تعليل للجزاء المحذوف دال عليه ، والظاهر أنه الستم ضالين لا ما قيل: إنه الستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هداية الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم وإن كانوا متصفين بالوصفين جميعاً .

والمعنى: قل للمشركين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنكم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فآمن هو واستكبرتم أنتم ألستم في ضلال؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين.

والذي شهد على مثله فآمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود ، والآية على هذا مدنية لا مكية لأنه ممن آمن بالمدينة ، وقول بعضهم : من الجائز أن يكون التعبير بالماضي في قوله : وهوله شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن و لتحقق الوقوع والقصة واقعة في المستقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي مستنا صدقه فيما

بخبرهم به من الأمور المستقبلة .

وفي معنى الآية أقوال أخر منها أن المراد ممن شهد على مثله فآمن هو موسى على معنى الآية أقوال أخر منها أن المراد ممن شهد على التوراة فـآمن به وإنما عدلـوا عن المعنى السـابق إلى هـذا المعنى للبناء على كون الآية مكية ، وأنه إنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة .

وفيه أولاً: عدم الدليل على كون الآية مكية ولتكن القصة دليـ لا على كونها مدنية ، ثانياً: بعد أن يجعل موسى الكليم على غريناً لهؤلاء المشركين الأجـ لاف يقاسون به فيقـال ما محصله: إن موسى على آمن بالكتـاب النـازل عليه وأنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهرة .

ومما قيل إن المشل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قـوله تعـالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾(١) ، وهو في البعد كسابقه .

قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لوكان خيراً ما سبقونا إليه﴾ إلى آخر الآية قيل : اللام في قوله : ﴿للذين آمنوا﴾ للتعليل أي لأجل إيمانهم ويؤول إلى معنى في ، وضمير ﴿كان﴾ و﴿إليه﴾ للقرآن من جهة الإيمان به .

والمعنى : وقال الذين كفروا في الذين آمنوا ـ أي لأجل إيمانهم ـ : لو كـان الإيمان بالقرآن خيراً ما سبقونا ـ أي المؤمنون ـ إليه .

وقال بعضهم: إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين وبالضمير العائد إليه في قوله: ﴿سبقونا﴾ البعض الأخر، واللام متعلق بقال والمعنى: وقال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيراً ما سبقنا البعض من المؤمنين وهم الغائبون إليه، وفيه أنه بعيد من سياق الآية.

وقـال آخرون: إن المـراد بالـذين آمنوا المؤمنـون جميعاً لكن في قـوله: مـا سبقونا التفاتاً والأصل ما سبقتمونا وهـو في البعد كسـابقه وليس خـطاب الحاضـرين بصيغة الغيبة من الالتفات في شيء .

وقوله : ﴿ وَإِذْ لَم يَهْتَدُوا بِهُ فَسَيْقُولُونَ هَذَا إِفْكُ قَدِيمٍ ﴾ ضمير ﴿ بِهِ ﴾ للقرآن وكذا الإشارة بهذا إليه والإفك الافتراء أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن

⁽١) الشورى: ١١.

الإيمان به فسيقولون أي الذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم ، وقولهم : هذا إفك قديم كقولهم : أساطير الأولين .

قوله تعالى: ﴿ وَمِن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ﴾ النخ ، النظاهر أن قوله: ﴿ وَمِن قبله ﴾ النخ ، جملة حالية والمعنى: فسيقولون هذا إفك قديم والحال أن كتاب موسى حال كونه إماماً ورحمة قبله أي قبل القرآن وهذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لساناً عربياً ليكون منذراً للذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً ؟ .

وكون التوراة إماماً ورحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتبعونها في أعمالهم ورحمة للذين آمنوا بها واتبعوها في إصلاح نفوسهم .

قوله تعالى : ﴿إِن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ إلى آخر الآية المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم وشهادتهم بانحصار الربوبية في الله سبحانه وتوحده فيها ، وباستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ وانحراف والتزامهم بلوازمه العملية .

وقوله: ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي ليس قبالهم مكروه محتمل بخافونه من عقاب محتمل ، ولا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول ، فالخوف إنما يكون من مكروه ممكن الوقوع ، والحزن من مكروه محقق الوقوع ، والفاء في قوله: ﴿ فلا خوف ﴾ الخ ، لتوهم معنى الشرط فإن الكلام في معنى من قال ربنا الله ثم استقام فلا خوف الخ .

قوله تعالى : ﴿ أُولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ المراد بصحابة الجنة ملازمتها ، وقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مؤكدة لمعنى الصحابة .

والمعنى : أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات والقربات .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة قال : سألت أبا جعفر مانشخ عن قول الله تعالى : ﴿ ائْتُونَى بَكْتَابِ مِن قَبِلَ هَذَا أُو أَثَارَةً مِن عَلَمَ إِنْ كُنتُم صَادَقَيْنَ ﴾ قال : عنى

سورة الأحقاف ـ آية ١٢ - ١٤ المردة الأحقاف ـ آية ١٢ - ١٤

بالكتاب التوراة والإنجيل ﴿وأثارة من علم ﴾ فإنما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردوية من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمان عن ابن عباس عن النبي مراه وأو أثارة من علم والله قال : الخط .

أقول: لعل المراد بالخط كتاب مخطوط موروث من الأنبياء أو العلماء الماضين لكن في بعض ما روي في تفسير قوله: ﴿ أُو أَثَارَة مِن علم ﴾ أنه حسن الخط وفي بعض آخر أنه جودة الخط وهو أجنبي من سياق الاحتجاج الذي في الأية.

وفي العيون في باب مجلس الرضا مع المأمون عنه عن حدثني أبي عن جدي عن ابائه عن الحسين بن علي عليهم السلام قال: اجتمع المهاجرون والأنصار إلى رسول الله من فقتك وفيمن يأتيك من الوفود، وهذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها باراً مأجوراً أعط ما شئت واحكم ما شئت من غير حرج.

قال: فأنزل الله تعالى إليه الروح الأمين فقال: يا محمد ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إِلاَّ المودَّة في القربي ﴿ يعني أن تودّوا قرابتي من بعدي ، فخرجوا فقال المنافقون: ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه إلا ليحثنا على قرابته من بعده ، وإن هو إلا شيء افتراه في مجلسه وكان ذلك من قولهم عظيماً .

فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم وبعث إليهم النبي عملي من على على من حدث ؟ فقالوا : إي والله يا رسول الله لقد قال بعضنا كلاماً غليظاً كرهناه فتلا عليهم رسول الله عملي الآية فبكوا واشتد بكاؤهم فأنزل الله تعالى : ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَـل بِي وَلا بِكُم ﴾ قال : نسختها هذه(١) الآيـة التي في

⁽١) يريد قوله تعالى : ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ الفتح : ٢ .

الفتح فخرج إلى الناس فبشرّهم بالذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

فقال رجل من المؤمنين: هنيئاً لك با نبي الله قد علمنا الآن ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب ووبشر المؤمنين والمؤمنات بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾، وقال: وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفّر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ فبين الله ما به يفعل وبهم.

أقول : الرواية لا تخلو من شيء :

أما أولاً: فلما تقدم بيانه في تفسير الآية أعني قوله : ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعُلُ بِي وَلاَ بَكُم﴾ أنها أجنبية عن العلم بالغيب الذي هو من طريق الـوحي بدلالـة صريحة من القرآن فلا ينفي بها العلم بالمغفرة من طريق الـوحي حتى تنسخها آيـة سـورة الفتح .

وأما ثانياً: فلأن ظاهر الرواية أن الذنب الذي تصرّح بمغفرته آية سورة الفتح هو الذنب بمعنى مخالفة الأمر والنهي المولويين وسيأتي في تفسير سورة الفتح ـ إن شاء الله تعالى ـ أن الذنب في الآية لغير هذا المعنى .

وأما ثالثاً: فلأن الآيات الدالة على دخول المؤمنين الجنة كثيرة جداً في مكية السور ومدنيتها ولا تدلّ آيتا سورة الأحزاب على أزيد مما يدلّ عليه ساثر الآيات فللا وجه لتخصيصهما بالدلالة على دخول المؤمنين الجنة وشمول المغفرة لهم .

على أن سورة الأحزاب نازلة قبل سورة الفتح بزمان .

وفيه أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي والمراني وأنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم.

فقال لهم رسول الله علم الله على الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الله عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم ردَّ عليهم فلم يجبه أحد فثلّت فلم يجبه أحد فقال : أبيتم فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي آمنتم أو كذبتم .

ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت

يا محمد ، فأقبل فقال ذلك الرجل : أي رجل تعلمونني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : والله لا نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، فقال : إني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل ، قالوا : كذبت ثم ردّوا عليه وقالوا شراً ، فقال رسول الله عَمْنَاتُ : كذبتم لن يقبل منكم قولكم .

فخرجنا ونحن ثلاث: رسول الله سلما وأنا وابن سلام فأنزل الله: ﴿قُلْ اللهِ اللهُ اللهُ

أقول: وفي نزول الآية في عبد الله بن سلام روايات اخرى من طرق أهل السنة غير هذه الرواية ، وسياق الآية وخاصة قوله: ﴿من بني إسرائيل﴾ لا يلائم كون الخطاب فيها لبني إسرائيل ، وقد عدَّ الإنجيل في الرواية من كتبهم وليس من كتبهم واليهود لا يصدّقونه .

وفي بعض الـروايات أن الآيـة نـزلت في ابن يـامين من علمـائهم حين شهـد وأسلم فكذبته اليهود ، والإشكال السابق على حاله .

وَوَصَّيْنَا آلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانَا حَمَلَتْهُ أَمُّهُ كُرُهاً وَوَضَعَتْهُ كُرُهاً وَخَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاتُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُر نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ فَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِيَّتِي إِنِي تُبْتُ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِيَّتِي إِنِي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِلَى فَي ذُرِيَّتِي إِنِي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولٰ يَكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولٰ يَكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولٰ يَكُ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمْلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّنَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي عَلَى اللهَ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أَخْرَجَ كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أَحْرَجَ كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنْ وَعْدَ إِنَّ وَعْدَ إِلَى اللّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ إِنَّ وَعْدَ إِنَ وَعُدَ إِنَ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ

اللهِ حَقَّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ آلْأُولِينَ (١٧) أُولَـٰئِكَ الَّـٰذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَم قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَآلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّـٰذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَذْهَبْتُمْ فَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّـٰذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَآسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَٱلْيَـوْمَ تُحْزَوْنَ عَـٰذَابَ وَلَيْسَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَآسْتَمْتُعْتُمْ بِهَا فَٱلْيَـوْمَ تُحْزَوْنَ عَـٰذَابَ اللَّهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي آلْأَرْضِ بِغَيْرِ آلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَشْتَكْبِرُونَ فِي آلْأَرْضِ بِغَيْرِ آلْحَقَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَشْتُكِبِرُونَ فِي آلْأَرْضِ بِغَيْرِ آلْحَقَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَشْتُونَ (٢٠) .

(بیان)

لما قسم الناس في قوله: ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ إلى ظالمين ومحسنين وأشير فيه إلى أن للظالمين ما يخاف ويحذر وللمحسنين ما يسر الإنسان ويبشر به عقب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه ، وأن الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له وهم الذين يتقبل أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وقوم خاسرين حقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس .

ومثّل الطائفة الأولى بمن كان مؤمناً بالله مسلماً له بارّاً بوالديه يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه وعلى والديه والعمل الصالح وإصلاح درّيته ، والطائفة الثانية بمن كان عاقاً لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر فيزجرهما ويعدّ ذلك من أساطير الأولين .

قوله تعالى : ﴿ووصيّنا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ إلى آخر الآية ، الوصيّة على ما ذكره الراغب هو التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ والتوصية تفعيل من الـوصية قال تعالى : ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ﴾(١) ، فمفعوله الثاني الذي يتعدى إليه بالبـاء من

⁽١) اليقرة : ١٣٢ .

سورة الأحقاف ـ آية ١٥

قبيل الأفعال، فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما وهـو الإحسان إليهما .

وعلى هذا فتقدير الكلام : ووصّينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحساناً .

وفي إعراب ﴿إحساناً﴾ أقوال أخر كقول بعضهم : إنه مفعول مطلق على تضمين ﴿وصينا﴾ معنى أحسنًا ، والتقدير : وصينا الإنسان محسنين إليهما إحساناً ، وقول بعضهم : إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاءً ذا إحسان ، وقول بعضهم : هو مفعول له ، والتقدير : وصيناه بهما لإحساننا إليهما ، إلى غيـر ذلك ممـا

وكيف كان فبر الوالدين والإحسان إليهما من الأحكام العامة المشرعة في جميع الشرائع كما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿قُـل تعالَـوا أَتَلَ مَـا حَرَّم ربكم عليكم أَن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ١٠٠٠ ، ولذلك قال : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ فعمَّمه لكل إنسان

ثم عقبه سبحانه بالإشبارة إلى ما قباسته امه في حمله ووضعه وفصاله إشعباراً بملاك الحكم وتهييجاً لعواطفه وإثارة لغريـزة رحمته ورأفتـه فقال: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرها وحمله وقصاله ثلاثون شهراً ﴾ أي حملته امه حملًا ذا كره أي مشقة وذلك لما في حمله من الثقل ، ووضعته وضعاً ذا كره وذلك لما عنده من ألم الطلق .

وأما قوله : ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ فقد أخذ فيه أقل مدة الحمل وهو ستة أشهر ، والحولان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهراً مدة الرضاع ، قال تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ (٢) ، وقال : ﴿وفصاله في عامين﴾ (٣) .

والفصال التفريق بين الصبي وبين الرضاع ، وجعل العامين ظرفاً للفصال بعنايــة أنه في آخر الرضاع ولا يتحقق إلا بانقضاء عامين .

وقوله : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان ، وقد مرُّ نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشــد في تفسير قــوله : ﴿ولِما بِلغِ أَشَدُّهِ آتِينَاهِ حَكُماً وعَلَماً ﴾ (١) ، وبلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل .

> (٣) لقمان : ١٤ . (١) الأنعام : ١٥١ .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

وقوله: ﴿قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه الإيزاع الإلهام ، وهذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾(١) ، بل هو إلهام عملي بمعنى البعث والدعوة الباطنية إلى فعل الخير وشكر النعمة وبالجملة العمل الصالح.

وقد أطلق النعمة التي سأل إلهام الشكر عليها فتعم النعم الظاهرية كالحياة والرزق والشعور والإرادة ، والباطنية كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوكل عليه والتفويض إليه ففي قوله : ﴿ رَبُّ أُورَعني أَنْ أَشْكَر نعمتك ﴾ النخ ، سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولاً وفعلاً : أما قولاً فظاهر ، وأما فعلاً فباستعمال هذه النعم استعمالاً يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه ولازمه ظهور العبودية والمملوكية من هذا الإنسان في قوله وفعله جميعاً .

وتفسير النعمة بقوله: ﴿ التي أنعمت عليّ وعلى والـديّ ﴾ يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمة ومن قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهمو لسان ذاكر لهما بعدهما .

وقوله: ﴿وَأَن أَعْمَلَ صَالَحًا تَرْضَاهُ عَطَفَ عَلَى قَوْلُه : ﴿أَنْ أَشْكُرُ ۗ الْخِ ، سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلي ظاهر الأعمال ، والصلاحية التي يرتضيها الله تعالى تحلّي باطنها وتخلّصها له تعالى .

وقوله: ﴿وأصلح لي في فريتي﴾ الإصلاح في الذرية إيجاد الصلاح فيهم وهو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح وينجر إلى إصلاح نفوسهم، وتقييد الإصلاح بقوله: ﴿لي﴾ للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذريته له في برّه وإحسانه كما كان هو لوالديه.

ومحصّل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته وصالح العمل وأن يكون بارًا محسناً بوالديه ويكون ذريته له كما كان هو لوالديه ، وقد تقدَّم(٢) غير مرَّة أن شكر نعمه تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصاً لله فيؤول معنى الدعاء إلى سؤال خلوص النفس وصلاح العمل .

⁽١) الشمس : ٨ .

⁽٢) تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران والآية ١٧ من سورة الأعراف .

وقوله : ﴿ إِنِّي تبت إليك و إِنِّي من المسلمين ﴾ أي الذين يسلمون الأمر لـك فلا تريد شيئاً إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت .

والجملة في مقام التعليل لما يتضمنه الدعاء من المطالب ، ويتبين بالآية حيث ذكر الدعاء ولم يردّه بل أيّده بما وعد في قوله : ﴿ أُولئك الذين نتقبّل عنهم ﴾ الخ ، أن التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالي بما يصير به العبد من المخلصين ـ بفتح اللام ـ ذاتاً والمخلصين ـ بكسر اللام ـ عملا أما إخلاص العبد من المخلصين ـ بلون صالحاً الذات فقد تقدمت الإشارة إليه آنفاً ، وأما إخلاص العمل فلأن العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً إليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم ، قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿أُولئك المذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ﴾ الخ ، التقبل أبلغ من القبول ، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنها هي المقبولة المتقبلة وأما المباحات فإنها وإن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة ، كذا ذكر في مجمع البيان وهو تفسير حسن ويؤيده مقابلة تقبّل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل : إن أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات وهي أحسن أعمالهم فنتقبلها وسيئات فنتجاوز عنها وما ليس بطاعة ولا حسنة فلا شأن له من قبول وغيره .

وقوله : ﴿ فَي أصحاب الجنة ﴾ متعلق بقوله : ﴿ نتجاوز ﴾ أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة ، فهو حال من ضمير ﴿عنهم ﴾ .

وقوله: ﴿ وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل ، أو المراد أنه ينجز لهم بهذا التقبل والتجاوزيوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا .

قوله تعالى: ﴿والذي قال لوالديه أَفَ لكما أتعدانني أَن أخرج وقد خلت القرون من قبلي﴾ لما ذكر الإنسان الذي تاب إلى الله وأسلم له وسأله الخلوص والإخلاص وبرّ والديه وإصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله ورسوله والمعاد ويعقّ والديه إذا دعواه إلى الإيمان وأنذراه بالمعاد.

^{ِ (}١) الزمر : ٣ ـ

فقوله: ﴿ وَالذِي قال لُوالدِيه أَنَّ لَكُما﴾ الظاهر أنه مبتدأ في معنى الجمع وخبره قوله بعد: ﴿ أُولئك الدِينِ ﴾ الخ ، و ﴿ أَفَّ ﴾ كلمة تبرُّم يقصد بها إظهار التسخط والتوجع و ﴿ أَتعدانني أن أُخرج ﴾ الاستفهام للتوبيخ ، والمعنى : أتعدانني أن أُخرج من قبري فاحيا وأحضر للحساب أي أتعدانني المعاد ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ أي والحال أنه هلكت أمم الماضون العائشون من قبلي ولم يُحي منهم أحد ولا بُعث .

وهذا على زعمهم حجة على نفي المعاد وتقريره أنه لو كان هناك إحياء وبعث لاحيى بعض من هلك إلى هذا الحين وهم فوق حد الإحصاء عدداً في أزمنة طويلة لا أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم ينتبهوا أن القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثاً وإحياء في الدنيا والذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياة الأخرة والقيام لنشأة اخرى غير الدنيا.

وقوله: ﴿وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق﴾ الاستغاثة طلب الغوث من الله أي والحال أن والديمه يطلبان من الله أن يغيثهما ويعينهما على إقامة الحجة واستمالته إلى الإيمان ويقولان له: ويلك آمن بالله وبما جاء به رسوله ومنه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما : ﴿آمن﴾ هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما جاء به من عند الله ، وقولهما : ﴿إن وعد الله حق﴾ المراد به المعاد ، وتعليل الأمر بالإيمان به لغرض الإنذار والتخويف .

وقوله: ﴿ وَفِيقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرِ الأُولِينِ ﴾ الإشارة بهذا إلى الوعد الذي ذكراه وأنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه إليه والمعنى: فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذي تنذرانني به أو ليس هذا الذي تدعوانني إليه إلا خرافات الأولين وهم الأمم الأولية الهمجية.

قوله تعالى : ﴿ أُولئك الذين حق عليهم القول﴾ الخ ، تقدم بعض الكلام فيه في تفسير الآية ٢٥ من سورة حم السجدة .

قوله تعالى : ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ إلى آخر الآية أي لكل من المذكورين وهم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل ومراتب مختلفة صعوداً وحدوراً فللجنة درجات وللنار دركات . سورة الأحقاف ـ آية ١٨ ـ ٢٠ ٢٠٠٠ ... ٢٠٩

ويعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك قال : ﴿لهم درجات مما عملوا﴾ فالدرجات لهم ومنشأها أعمالهم .

وقوله: ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ اللام للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات اخرى محذوفة لم يتعلق بذكرها غرض ، وإنما جعلت غاية لقوله: ﴿هم درجات﴾ لأنه في معنى وجعلناهم درجات ، والمعنى: جعلناهم درجات لكذا وكذا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

ومعنى تـوفيتهم أعمالهم إعـطاؤهم نفس أعمالهم فـالأية من الأيــات الدالــة على تجسم الأعمال ، وقيل : الكلام على تقدير مضاف والتقدير وليوفيهم أجور أعمالهم .

قوله تعالى : ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ النح ، عرض الماء على الدابة وللدابة وضعه بمرثى منها بحيث إن شاءت شربته ، وعرض المتاع على البيع وضعه موضعاً لا مانع من قوع البيع عليه .

وقوله : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ قيل : المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم : عرض فلان على السيف إذا قتل وهو مجاز شائع .

وفيه أن قوله في آخر السورة : ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هـذا بالحق قالوا بلى وربنا قـال فذوقـوا العذاب﴾ لا يـلائمه تلك الملاءمة حيث فـرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره .

وقيل: إن في الآية قلباً والأصل عـرض النار على الـذين كفروا لأن من الـواجب في تحقق معنى العرض أن يكون في المعروض عليه شعور بالمعروض والنار لا شعـور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس ففي الكلام قلب ، والمـراد عرض النـار على الذين كفروا .

ووجهه بعض المفسرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما في قولنا: عرضت الماء على الدابة وعرضت الطعام على الضيف، ولما كان الأمر في عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنهم هم المسيرون إلى النار فقلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار.

وفيه نظر أما ما ذكر من أن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور وإدراك بالمعروض حتى يرغب إليه أو يرغب عنه والنار لا شعور لها ففيه أولاً: أنه ممنوع كما

يؤيده قولهم : عـرضت المتاع على البيع ، وقوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال﴾(١) ، وثـانياً : أنّا لا نسلّم خلوّ نار الأخـرة عن الشعور ، ففي الأخبار الصحيحة أن للجنة والنار شعوراً ويشعر به قوله : ﴿يوم نقـول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد﴾(٦) ، وغيره من الآيات .

وأما ما قيل من أن المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فـلا نسلّم لـزومـه ولا اطـراده فهـو منقـوض بقـولـه : ﴿إِنَّا عــرضنا الأمــانـة على السمــاوات والأرض﴾(٣) .

على أن في كلامه تعالى ما يــدل على الإتيان بــالنار إلى الــذين كفروا كقــوله : ﴿وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾(١) .

فالحق أن العرض وهو إظهار عدم المانع من تلبس شيء بشيء معنى له نسية - إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلاً معروضاً عليه والآخر فرعاً معروضاً فتارة تؤخذ النار معروضة على الكافرين بعناية أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعة تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى : ﴿وعرضنا جهنم يومئذُ للكافرين عرضاً ﴾ (٥) ، وتارة يؤخذ الكفار معروضين للنار بعناية أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم ، كما في قوله : ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿يعرض الذين كفروا على النار ﴾ الآية .

وعلى هذا فالأشبه تحقق عرضين يوم القيامة : عرض جهنم للكافرين حين تبرز لهم ثم عرضهم على جهنم بعد الحساب والقضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها ، قال تعالى : ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ (٧) .

وقوله: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ على تقدير القول أي يقال لهم: ﴿أذهبتم﴾ الخ، والطيبات الأمور التي تـلائم النفس وتـوافق الـطبع ويستلذُّ بها الإنسان، وإذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانتفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيؤلها.

والمعنى : يقال لهم حين عرضهم على النار : أنفدتم الطيبات التي تلتـذون بها

الأحزاب: ٧٢. (٤) الفجر: ٢٣. (٧) الزمر: ٧١.

(٢) ق : ۳۰ . (٥) الكهف : ۲۰ .

(٣) الأحزاب : ٧٢ . (٦) المؤمن : ٣٦ .

في حياتكم الدنيا واستمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شيء تلتذون به في الأخرة .

وقوله: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بماكنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبماكنتم تفسقون﴾ تفريع على إذهابهم الطيبات ، وعذاب الهون العذاب الـذي فيه الهون والخزي .

والمعنى: فاليوم تجزون العذاب الذي فيه الهوان والخزي قبال استكباركم في الدنيا عن الحق وقبال فسقكم وتوليكم عن الطاعات، وهما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد وهو الاستكبار عن الحق والثاني متعلق بالعمل وهو الفسق.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال: رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر فسأل عنها أصحاب النبي فقال علي: لا رجم عليها ألا ترى أنه يقول: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، وقال: وفصاله في عامين، وكان الحمل ههنا ستة أشهر فتركها عمر. قال: ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر.

أقول : وروى القصة المفيد في الإرشاد .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأتاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ قال علي : أما سمعت الله تعالى يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهراً وقال : حولين كاملين فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ؟ .

فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا . عليَّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، وكان من قولها لاختها : لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره . قال : فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به . قال : فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه .

وفي التهذيب بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه قال : سأله أبي وأنا حاضر عن قول الله عز وجل : ﴿حتى إذا بلغ أشدّه﴾ قال : الاحتلام .

وفي الخصال عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله طلطة: إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن في أحدى وأربعين هو في النقصان، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع.

أقول: لا تخلو الرواية من إشعار بكون بلوغ الأشد مما يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام وهو غالباً في الست عشرة أول مرتبة منها والثلاث والثلاثين وهي بعد مضي ست عشرة اخرى المرتبة الثانية ، وقد تقدم في نظيرة الآية من سورة يـوسف بعض أخبار أخر .

واعلم أنه قد وردت في الآيـة أخبار تـطبقها على الحسين بن علي على على والادتـه لستة أشهر وهي من الجري .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردوية عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يبزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد المرحمن بن أبي بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده .

فقال مروان : ألست الـذي قال لـوالديـه : أَفَ لكما ؟ فقـال عبد الـرحمن : ألست ابن اللعين الذي لعن أباك رسول الله مشائد ؟

قال : وسمعتها عائشة فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت . نزلت في فلان بن فلان .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عبـاس في الذي قـال لوالـديه أُفّ لكمـا الآية ، قال : هذا ابن لأبي بكر .

أقول: وروي ذلك أيضاً عن قتادة والسدّي ، وقصة رواية مروان وتكذيب عائشة له مشهورة . قال في روح المعاني بعد رد رواية مروان: ووافق بعضهم كالسهيلي في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن ، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لا سيما من مروان فإن السرجل أسلم وكنان من أفاضل الصحابة وأبطالهم ، وكان له في الإسلام عناء يوم اليمامة وغيره ، والإسلام يجبّ ما قبله

سورة الأحقاف_ آية ٢١ ـ ٢٨٠٠٠ ...٠٠٠ ٢١٣

فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعيّر بما كان يقول . انتهى .

وفيه أن الروايات لو صحَّت لم يكن مناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله : ﴿ أُولئك الذين حقَّ عليهم القول﴾ إلى قوله ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ ولم ينفع شيء مما دافع عنه به .

وفي تفسيسر القمي في قولـه تعالى : ﴿ويــوم يعــرض الــذين كفـروا﴾ إلى قــولــه ﴿واستمتعتم بها﴾ قال : أكلتم وشــربتم وركبتم ، وهي في بني فلان ﴿فــاليوم تجــزون عذاب الهون﴾ قال : العطش .

وفي المحاسن بإسناده عن ابن القدَّاح عن أبي عبد الله عنه عن آبائه عليهم السلام قال: أتي النبي عبد الله عليهم السلام قال: أتي النبي عبد الله بخبيص (١) فأبى أن يأكله فقيل: أتحرَّمه ؟ فقال: لا ولكني أكره أن تتوق إليه نفسي ثم تلا الآية ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ .

وفي المجمع في الآية وقد روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال : استأذنت على رسول الله مسلمة فلاخلت عليه في مشربة أم إسراهيم وإنه لمضطجع على حفصة وإن بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبي وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرير الذهب وفرش الحرير والديباج! فقال رسول الله مسلمة : أولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع ، وإنما أخرت لنا طيباتنا .

أقول : ورواه في الدر المنثور بطرق عنه .

* * *

وَآذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا آلْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأَبَلَغُكُمْ مَا أَرْسِلْتُ بِهِ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا آلْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأَبَلَغُكُمْ مَا أَرْسِلْتُ بِهِ

⁽١) نوع من الحلواء .

وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ وَالْحَارِضُ مُمْطِرُنَا بَلْ هُو مَا آسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحُ فِيهَا عَذَابٌ وَالْمِ مَنْ أَلْكُمْ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي آلْقَوْمَ آلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُم كَذَٰلِكَ نَجْزِي آلْقَوْمَ آلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُم فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْتِدَةً فَمَا أَعْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَفْتِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْتُكُمْ مِنْ آلَيْهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْ زِوْنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ آلْقُرَىٰ وَصَرَقْهُمُ اللَّذِينَ اتَّخَذُوا وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلُوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا مِنْ أَدُونَ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ (٢٨) مَنْ أَنُوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ (٢٨) فَلُوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُمُ مَنِ آلَهُمْ كَانُوا عَنْهُمْ وَمَا كَانُوا مَنْ مُنَالِوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْتُونَ (٢٨) .

(بيان)

لما قسم الناس على قسمين وانتهى الكلام إلى الإنذار عقب ذلك بالإشارة إلى قصتين قصة قوم عاد وهلاكهم ومعها الإشارة إلى هلاك القرى التي حول مكة وقصة إيمان قوم من الجن صرفهم الله إلى النبي عمرته فاستمعوا القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين وإنما أورد القصتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم ، وهذه الأيات المنقولة تتضمن أولى القصتين .

قوله تعالى : ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ الخ ، أخو القوم هو المنسوب إليهم من جهة الأب ، والمراد بأخي عاد هود النبي عليه ، والأحقاف مسكن قوم عاد والمتيقن أنه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقياً منهم ، واختلفوا أين هو ؟ فقيل : واد بين عمان ومهرة ، وقيل رمال بين عمان إلى حضرموت ، وقيل : رمال مشرفة على البحر بالشّحر من أرض اليمن وقيل غير ذلك .

سورة الأحقاف ـ آية ٢١ ـ ٢٣

410

وقوله: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيده السياق ، وأما تعميم بعضهم النذر للرسل ونوابهم من العلماء ففي غير محله .

وفسروا ﴿من بين يديه ﴾ بالـذين كانـوا قبله و ﴿من خلفه ﴾ بـالذين جـاءوا بعده ويمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه ، ومن خلفه من كان قبله ، والأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه ومن خلفه أن يكـون كناية عن مجيئه إليهم وإنذاره لهم على فترة من الرسل .

وقوله: ﴿ أَنْ لَا تَعْبِدُوا إِلَا الله ﴾ تفسير لـ لإِنذار وفيـه إشارة إلى أن أسـاس دينـه الذي يرجع إليه تفاصيله هو التوحيد.

وقوله : ﴿إِنِي أَخَافَ عَلَيْكُمُ عَذَابِ يُومُ عَظَيْمٌ ﴾ تعليل لدعوتهم إلى التوحيد ، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يبدل على ذلك ما سيأتي من قولهم : ﴿فَائتنا بِمَا تَعَدَنا﴾ وقوله : ﴿بِلْ هُو مَا استعجلتُم به ﴾ والباقي ظاهر .

قوله تعالى: ﴿قالُوا أَجِئْتُنَا لِتَأْفَكُنَا عَنِ آلْهَتُنَا﴾ النّج ، جواب القوم لـه قبال إنذاره ، وقوله : ﴿لتَأْفَكُنَا عَنِ آلْهَتُنَا﴾ بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى : قالُوا أَجِئْتُنَا لِتَصَرَفْنَا عَنِ آلْهَتُنَا إِفْكًا وَافْتُرَاء .

وقوله : ﴿ فأتنا بِما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ أمر تعجيزي منهم له زعماً منهم أنه ما الله على الله عل

قوله تعالى : ﴿قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ النع ، جواب هود عن قولهم رداً عليهم ، فقوله : ﴿إنما العلم عند الله ﴾ قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنه من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه ، وهو كناية عن أنه على لا علم له بأنه ما هو ؟ ولا كيف هو ؟ ولا متى هو ؟ ولذلك عقبه بقوله : ﴿وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ أي إن الذي حمّلته وأرسلت به إليكم هو الذي أبلغكموه ولا علم لي بالعذاب الذي أمرت بإنذاركم به ما هو ؟ وكيف هو ؟ ومتى هو ؟ ولا قدرة لى عليه .

وقوله : ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه ، والمعنى : لا علم لي بما تستعجلون بـه من العذاب ولكني أراكم

قوماً تجهلون فلا تميّزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم حين تردون دعوة الله وتكذبون بآياته وتستهزؤن بما يوعدكم به من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ النخ ، صفة نزول العذاب إليهم بادىء ظهوره عليهم .

والعارض هو السحاب يعرض في الأفق ثم يبطبق السماء وهو صفة العذاب الذي يرجع إليه ضمير ورأوه المعلوم من السياق ، وقوله : ومستقبل أوديتهم صفة أخرى له ، والأودية جمع الوادي ، وقوله : وقالوا هذا عارض مصطرنا أي استبشروا ظناً منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا : هذا الذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا .

وقوله: ﴿ وَبِلُ هُو مَا استعجلتُم بِهُ رَبِحُ فَيَهَا عَذَابُ أَلَيْمٍ ﴾ رد لقولهم: ﴿ هَذَا عَارَضَ مَمَطُونًا ﴾ بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة فبيَّن أولاً على طريق التهكم أنه العذاب الذي استعجلتُم به حين قلتُم: ﴿ فأتنا بِمَا تَعَدَنا إِنْ كَنْتُ مِن الصَادِقِينَ ﴾ وزاد في البيان ثانياً بقوله: ﴿ وريح فيها عذاب أليم ﴾ .

والكلام من كلامه تعالى وقيل : هو كلام لهود النبي سَنْكُ .

قوله تعالى : ﴿تدمّر كل شيء بإذن ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين التدمير الإهلاك ، وتعلقه بكل شيء وإن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصصه بنحو الإنسان والدواب والأموال ، فالمعنى : إن تلك الربح ربح تهلك كل ما مرّت عليه من إنسان ودواب وأموال .

وقوله: ﴿ وَفَأَصِبِحُوا لَا يُرى إِلاَ مَسَاكِنَهُم ﴾ بيان لنتيجة نزول العذاب ، وقوله: ﴿ كَذَلَكُ نَجِزِي القوم المجرمين ﴾ إعظاء ضابط كلي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلي بالفرد الممثل به والتشبيه في الشدة أي إن سنتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الذي قصصناه من الشدة فهو كقوله تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ الـخ ، موعـظة لكفار مكـة مستنتجة من القصة .

والتمكين إقرار الشيء وإثباته في المكان ، وهـو كنـايـة عن إعـطاء القـدرة

⁽١) هود : ١٠٢ .

سورة الأحقاف ـ آية ٢٤ - ٢٦ ٢١٧

والاستطاعة في التصرف و دما، في دفيما، موصولة أو موصوفة و دان، نافية ، والمعنى : ولقد جعلنا قوم هود في الذي _ أو في شيء ـ ما مكناكم معشر كفار مكة ومن يتلوكم فيه من بسطة الأجسام وقوة الأبدان والبطش الشديد والقدرة القومية .

وقوله : ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أي جهّزناهم بما يدركون به ما ينفعهم مما يضرهم وهـو السمع والأبصار وما يميزون بـه ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع ولدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك .

وقوله : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم سَمِعُهُم وَلا أَبْصَارِهُم وَلا أَفْتُدَنَهُم مِن شَيْءَ إِذْ كَانُـوا يجحدون بآيات الله ﴾ ما في ﴿ فَمَا أَغْنَى ﴾ نافية لا استفهامية ، و ﴿ إِذَ الله متعلق بالنفي الذي في قوله : ﴿ فَمَا أَغْنَى ﴾ .

ومحصل المعنى: أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك وكان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره والإتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئاً عندما جحدوا آيات الله فما الذي يؤمّنكم من عذاب الله وأنتم جاحدون لآيات الله .

وقيل: معنى الآية: ولقد مكّناهم في الذي أو في شيء ما مكّناكم فيه من القوة والاستطاعة وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ليستعملوها فيما خلقت له ويسمعوا كلمة الحق ويشاهدوا آيات التوحيد ويعتبروا بالتفكر في العبر، ويستدلوا بالتعقل الصحيح على المبدأ والمعاد فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفة الله سبحانه، هذا ولعل الذي قدمناه من المعنى أنسب للسياق.

وقد جوَّزوا في مفردات الآية وجوهاً لم نوردها لعدم جدوى فيها .

وقد تقدم في نظائر قوله: ﴿ سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أن إفراد السمع - والمراد منه الجمع - لمكان مصدريته في الأصل نظير الضيف والقربان والجنب، قال تعالى: ﴿ وَضيف إبراهيم المكرمين ﴾ (١) ، وقال: ﴿ إذْ قرّبا قرباناً ﴾ (٢) ، وقال: ﴿ إِنْ كنتم جنباً ﴾ (٣) .

(٣) المائدة : ٦ .

⁽١) الذاريات : ٢٤ .

⁽٢) المائدة : ٢٧ .

وقـوله: ﴿وحاق بهم ما كانوا بـه يستهزؤن﴾ عـطف على قولـه: ﴿ما أغنى عنهم﴾ الخ .

قوله تعالى : ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ تذكرة إنذارية متفرعة على العيظة التي في قوله : ﴿ولقد مكّناهم﴾ الخ ، فهي معطوفة عليه على ما يفيده السياق لا على قوله : ﴿واذكر أخا عاد﴾ .

وقوله: ﴿وصرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ أي وصيّرنا الآيات المختلفة من معجزة أيّدنا بها الأنبياء ووحي أنزلناه عليهم ونِعَم رزقناهموها ليتذكروا بها ونقم ابتليناهم بها ليتوبوا وينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه إلى عبادته.

والضمير في ﴿لعلهم يرجعون﴾ راجع إلى القرى والمراد بها أهل القرى .

قوله تعالى : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ النج ، ظاهر السياق أن آلهة مفعول ثان لاتخذوا ومفعوله الأول هو الضمير الراجع إلى الموصول و «قرباناً» بمعنى ما يتقرب به ، والكلام مسوق للتهكم ، والمعنى : فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة حال كونهم متقرباً بهم إلى الله كما كانوا يقولون · ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ .

وقوله: ﴿ بِل ضلواعنهم ﴾ أي ضلَّ الآلهة عن أهل القرى وانقطعت رابطة الألوهية والعبودية التي كانوا يـزعمونهـا ويرجـون بذلـك أن ينصروهم عنـد الشدائـد والمكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم .

وقوله: ﴿وفلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ مبتدأ وخبر والإشارة إلى ضلال آلهتهم، والمراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف، و «ما» مصدرية، والمعنى: وذلك الضلال أثر إفكهم وافترائهم.

ويمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوّز والإشارة إلى إهلاكهم بعد تصريف الآيات وضلال آلهتهم عند ذلك ، ومحصل المعنى : أن هـذا الـذي ذكـرنـاه من عـاقبـة أمـرهم هـو حقيقـة زعمهم أن الآلهـة يشفعـون لهم ويقرّبونهم من الله زعمهم الذي أفكوه وافتروه ، والكلام مسوق للتهكم . سورة الأحقاف ـ آية ٢٩ ـ ٣٥١٠٠٠ ١٩٠

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَـوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابِاً أَنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ ٱلِيمِ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِـزِ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَـهُ مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَــاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِين (٣٢) أُولَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمُواتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتِيٰ بَلَىٰ إِنَّــهُ عَلَىٰ كَـلَ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّـذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّـار ٱلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَـالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَـا قَالَ فَـذُوقُوا ٱلْعَـذَابَ بِمَـا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْم مِنَ الرُّسُل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَ مَـا يُوعَـدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَـاعَةً مِنْ نَهَارِ بَلَاغَ فَهَلْ يُهْلَكَ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ (٣٥) .

(بیان)

هذه هي القصة الثانية عقبت بها قصة عاد ليعتبر بها قومه سنيان إن اعتبروا ، وفيه تقريع للقوم حيث كفروا به مسنيان وبكتابه النازل على لغتهم وهم يعلمون أنها آية معجزة وهم مع ذلك يماثلونه في النوعية البشرية وقد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إليه ورجعوا إلى قومهم منذرين .

قوله تعمالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستنعون القرآن﴾ إلى آخر الآية الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان ، والنفر على ما ذكره الراغب عدة من الرجمال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يبطلق على ما فوق

الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان وعلى الجن كما في الآية ﴿ويستمعـون القرآن﴾ صفة نفر ، والمعنى : واذكر إذ وجهنا إليك عدة من الجن يستمعون القرآن .

وقوله: ﴿ فلما حضروه قالوا انصتوا ﴾ ضمير وحضروه اللقرآن بما يلمح إليه من المعنى الحدثي والإنصات السكوت للاستماع أي فلما حضروا قراءة القرآن وتلاوته قالوا أي بعضهم لبعض: اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

وقوله: ﴿ فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ ضمير «قضي » للقرآن باعتبار قراءته وتلاوته ، والتولية الانصراف و «منذرين » حال من ضمير الجمع في «ولوا » أي فلما أتمت القراءة وفرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ﴾ الخ ، حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم ، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن ، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى الشين وكتابه ، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة .

وقوله: ﴿يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ أي يهدي من اتبعه إلى صراط الحق وإلى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل.

قوله تعالى : ﴿يَا قُومِنَا أَجِيبُوا دَاعِي اللهِ وَآمِنُوا بِه يَغْفُر لَكُم مِن دُنُوبِكُم وَيَجْرَكُم مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ المراد بداعي الله هو النبي المناهي قال تعالى : ﴿قُلْ هَـذُهُ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله على بصيرة ﴾(١) ، وقيل : المراد به ما سمعوه من القرآن وهـو بعيد .

والنظاهر أن دمن، في فويغفر لكم من ذنوبكم للتبعيض، والمراد مغفرة بعض الذنوب وهي التي اكتسبوها قبل الإيمان، قال تعالى: فوإن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف (٢).

وقيل: المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفورة بالتوبة والإيمان

⁽۱) يوسف : ۱۰۸ .

⁽٢) الأنفال : ٣٨ .

توبة وأما حقوق الناس فإنها غير مغفورة بالتوبة ، وردّ بأن الإسلام يجبّ ما قبله .

قوله تعالى: ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ﴾ النح ، أي ومن لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض برد دعوته وليس له من دون الله أولياء ينصرونه ويمدُّونه في ذلك ، والمحصل: أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه وليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلا ولا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله ، ولذلك أتم الكلام بقوله: ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أُولَم يَرُوا أَنَ اللهُ اللَّذِي خَلَقَ السَمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلَقُهُنَ بِقَادِرٍ ﴾ الخ ، الآية وما بعدها إلى آخر السورة متصلة بما تقدم من قوله تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم ﴾ الخ ، وفيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه السورة وهو المعاد والرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا إليه في البيان المتقدم .

والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة ، والعيّ العجز والتعب ، والأول أفصح على ما قبل ، والباء في «بقادر» زائدة لوقوعها موقعاً فيه شائبة حيّز النفي كأنه قبل : أليس الله بقادر .

والمعنى: أو لم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى ـ وهو تعالى مبدأ وجود كل شيء وحياته ـ بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير، وقد أوضحنا هذه الحجة فيما تقدم غير مرة.

قوله تعالى : ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هـذا بالحق﴾ إلى آخر الآية ، تـأييد للحجـة المذكـورة في الآية السـابقة بـالإخبار عمـا سيجري على منكري المعاديوم القيامة ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ إلى آخر الآية ، تفريع على حقية المعاد على ما دلت عليه الحجة العقلية وأخبر به الله سبحانه ونفى الريب عنه .

والمعنى : فاصبر على جحود هؤلاء الكفار وعدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر

الجزء السادس والعشرون

أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعـذاب فإنهم سيـلاقون اليـوم بما فيـه من العذاب وليس اليوم عنهم ببعيد وإن استبعدوه .

وقـوله : ﴿كَأَنُّهُم يُومُ يُرُونُ مَا يُـوعَدُونَ لَمْ يَلْبَشُوا إِلَّا سَاعَـةٌ مَنْ نَهَارَ ﴾ تبيين لقرب اليوم منهم ومن حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليـوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم وما هيّىء لهم فيـه من العذاب كــان حالهم حــال من لم يلبث في الأرض إلا ساعة من نهار.

وقوله : ﴿ بِلاغ فَهُلُ يَهُلُكُ إِلَّا الْقُومُ الْفَاسْقُونَ ﴾ أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوة فهل يهلك بهذا الـذي بلُّغه الله من الإهـلاك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن زيّ العبودية .

وقد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيَّه مِسْدَتُ أن يصبر كما صبر أولوا العزم من السرسل وفيه تلويح إلى أنه سُمُنَّ منهم فليصبر كصبرهم ، ومعنى العزم ههنا إما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾(١) ، وإما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوّح إليه قوله : ﴿ وَلَقَـدَ عَهِدُنَا إِلَى آدم مِن قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ (٢) ، وإما العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم والشريعة .

وعلى المعنى الثالث وهو الحق الـذي تذكـره روايات أئمـة أهل البيت عليهم السلام هم خمسة: نـوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد سِنَراتٍ وعليهم لقـوك تعالى : ﴿شرع لَكُم مَنَ الَّذِينَ مَا وَصَّى بِهُ نَوْحًا وَالَّذِي أُوحِينًا إِلَيْكُ وَمَا وَصَّينا بِـهُ إبراهيم وموسى وعيسى ﴿٣) ، وقد مرَّ تقريب معنى الآية .

وعن بعض المفسرين أن جميع الرسل أولوا العزم ، وقد أخذ ﴿من الرسل﴾ بياناً لأولى العزم في قوله : ﴿ أُولُوا العزم من الرسل ﴾ وعن بعضهم أنهم الرسل الثمانية عشـر المذكـورون في سورة الأنعـام (الآية ٨٣ ـ ٩٠) لأنـه تعالى قـال بعـد ذكرهم : ﴿فبهداهم اقتده﴾ .

وفيه أنه تعالى قال بعد عدّهم : ﴿ وَمِن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ ثم قال :

⁽١) الشورى : ٤٣ .

⁽٢) طه: ١١٥.

﴿ فبهداهم اقتده ﴾ ولم يقل ذلك بعد عدهم بلا فصل .

وعن بعضهم أنهم تسعة: نوح وإبراهيم والذبيح ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وداود وموسى وداود وعيسى ، وعن بعضهم أنهم سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ، وعن بعضهم أنهم ستة وهم اللذين أمروا بالقتال: نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان ، وذكر بعضهم أن الستة هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب ، وعن بعضهم أنهم خمسة وهم: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى ، وعن بعضهم أنهم أربعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وذكر بعضهم أن الأربعة هم نوح وإبراهيم وهود ومحمد شناه وعليهم أجمعين .

وهذه الأقوال بين ما لم يستدل عليه بشيء أصلاً وبين ما استدل عليه بما لا دلالة فيه ، ولذا أغمضنا عن نقلها ، وقد تقدم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في أولى العزم من الرسل فراجعه إن شئت .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ الآيات ، كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله مُشْرَاتُ خرج من مكة إلى سوق عكاظ ، ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجبه أحد ولم يجد أحداً يقبله ثم رجع إلى مكة .

فلما بلغ موضعاً يقال له : وادي مجنّة (١) تهجّد بالقرآن في جوف الليل فمرّ به نفر من الجن فلما سمعوا قرآءة رسول الله منتها استمعوا له فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض : وأنصتوا يعني اسكتوا وفلما قضي، أي فرغ رسول الله منتها من القرآن ﴿ ولّوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا ﴾ إلى آخر الآيات .

فجاءوا إلى رسول الله مَنْ أَنْ وأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله مَنْ أَنْ شرائع الإسلام فأنزل الله عز وجل على نبيه مَنْ أَنْ وقبل أُوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن الجن السورة كلها، فحكى الله قولهم وولَّى عليهم رسول الله مَنْ أَنْ منهم، وكانوا بعودون إلى رسول الله مَنْ أَنْ في كل وقت فأمر رسول الله مَنْ أَنْ أَمير المؤمنين مَنْ الله عَنْ الله مَنْ أَنْ أَنْ الله مَنْ الله عَنْ الله مَنْ الله عَنْ الله الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ اللهُ الله عَنْ الله الله عَنْ الله الله

⁽١) المجنة : محل الجن .

أن يعلمهم ويفقههم فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس ، وهم ولد الجان .

أقول: والروايات في قصة هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيرة مختلفة اختلافاً شديداً، ولا سبيل إلى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها ولذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمي وسيأتي نبذ منها في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى.

وفيه سئل العالم عَلَيْكُ عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة ؟ فقال : لا ، ولكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن وفساق الشيعة .

أقول: وروي مثله في بعض الروايات الموقوفة من طرق أهل السنة، ورواية القمي مرسلة كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنة وعمومات الكتاب تدل على عموم الثواب للمطيعين من الإنس والجن.

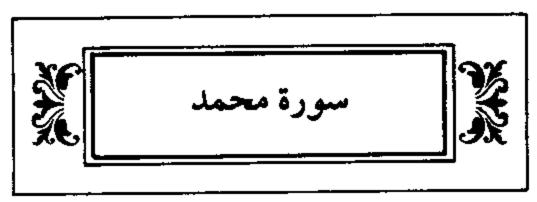
وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله على يقول: سادة النبيين والمرسلين خمسة: وهم أولو العزم من الرسل وعليهم دارت الرحى: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد على الله على جميع الأنبياء.

وفيه بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير عن أبي جعفر الله قال : قال رسول الله الله الله الله الله الله الله عن أدم ، وما من نبي مضى إلا وله وصي .

وكان جميع الأنبياء مائة ألف وعشرين ألف نبي : منهم خمسة أولوا العـزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد المناهيم وعليهم . الحديث .

أقول: كون أولي العزم خمسة مما استفاضت عليه الروايات عن أثمة أهل البيت عليهم السلام فهو مروي عن النبي مُؤلِقُ وعن الباقـر والصادق والـرضا عليهم السلام بطرق كثيرة.

وعن روضة الواعظين للمفيد: قيل للنبي المنافية: كم بين الدنيا والأخرة؟ قال: غمضة عين قال الله عز وجل: ﴿كَأَنْهُم يَـوم يُرُونُ مَا يُوعَـدُونَ لَم يَلَبُنُوا إِلاَّ سَاعَة مِن نَهَارُ بِلاغ﴾ الآية.



مدنية ، وهي ثمان وثلاثون آية

بِسُم ِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيم ِ

اللّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ وَاللّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُو الْحَقُّ مِنْ رَبّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّنَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذٰلِكَ بِانَّ الْذِينَ كَفَرُوا البَّعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبّهِمْ اللّذِينَ كَفَرُوا البَّعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ اللّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِذَا قَتِيمُ اللّهُ لاَنْتَصَرَ وَإِمَّا فِذَا عَتَىٰ اللّهُ لاَنْتَصَرَ وَإِمَّا فِذَا أَدُونَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لاَنْتَصَرَ وَإِمَّا فِذَا عَتَىٰ وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لاَنْتَصَرَ وَإِمَّا فَذَا أَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ مُنْهُمْ وَلُكِنْ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضَلّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْ دِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنّةُ مَرَّفَهَا لَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٢) .

(بیان)

تصف السورة الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيئة وتصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبة وأعمالهم الحسنة ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء

من النعمة والكرامة وصفات أولئك من النقمة والهوان وعلى الجملة فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم وأعمالهم في الدنيا وما يترتب عليها في الأخرى ، وفيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام .

وهي سورة مدنية على ما يشهد به سياق آياتها .

قوله تعالى: والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله وهو الإسلام كما عن بعضهم، وفسر بالمنع وهو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي مستملة يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

وثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية وخاصة ما يأمر المؤمنين بقتلهم وأسرهم وغيرهم .

فالمراد بالذين كفروا كفار مكة ومن تبعهم في كفرهم وقد كانوا يمنعون الناس عرف الناس عرف الناس عرف الناس عرف الناس عرف المسجد الحرام .

وقوله: ﴿أَصَل أعمالهم﴾ أي جعل أعمالهم ضالة لا تهتدي إلى مقاصدها التي قصدت بها وهي بالجملة إبطال الحق وإحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرر منه تعالى من قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾(١) ، وقد وعد سبحانه بإحياء الحق وإبطال الباطل كما في قوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون﴾(٢) .

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها وفسادها دون الـوصول إلى الغـاية ، وعـد ذلك ضلالًا من الاستعارة بالكناية .

قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم﴾ الخ ، ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالذين آمنوا الخ ، مطلق من آمن وعمل صالحاً فيكون قوله : ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ تقييداً احترازياً لا تأكيداً وذكراً لما تعلقت به العناية في الإيمان .

وقوله : ﴿وهو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة والضمير راجع إلى ما نزل .

⁽١) البقرة : ٢٦٤ .

⁽٢) الأنفال: ٨.

وقوله: ﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ قال في المجمع: البال الحال والشأن والبال القلب أيضاً يقال: خطر ببالي كذا، والبال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن. انتهى.

وقد قوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم وعملهم الصالح إلى غاية السعادة ، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعة من الوصول إلى السعادة ، ولذلك ضمّ تكفير السيئات إلى إصلاح البال .

والمعنى: ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة ، وأصلح حالهم في الدنيا والآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تقتضي إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوي ، وأما في الآخرة فلأنها عاقبة الحياة الدنيا وإذ كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى : ﴿والعاقبة للتقوى﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ الخ ، تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم .

وفي تقييد الحق بقوله: ﴿من ربهم﴾ إشارة إلى أن المنتسب إليه تعالى هو الحق ولا نسبة للباطل إليه ولذلك تولى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب إليه طريق الحق الذي اتبعوه، وأما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم وأما انتساب ضلالهم إليه في قوله: ﴿أَضِل أعمالهم﴾ فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحة سعيدة.

وفي الآية إشارة إلى أن الملاك كل الملاك في سعادة الإنسان وشقائه اتباع الحق واتباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحق إليه تعالى دون الباطل .

وقوله : ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبيّن لهم أوصافهم على ما هي عليه ، وفي الإتيان باسم الإشارة الموضوعة للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل .

⁽١) طه : ١٣٢ .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَقَيْتُم الذَّينَ كَفُرُوا فَضُرِبِ الرّقَابِ ﴾ إلى آخر الآية ، تفريع على ما تقدم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل : إذا كان المؤمنون أهل الحق والله ينعم عليهم بما ينعم والكفار أهل الباطل والله يضل أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا الكفار أن يقتلوهم ويأسروهم ليحيا الحق الذي عليه المؤمنون وتطهر الأرض من الباطل الذي عليه الكفار .

فقوله: ﴿ فَإِذَا لَقَيْتُم الذِّينَ كَفُرُوا فَضُرِبِ الرّقابِ ﴾ المراد باللقاء اللقاء في القتال وضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه ، والتقدير: فاضربوا الرقاب _ أي رقابهم _ ضرباً وضرب الرقبة كناية عن القتل بالسيف ، لأن أيسر القتل وأسرعه ضرب الرقبة به .

وقوله: ﴿حتى إذا أَنْحَنتموهم فَسُدُّوا الوثاق﴾ في المجمع: الإِنْحَان إكثار القتل وغلبة العدو وقهرهم ومنه أَنْحَنه المرض اشتدَّ عليه وأَنْحَنه الجراح. انتهى. وفي المفردات: وثقت به أثق ثقة سكنت إليه واعتمدت عليه، وأوثقته شددته، والوثاق بفتح الواو والوثاق بكسر الواو اسمان لما يوثق به الشيء. انتهى. و «حتى» غاية لضرب الرقاب، والمعنى: فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدّ الوثاق وإحكامه فالمراد بشد الوثاق الأسر فالآية في ترتب الأسر فيها على الانخان في معنى قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يئخن في الأرض﴾(١).

وقوله: وفاما مناً بعد وإما فداء أي فأسروهم ويتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم مناً بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم وإما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى.

وقوله : ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة التي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال .

وقد تبين بما تقدم من المعنى ما في قول بعضهم إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾(٢) ، لأن هذه السورة متأخرة نزولاً عن سورة الأنفال فتكون ناسخة لها .

⁽١) الأنفال: ٦٧.

⁽٢) الأنفال : ٦٧ .

وذلك لعدم التدافع بين الآيتين فآية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان والآيـة المبحوث عنها تأمر بالأسر بعد الإثخان .

وكذا ما قيل: إن قوله: ﴿ فشدوا الـوثاق﴾ النخ، منسوخ بآية السيف ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُ وَهُمُ ﴾ (١) ، وكأنه مبني على كون العام الـوارد بعـد الخاص ناسخاً لـه لا مخصصاً بـه والحقُّ خلافه وتمام البحث في الأصول ، وفي الآية أيضاً مباحث فقهية محلها علم الفقه .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك أي إن حكم الله هو ما ذكر في الآية .

وقوله : ﴿ ولو يشاء الله الانتصر منهم ﴾ الضمير للكفار أي ولو شاء الله الانتقام منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمركم بقتالهم .

وقوله: ﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ استدراك من مشيئة الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل والرجوع إلى الحق .

وقد ظهر بذلك أن قوله : ﴿ليبلو بعضكم ببعض﴾ تعليل للحكم المذكورة في الأية والخطاب في وبعضكم، لمجموع المؤمنين والكفار ووجه الخطاب إلى المؤمنين .

وقوله: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عام أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التي أتوا بها في سبيل الله .

وقيل: المراد بقوله: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ شهداء يوم أحد، وفيه أنه تخصيص من غير مخصّص والسياق سياق العموم.

قوله تعالى : ﴿ سيهديهم ويصلح بالهم﴾ الضمير للذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله إلى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة .

وإذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبُنَ الَّذِينَ قَتْلُوا فَي سَبِيلُ اللَّهُ

⁽١) التوبة : ٥ .

أمواتاً بل أحياء عند ربهم﴾(١) ، ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحيـاؤهم حياة يصلحـون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء .

وقال في المجمع: والوجه في تكرير قوله: ﴿بالهم﴾ أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا ، وبالثاني أنه يصلح حالهم في نعيم العقبى فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم . والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قدمناه أن قوله تعالى : ﴿ويصلح بالهم﴾ على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله : ﴿سيهديهم﴾ دون ما ذكره ، وقوله الآتي : ﴿ويدخلهم الجنة﴾ على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله : ﴿ويصلح بالهم﴾ دون ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ويدخلهم الجنة عرّفها لهم﴾ غاية هدايته لهم ، وقوله : ﴿عرفها لهم ﴾ حال من إدخاله إياهم الجنة أي سيدخلهم الجنة والحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدنيوي من طريق الوحي والنبوة وإما بالبشرى عند القبض أو في القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيده السياق من المعنى .

(بحث روائی)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي قال : سـورة محمد آيـة فينا وآيـة في بني أُميّة .

أقـول : وروى القمي في تفسيره عن أبيـه عن بعض أصحـابنـا عن أبي عبــد الله مل^{نــنن}ه مثله .

وفي المجمع في قوله: ﴿ فَإِذَا لَقَيْتُمَ اللَّذِينَ كَفُرُوا فَضُرِبِ الرَّقَابِ ﴾ النَّج ، المروي عن أثمة الهدى عليهم السلام: أن الأسارى ضربان: ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال والحرب قائمة فهؤلاء يكون الإمام مخيراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويتركهم حتى ينزفوا ، ولا يجوز المن ولا الفداء .

والضرب الآخر الذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها وانقضى القتال فالإمام مخير فيهم بين المن والفداء إما بالمال أو بالنفس وبين الاسترقاق وضرب الرقاب فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين .

⁽١) آل عمران : ١٦٩ .

أقول : وروى ما في معناه في الكافي عن أبي عبد الله عَلَيْكُم.

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : ﴿والذين قَتُلُو اللهِ عَالَى اللهِ وَالذين قَتُلُ مِن أَصِحَابِ النَّبِي عَلَى اللهِ فَلَن يَضِل أَعْمَالُهُم ﴾ قال : نـزل فيمن قتـل من أصحاب النبي النبي الله أحد .

أقول : قد عرفت أن الآية عامة ، وسياق الاستقبال في قوله: ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ الخ ، إنما يلائم العموم وكون الكلام مسوقاً لضرب القاعدة .

وقد روي أن قول تعالى : ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق﴾ ناسخ لقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ الآية ، وأيضاً أن قوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾ ناسخ لقوله : ﴿فَشَدُوا الْوِثَاقُ فَإِمَا مَناً بعد وإما فداء﴾ وقد عرفت فيما تقدم عدم استقامة النسخ .

يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُثَبَّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّهُ عَلَيْهِمْ الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلِيلَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلِيلَكَ إِنَّ اللّهَ مَوْلَى اللّهَ عَلَيْهِمْ اللّهُ عَلَيْهِمْ اللّهُ عَلَيْهِمْ اللّهَ عَلَيْهِمْ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَاللّهَ عَلَيْهِمْ وَاللّهَ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلَيْهِمْ اللّهُ عَلَيْهِمْ اللّهُ عَلَيْهِمْ (١٠) إِنَّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا آلْأَنْهَارُ وَالّذِينَ كَفُرُوا يَتَمَتّعُونَ وَيَاكُونَ كَمَا تَأْكُلُ آلْأَنْعَامُ وَالنّارُ مَثُوى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيْنُ مَنْ قَرْيَةٍ وَيَأَكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ آلْأَنْعَامُ وَالنّارُ مَثُوى لَهُمْ (١٢) وَكَأَينُ مَنْ قَرْيَةٍ هَيْ أَشُدُ قُونَ فَي اللّهَ عُمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءً عَمَلُوا لَهُمُ وَا أَفْهَارُ مَنْ فَي اللّهُ عُمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءً عَمَلِهِ اللّهُ مُ (١٣) أَفْمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّ مِنْ رَبّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءً عَمَلِهِ وَاتَمُوا أَهُواءَهُمْ (١٤) مَثَلُ آلْجَنّةِ الّتِي وُعِدَ آلْمُتَقُونَ فِيهَا أَنْهَارُ مِّنْ وَيَهَا أَنْهَارُ مِنْ وَيَهَا أَنْهَارُ مِنْ وَيَهَا أَنْهَارُ مِنْ وَيَهَا أَنْهَارُ مَنْ وَيَعَا أَنْهَارُ مَنْ وَيَهَا أَنْهَارُ مَنْ وَيَعَلَى اللّهُ وَعَمَلُهُ وَاعَهُمْ وَلَا أَنْهَارُ مَنْ وَيَهِا أَنْهَارُ مَنْ وَيَعَلَى الْهُمُ اللّهُ اللّهُ وَعَدَى اللّهُ مَا أَنْهُا لَا أَنْهَا لَا مُنْ اللّهُ ال

مَاءٍ غَيْرِ آسِنِ وَأَنْهَارُ مِّنْ لَبَنِ لَمْ يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارُ مِّنْ خَمْرٍ لَلَّهِ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارُ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفِّىً وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥).

(بیان)

الأيات جارية على السياق السابق.

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ آمنُوا إِنْ تَنْصَرُوا الله يَنْصَرُكُم وَيُثِبَ أَقَدَامُكُم ﴾ تحضيض لهم على الجهاد ووعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه وإعلاء لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظهروا نجدة وشجاعة .

والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم كإلقاء الرعب في قلوب الكفار وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم وربط جأش المؤمنين وتشجيعهم ، وعلى هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام وتخصيص تثبيت الأقدام ، وهو كناية عن التشجيع وتقوية القلوب ، لكونه من أظهر أفراد النصر .

قوله تعالى : ﴿والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين الله لقياس حالهم من حالهم .

والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه وبقاؤه عليه ويقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: «تعسأ لهم» أي تعسوا تعسأ وهو وما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾(١) ، ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾(١) ، ويمكن أن يكون إخباراً عن تعسهم وبطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطاً على وجهه .

⁽١) التوبة : ٣٠ .

⁽٢) عبس : ١٧ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنه فأحبط أعمالهم ﴾ المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه منظمة وأمر بإطاعتها والانقياد لها فكرهوها واستكبروا عن اتباعها .

والآية تعليل مضمون الآية السابقة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرْضُ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقَبَة اللَّهِ مِنْ فَهُم دُمَّرُ الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ التدمير الإهلاك ، يقال : دمَّر الله عليه أي أهلك ما يخصه من نفس وأهل ودار وعقار فدمَّر عليه أبلغ من دمَّره كما قيل ، وضمير «أمثالها» للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها بسابق الكلام .

والمراد بالكافرين الكافرون بالنبي مسنسة ، والمعنى : وللكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة ولا يحل بهم إلا مثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنما أوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحل بهم إلا مثل واحد لأنهم في معرض عقوبات كثيرة دنيوية وأخروية وإن كان لا يحل بهم إلا بعضها ، ويمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين ، والجملة من باب ضرب القاعدة .

قوله تعالى : وذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم الإشارة بذلك إلى ما تقدم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم ، ولا يصغى إلى ما قيل : إنه إشارة إلى ثبوتِ عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ، وكذا ما قيل : إنه إشارة إلى نصر المؤمنين ، وذلك لأن الآية متعرضة لحال الطائفتين : المؤمنين والكفار جميعاً .

والمولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفي فهو بمعنى الولي ولذلك يطلق على سيد العبد ومالكه لأن له ولاية التصرف في أمور عبده ، ويطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي أمور خلقه في صراط التكوين ويدبرها كيف يشاء ، قال تعالى : ﴿ وردُّوا إلى الله مولاهم ﴿ وسا لكم من دونه من وليّ ولا شفيع ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وردُّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ (٢) ، وهو تعالى مولى لأنه يلي تدبير أمور عباده في صراط السعادة فيهديهم

⁽١) السجدة : ٤ .

⁽٢) يونس : ٣٠ .

إلى سعادتهم والجنة ويوفقهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم ، والمولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين ، لأنهم هم الداخلون في حظيرة العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار .

وللمؤمنين مولى وولي هو الله سبحانه كما قال: ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ ، وقال : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ (١) ، وأما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾ (٢) ، ونفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال : ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ثم نفى ولايتهم مطلقاً تكويناً وتشريعاً مطلقاً فقال : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ إن الماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ (٤) .

فمعنى الآية : أن نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفار وإضلاله أعمالهم وعقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين ووليّهم ، وأن الكفار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجيهم من عقوبته .

وقد تبين بما تقدم ضعف ما قيل: إن المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك وإلا كان منافياً لقوله تعالى: ﴿وردُّوا إلى الله مولاهم الحق﴾(٥)، ووجه الضعف ظاهر.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ مقايسة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفار من حيث العاقبة والآخرة وهي أن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يقيمون في النار .

وقد أشير في الكلام إلى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلاً من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وإلى صفة الكفار بقوله: ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون

(۱) البقرة : ۲۵۷ .
 (۳) الشورى : ۹ .
 (٥) يونس : ۳۰ .

(٢) البقرة : ٢٥٧ . (٤) النجم : ٢٣ .

للحق حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلكوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الإنسانية ، وأما الكفار فبلا عناية لهم بإصابة الحق ولا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانية ، وإنما همُّهم بطنهم وفرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلا ذلك ولا غاية لهم وراءه .

فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكاً يريده منهم ربهم ويهديهم إليه ولذلك يدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأولئك أي الكفار ما لهم من ولي وإنما وكلوا إلى أنفسهم ولذلك كان مثواهم ومقامهم النار .

وإنما نسب دخول المؤمنين الجنات إلى الله نفسه دون إقامة الكفار في النار قضاء لحق الولاية المذكورة فله تعالى عناية خاصة بأوليائه ، وأما المنسلخون من ولايته فلا يبالى في أي واد هلكوا .

قوله تعالى : ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ قَرِيةَ هِيُ أَسْدَ قَوْهَ مِنْ قَرِيتَكُ التِي أَخْرِجَتُكُ أَهُلَكُنَاهُم » أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد : «أهلكناهم » الخرجته مَثِنَةٍ هي مكة .

وفي الآية تقوية لقلب النبي مستريد وتهديد لأهل مكة وتحقير لأمرهم أن الله أهلك قرى كثيرة كل منها أشد قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم .

قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيئة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكافر يدل على أن المراد بمن كان على بيئة من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بيئة من ربهم كونهم على دلالة بيئة من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه وهي الحجة البرهانية فهم إنما يتبعون الحجة القاطعة على ما هو الحري بالإنسان الذي من شأنه أن يستعمل العقل ويتبع الحق .

وأما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئة التي زينها لهم الشيطان وتعلقت بها أهواؤهم وعملوا السيئات ، فكم بين الفريقين من فرق .

قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ إلى آخر الآية يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما وهو في الحقيقة توضيح ما مر في قوله: ﴿إِنَّ الله يدخــل

الذين آمنوا﴾ الخ من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية .

فقوله: ﴿ وَمثل الجنة التي وعد المتقون﴾ المثل بمعنى الصفة - كما قيل - أي صفة الجنة التي وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها ، وربما حمل المثل على معناه المعروف واستفيد منه أن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدها اللفظ وإنما تقرب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوح إليه قوله تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ (١).

وقد بدل قوله في الآية السابقة : ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في هذه الآية من قوله : ﴿المتقون﴾ تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به وعمل الصالحات من الأعمال .

وقوله: ﴿ وَفِيها أَنهار من ماء غير آسن ﴾ أي غير متغير بطول المقام ، وقوله: ﴿ وَأَنهار من خمر لذة ﴿ وَأَنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ كما في ألبان الدنيا ، وقوله: ﴿ وَأَنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي لذيذة للشاربين ، واللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر ، وإما مصدر وصفت به الخمر مبالغة ، وإما بتقدير مضاف أي ذات لذة ، وقوله: ﴿ وَأَنهار من عسل مصفى ﴾ أي خالص من الشمع والرغوة والقذى وسائر ما في عسل الدنيا من الأذى والعيوب ، وقوله: ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ جمع للتعميم .

وقوله : ﴿ومغفرة من ربهم﴾ ينمحي بها عنهم كل ذنب وسيئة فبلا تتكدر عيشتهم بمكدر ولا ينتغص بمنغص ، وفي التعبير عنه تعالى بربهم إشارة إلى غشيان الرحمة وشمول الحنان والرأفة الإلهية .

وقوله: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل الجنة التي هذا مثلها كمن هو خالد في النار وشرابهم الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم وما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه ، وإنما يسقونه وهم مكرهون كما في قوله: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ ، وقيل: قوله: ﴿كمن هو خالد﴾ الخ ، بيان لقوله في الآية السابقة: ﴿كمن زين﴾ الخ ، وهو كما ترى .

⁽١) السجدة : ١٧ .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿ ذَلَكَ بَأَنَهُم كَرَهُوا مَا أَنْزُلُ الله ﴾ قَـالُ أَبُو جَعَفُـرُ وَاللَّهُ اللَّهُ فِي حَقّ عَلَى مَالِنَكُمْ .

وفيه في قول تعالى : ﴿كمن زيَّن لـه سوء عمله﴾ قيـل : هم المنافقـون وهو المروي عن أبي جعفر علينانية .

أقول : ويحتمل أن تكون الروايتان من الجري .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم﴾ قال : ليس من هو في هذه النار كما أن ليس عدوّ الله كوليّه .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا آلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولِئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَآتَبَاهُمْ وَقَالًا عَنَى لَهُمْ إِذَا جَاءَتُهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَّهَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهُمْ بَعْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشُواطُهَا فَأَنِى لَهُمْ إِذَا جَاءَتُهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَآسْتَغْفِرُ لِلذَّنِ لَهُمْ إِذَا جَاءَتُهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَآسْتَغْفِرُ لَهُمْ (١٩) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِلَتْ سُورَةً فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةً فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةً فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةً مَا وَقُولُ مَنْ وَآلُونَ وَاللّهُ يَعْلَمُ مُرَضً يَنْظُرُونَ وَمَثُولُونَ فَعَرْوَلُكُمْ وَقُولُ اللّهُ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَمْرُوفُ فَإِذَا عَزَمَ آلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَولِيَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي آلْأَرْضِ وَتُقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَولِيَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي آلْأَرْضِ وَتُقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)

أُولٰئِكَ الَّـٰذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَـاأَصَمُّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَـارَهُمْ (٢٣) أَفَــلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَـا (٢٤) ۚ إِنَّ الَّذِينَ ٱرْتَـدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَـوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَائِكَـةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ آتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكُرهُوا رِضُوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّـذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّ رَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَ انَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَارَيْنَاكَهُمْ فَلَعَـرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِي لَحْن ٱلْقَـوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالُكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقَـوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ (٣٢) .

(بیان)

الأيات جارية على السياق السابق ، وفيها تعـرّض لحال الـذين في قلوبهم مرض والمنافقين ومن ارتدَّ بعد إيمانه .

قوله تعالى : ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذينِ أُوتوا العلم ماذا قال آنفاً الخ ، آنفاً اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولاً فيه ، ومعناه الساعة التي قبيل ساعتك ، وقيل : معناه هذه الساعة وهو على أي حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحة .

وقوله : ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ الضمير للذين كفروا ، والمراد باستماعهم

سورة محمد ـ آية ١٦ - ١٧ ٢٣٩

إلى النبي مُشِنَّةً إصغاؤهم إلى ما يتلوه من القرآن وما يبيّن لهم من أصول المعارف وشرائع الدين .

وقبوله : ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك﴾ الضمير للموصول وجمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده في «يستمع» باعتبار اللفظ .

وقوله: ﴿قَالُوا لَلَذَينَ أُوتُوا العلم ماذا قَالَ آنفاً﴾ المراد بالـذين أُوتُوا العلم العلم العلماء بالله من الصحابة، والضمير في ﴿ماذا قال﴾ للنبي المناه .

والاستفهام في قولهم: ﴿ماذا قال آنفاً ﴾ قيل: للاستعلام حقيقة لأن استغراقهم في الكبر والغرور واتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾(١) ، وقيل: للاستهزاء ، وقيل: للاستهزاء ، وقيل: للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصل ، ولكل من المعاني الثلاثة وجه .

وقوله: ﴿ أُولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ تعريف لهم ، وقوله: ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير ، ويتحصل منه أن اتباع الأهواء أمارة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينية والحقائق الإلهية .

قوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ المقابلة الظاهرة بين الآية وبين الآية السابقة يعطي أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب وهو التسليم لما تهدي إليه الفطرة السليمة واتباع الحق ، وزيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجة إيمانهم ، وقد تقدم أن الهدى والإيمان ذو مراتب مختلفة ، والمراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن ارتكاب المعاصي .

وبذلك يظهر أن زيادة الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحية العلم وإيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العلم وإيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العمل ، ويظهر أيضاً بالمقابلة أن الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم واتباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح وحرمانهم منه وهذا لا ينافي ما قدمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبة إلى الطبع على القلوب .

⁽١) النساء : ٧٨ .

قوله تعالى : ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ الخ ، النظر هو الانتظار ، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة ، والأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامة تحقق الشيء فأشراط الساعة علاماتها الدالة عليها .

وسياق الآية سياق التهكم كأنهم واقفون موقفاً عليهم إما أن يتبعبوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم ، وإما أن ينتظروا الساعة حتى إذا أيقنوا بوقوعها وأشرفوا عليها تذكروا وآمنوا واتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجة أو بموعظة أو عبرة ، وأما انتظارهم مجيء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء بغتة ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكرى وإذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى : ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾(١).

مضافاً إلى أن أشراطها وعلاماتها قد جاءت وتحققت ، ولعل المراد بأشراطها خلق الإنسان وانقسام نوعه إلى صلحاء ومفسدين ومتقين وفجّار المستدعي للحكم الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان الساعة ، وقيل : المراد بأشراط الساعة ظهور النبي مَشِرَكُ وهو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية من المعنى وهي ـكما تـرى ـ حجة بـرهانيـة في عين أنها مسوقة سوق التهكم .

وعليه فقوله: ﴿ وَبَعْتَةَ ﴾ حال من الإِتيان جيء به لبيان الواقع وليتفرع عليه قوله الآتي: ﴿ فَأَنَى لَهُمَ إِذَا جَاءَتُهُم ذَكَرَاهُم ﴾ وليس قيداً لـلانتظار حتى يفيـد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغتة ، ولدفع هذا التوهم قيـل: ﴿ إِلاَ الساعة أَن تَأْتِيهُم بِعْتَة ﴾ ولم يقل: إلا أَن تَأْتِيهُم الساعة بغتة .

وقوله : ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أنى خبر مقدم و «ذكراهم» مبتدأ مؤخر و «إذا جاءتهم» معترضة بينهما ، والمعنى : فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا

⁽١) الفجر : ٢٤ .

جاءتهم ؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الذي يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء .

وللقوم في معنى جمل الآية ومعناها بالجملة أقـوال مختلفة تـركنا إيـرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصلة .

قوله تعالى: ﴿ فَاعِلْمُ أَنْهُ لا إِلَّهُ وَاسْتَغَفَّرُ لَلَانِبُ كَالُمُ وَلَلْمُومَنِينَ وَالْمُؤْمَنِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَشَقَاوَةُ الْكَفَارِ كَأَنَهُ قِيلً : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم .

ويمكن أن يكون تفريعاً على ما بينه في الآيتين السابقتين أعني قوله ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ إلى قوله ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين ويتركهم وذنوبهم ويعكس الأمر في الذين اهتدوا إلى توحيده والإيمان به فكأنه قيل: إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانية الإله واطلب مغفرة ذنبك ومغفرة أمتك من المؤمنين بك والمؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه ويحرمه التقوى بتركه وذنوبه ، ويؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية : ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ .

فقوله : ﴿ فَاعلم أنه لا إِلَه إِلا الله ﴾ معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إِله إلا الله ، وقوله : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه مَشْنَاتُ وسيأتي أيضاً في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى .

وقوله: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ أمر بطلب المغفرة للأمة من المؤمنين والمؤمنات وحاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار ولا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء ولا يقابله بالاستجابة .

وقوله: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ تعليل لما في صدر الآية: ﴿فاعلم أنه ﴾ النح ، والظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال ، وكذلك المثوى بمعنى الاستقرار والسكون ، والمراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير وثابت وحركة وسكون فاثبتوا على توحيده واطلبوا مغفرته ، واحذروا أن يطبع

٢٤٢ ١٤٠٠ الجزء السادس والعشرون

على قلوبكم ويترككم وأهواءكم .

وقيل : المراد بالمتقلب والمثوى التصرف في الحياة الدنيا والاستقرار في الأخرة وقيل : المتقلب هو التقلب من الأصلاب إلى الأرحام والمثوى السكون في الأرض .

وقيل: المتقلب التصرف في اليقظة والمثوى المنام، وقيل: المتقلب التصرف في المتقلب التصرف في المعايش والمكاسب والمثوى الاستقرار في المنازل، وما قدمناه أظهر وأعم.

قوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لمولا أنزلت سورة ﴾ إلى آخر الآية ، لولا تحضيضية أي هلا أنزلت سورة يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم بتكاليف جديدة يمتثلونها ، والمراد بالسورة المحكمة المبيّنة التي لا تشابه فيها ، والمراد بذكر القتال الأمر به .

والمراد بالذين في قلوبهم مرض ، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا ، ولا يعم الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهلة غير اللائقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين : ﴿أَلُم تَر إلَى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾(١) .

والمغشي عليه من الموت هو المحتضر ، يقال : غشيه غشاوة إذا ستره وغطّاه وغشي على فلان ـ بالبناء ـ للمفعول ـ إذا نابه ما غشي فهمه ، ونظر المغشي عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يطرف .

وقوله: ﴿فَأُولَى لَهُم﴾ لَعَلَهُ خَبَرُ لَمَبَتَدَأً مَحَذُوفَ ، والتقدير: أُولَى لَهُم ذَلَـكُ أِي حَرَيِّ بَهُم أَنْ يَنْظُرُوا كَـذَلَـكُ أَي إِنْ يَحْتَضَـرُوا فَيْمُـوتَــوا ، وعن الأصمعي أَنْ قُولُهُم : ﴿أُولَى لَكُ ﴾ كلمة تهديد معناه وليك وقارنك ما تكره ، والآية نظيرة قـوله تعالى : ﴿أُولَى لَكُ فَأُولَى لُكُ فَأُولَى ﴾(٢) .

⁽١) النساء: ٧٧ .

⁽٢) القيامة : ٣٥ .

ومعنى الآية : ويقول الذين آمنوا هلا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها وأمروا فيها بالقتال والجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ عزم الأمرأي جد وتنجز .

وقوله: ﴿طاعة وقول معروف﴾ كأنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير أمرنا ـ أو أمرهم وشأنهم ـ أي إيمانهم بنا طاعة واثقونا عليها وقول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: ﴿أَمَنَ الرسول بما أَنزلُ إِلَيهُ مِنْ رَبِهُ وَالْمؤمنون﴾ إلى أن قال ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾(١) .

وعلى هذا يتصل قوله بعده: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرِ فَلُو صَدَقُوا الله لَكَانَ خَيْراً لَهُم ﴾ بما قبله اتصالاً بينا ، والمعنى : أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعنا وأطعنا فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا وأطاعوه فيما يأمر به ومنه أمر القتال لكان خيراً لهم .

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿طاعة﴾ النح ، خبراً لضمير عائد إلى القتال المذكور والتقدير القتال المذكور في السورة طاعة منهم وقول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم وأطاعوه به لكان خيراً لهم . أما كونه طاعة منهم فظاهر ، وأما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء .

وقيل: إن قوله: ﴿طاعة﴾ النح، مبتدأ الخبر والتقدير طاعة وقول معروف خير لهم وأمثل، وقيل: مبتدأ خبره ﴿فأولى لهم﴾ في الآية السابقة فالآية من تمام الآية السابقة، وهو قول ردي، وأردء منه ما قيل: إن ﴿طاعة﴾ النح، صفة لسورة في قوله: ﴿فإذا أنزلت سورة﴾ وقيل غير ذلك.

قوله تعالى : ﴿فهل عسيتم إن تسوليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل

⁽١) البقرة : ٢٨٥ .

الله ، وقد التفت إليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع ، والاستفهام للتقرير ، والاستفهام للتقرير ، والتولي الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك ورفض الدين .

والمعنى: فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض تكالباً على جيفة الدنيا أي إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك.

وقد ظهر بذلك أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُم﴾ ولذا صدّر بالفاء .

وقيل: المراد بالتولي التصدّي للحكم والولاية ، والمعنى: هل يتـوقع منكم إن جُعلتم ولاة أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدمـاء الحرام وأخـذ الرشاء والجور في الحكم هذا ، وهو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى: ﴿ أُولئك اللّذِينَ لَعَنهُم اللّهُ فَأَصَمّهُم وأَعَمَى أَبِصَارِهُم ﴾ الإشارة إلى المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام وقد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمّهم وأذهب بسمعهم فلا يسمعون القول الحق وأعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحق فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبِرُونَ القرآنَ أَمْ عَلَى قَلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ الاستفهام للتوبيخ وضمير الجمع راجع إلى المذكورين في الآية السابقة ، وتنكير «قلوب» كما قيـل للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء وأمثالهم .

قال في مجمع البيان : وفي هذا دلالـة على بطلان قـول من قال : لا يجـوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع . انتهى .

قوله تعالى : وإن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال وهو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ ، والتسويل تزيين ما تحرض النفس عليه وتصوير القبيح لها في صورة الحسن ، والمراد بالإملاء الإمداد أو تطويل الأمال .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾ الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان وإملائه وبالجملة تسلطه عليهم ، والمراد وبالذين كرهوا ما نزّل الله هم الذين كفروا كما تقدم في قوله : ﴿ واللذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ (١) .

وقوله: ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ مقول قولهم ووعد منهم للكفار بالطاعة وهـو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحـو الإجمال كـلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الأمور لكـونه على خـطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسر إلى من يعده أنه سيطيعه في بعض الأمر وفيما تيسر له ذلك ثم يكتم ذلك ويقعد متربصاً للدوائر.

ويستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوماً من المنافقين أسرّوا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم ووعدهم الـطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلـك ، ويؤيد ذلـك قولـه تعالى بعد : ﴿وَالله يعلم إسرارهم﴾ .

واختلفوا في هؤلاء من هم ؟ فقيل: هم اليهود قالوا للمنافقين: إن أعلنتم الكفر نصرناكم ، وقيل: هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين. ويرد على الوجهين جميعاً أن موضوع الكلام في الآية المرتدّون بعد إيمانهم واليهود لم يؤمنوا حتى يرتدّوا.

وقيل: هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى: ﴿ أَلَم تَرَ إِلَى الذِّينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لَإِخْـوانَهُمُ الذِّينَ كَفَـرُوا مِن أَهُلُ الكتَّابُ لئن أُخْرِجَتُم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم ﴾ (٢).

وفيه أن الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله مسلمات بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم .

⁽۱) محمد : ۹ .

⁽٢) الحشر : ١١ .

قوله تعالى : ﴿فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ متفرع على ما قبله ، والمعنى : هذا حالهم اليوم يرتدُّون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاؤون فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِنَانِهُمُ اتبعُوا مِنَا أَسْخُطُ اللهُ وَكُرُهُوا رَضُوانَهُ فَأَحْبُطُ أَعْمَالُهُم ﴾ النظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس وتسويلات الشيطان المستتبعة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى : ﴿ وَاتبعُوا أَهُواءُهُم ﴾ ، وقال : ﴿ الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم ﴾ .

والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعلية والمراد بهما العقاب والثواب .

والإشارة في قوله : ﴿ذلك﴾ إلى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عنـد تـوفيهم أي سبب عقـابهم أن أعمـالهم حـابـطة لاتبـاعهم مـا أسخط الله وكراهتهم رضوانه ، وإذ لا عمل لهم صالحاً يشقون بالعذاب .

قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ قال الراغب: الضغن - بكسر الضاد - والضغن - بضمها - الحقد الشديد وجمعه أضغان انتهى . والمراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان ولعلهم الذين آمنوا أولاً على ضعف في إيمانهم ثم مالوا إلى النفاق وارتدوا بعد الإيمان ، فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوماً ممن آمن بالنبي ومناهم كانوا على هذه الصفة كما أن قوماً منهم آخرين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم ، وعلى هذا فعدهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظة بادىء أمرهم .

والمعنى : بل ظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مـرض أن لن يخرج الله ولن يظهر أحقادهم للدين وأهله .

قوله تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾ السيماء العلامة ، والمعنى : ولو نشاء لأريناك أولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها .

وقوله : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ قال الراغب : اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه : إما بـإزالة الإعـراب أو التصحيف وهو المـذموم ، وذلـك أكثر

استعمالًا ، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه إلى تعريض وفحوى ، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة . انتهى .

فالمعنى : ولتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض ، وفي جعل لحن القول ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازية .

وقوله: ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ أي يعلم حقائقها وأنها من أي القصود والنيّات صدرت فيجازي المؤمنين بصالح أعمالهم وغيرهم بغيرها ، ففيه وعد للمؤمنين ووعيد لغيرهم .

قول تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار ، والآية بيان علم كتابة القتال على المؤمنين ، وهو الاختبار الإلهي ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الإلهية .

وقوله: ﴿ونبلو أخباركم ﴾ كأن المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم ، واختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحة الخيرة وقد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك ، وبنظر أدق هو علم فعلى له تعالى خارج عن الذات .

قوله تعالى: ﴿إِن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقُوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضرّوا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ﴾ المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكة ومن يلحق بهم لأنهم الذين صدّوا عن سبيل الله وشاقًوا الرسول وعادوه أشد المعاداة بعد ما تبين لهم الهدى .

وقوله: ﴿ وَلَن يَضَرُّوا الله شيئاً ﴾ لأن كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلا إلى نفسه ولا يضر إلا إياه ، وقوله: ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ أي مساعيهم لهدم أساس الدين وما عملوه لإطفاء نور الله ، وقيل: المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يشابون في الآخرة على شيء من أعمالهم ، والمعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطييب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيده الأيات التالية .

(بحث روائي)

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمـذي عن أنس قال : قـال رسول الله مسنزة : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى .

أقـول : وروي هذا اللفظ عنـه ﴿مِزْكَ بطرق أُخـرى عن أبي هريـرة وسهل بن مسعود .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله مسترات يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها .

إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفاة العراة رعاء الشاء رؤوس النـاس فذاك من أشــراطهــا ، وإذا تــطاول رعــاء الغنم في البنيــان فــذاك من أشراطها .

وفي العلل بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي مُشَرِّكُ في حديث طويـل يقول فيه لعبد الله بن سلام وقد سأله عن مسائل : أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

أقول: ولعل المراد به غير ظاهره ، والأخبار في أشراط الساعة من طرق الشيعة وأهل السنة فوق حد الإحصاء ، وقد مرت في آخر الجزء الخامس من الكتاب رواية سلمان عن النبي مشرك ورواية حمران عن الصادق منافخ وهما روايتان جامعتان في الباب .

وفي المجمع قد صح الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال : كنت رجلًا ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله إني لأخشى أن يدخلني لساني النار فقال رسول الله مسلمات : فأين أنت من الاستغفار ؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن الأغر المنزني قال : قال رسول الله سِلْمَاتُهِ : إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة .

وفيه في قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن تنوليتم ﴾ الآية أخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله من السان المرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول : اللهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني .

أقول : والروايات فيها وفي صلتها وقطعها كثيرة ، وقد مر شطر منها في تفسير أول سورة النساء .

وفي المجمع في قول تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقَرَآنَ ﴾ الآية أفلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن عمارة قال : سألت الصادق جعفر بن محمد على الله عز وجل هل له رضى محمد على فقلت له : يا ابن رسول الله أخبرني عن الله عز وجل هل له رضى وسخط ؟ قال : نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه .

وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ الآية ، عن أبي سعيد الخدري قال: كنا نعرف سعيد الخدري قال: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله مسلمة ببغضهم على بن أبي طالب.

قال في المجمع : وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري .

وقال : وعن عبادة بن الصامت قال : كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشدة .

وفي المدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قبال : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله سَلَمَاهِ إلا ببغض علي بن أبي طالب .

وفي أمالي الطوسي بإسناده إلى على طلنه أنه قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتبابه ، قلت : المسرء مخبو تحت لسبانه فبإذا تكلم ظهر ، فأنزل الله : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالُكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارُ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيوةُ اللّهُ نَيْ لَكُمْ لَعِبُ وَلَهْ وَإِنْ تُؤْمِنُ وا وَتَدَّقُ وا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلاَ يَسْئَلُكُمُ لَعِبُ وَلَهْ مَعَكُمْ وَإِنْ تُؤْمِنُ وا وَتَدَّقُ وا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلاَ يَسْئَلُكُمُ أَعْمَالَكُمْ أَجُورِكُمْ وَلاَ يَسْئَلُكُمُ وَهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَوُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هُؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلُ فَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالُكُمْ (٣٨) .

(بیان)

لما وصف حال الكفار وأضاف إليه وصف حال الذين في قلوبهم مرض وتشاقلهم في أمر القتال وحال من ارتبد منهم بعد ، رجع يحذّر المؤمنين أن يكونوا أمشالهم فيفاوضوا المشركين ويميلوا إليهم فيتبعوا ما أسخط الله ويكرهوا رضوانه فيبطل أعمالهم بالحبط ، وفي الآيات موعظة لهم بالترغيب والترهيب والتطميع والتخويف ، وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا اللَّذِينَ آمَنُوا أَطِعُوا اللَّهُ وأَطِعُوا الرَّسُولُ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ الآية وإن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقة في معناها حتى استدلّ الفقهاء بقوله فيها : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ على حرمة إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرضة لأمر القتال ، وكذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق وخاصة ما في ظاهر قوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ النخ ، من التفريع ، وبالجملة التعليل وما في قوله : ﴿ ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ النخ ، من التفريع ، وبالجملة الآية بالنظر إلى سياقها تدلّ على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب وشرّع من الحكم وإيجاب طاعة الرسول فيما بلّغ عن الله سبحانه ، وفيما يُصدر من الأمر من المرس من الحكم وإيجاب طاعة الرسول فيما بلّغ عن الله سبحانه ، وفيما يُصدر من الأمر من

حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني ، وعلى تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به أولئك الضعفاء الإيمان المائلون إلى النفاق الذين انجرَّ أمر بعضهم أن ارتدوا بعد ما تبين لهم الهدى .

فالمراد بحسب المورد من طاعة الله طاعته فيما شرّع وأنزل من حكم القتـال ، ومن طاعة الرسول طاعته فيما بلّغ منه وفيما أمر به منه ومن مقدماته بما له من الولاية فيه وبإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون وأهل الردّة .

وقيل: المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنهم على الله ورسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى: ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكُ أَنْ أَسَلَمُوا ﴾ ، وقيل: إبطالها بالرياء والسمعة ، وقيل: بالعجب ، وقيل: بالكفر والنفاق ، وقيل: المراد إبطال الصدقات بالمنّ والأذى كما قال: ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ (١) ، وقيل: إبطالها بالمعاصي ، وقيل: بخصوص الكبائر.

ويـرد على هذه الأقـوال جميعاً أن كـل واحد منهـا على تقـديـر صحتـه وتسليمـه مصداق من مصاديق الآية مع الغضّ من وقوعها في السياق الذي تقدمت الإشارة إليه ، وأما من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلا القتال كما مرّ .

قوله تعالى: ﴿إِن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله ورسوله وأبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه أدَّاكم ذلك إلى اللحوق بأهل الكفر والصد ولا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبداً.

والمراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ تفريع على ما تقدم ، وقوله : ﴿ فلا تهنوا ﴾ من الوهن بمعنى الضعف والفتور ، وقوله : ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ معطوف على ﴿ تهنوا ﴾ واقع في حيز النهي أي ولا تدعوا إلى السلم ، والسلم - بفتح السين - الصلح ، وقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ جملة حالية أي لا تفعلوا الصلح ، وقوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ جملة حالية أي لا تفعلوا ذلك والحال أنكم الغالبون ، والمراد بالعلو الغلبة وهي استعارة مشهورة .

⁽١) البقرة : ٢٦٤ .

وقوله: ﴿والله معكم﴾ معطوف على ﴿وأنتم الأعلون﴾ يبين سبب علوهم ويعلله فالمراد بمعيِّته تعالى لهم معيَّة النصر دون المعيّّة القيُّومية التي يشير إليها قول تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾(١) .

وقوله: ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ قبال في المجمع: يقبال: وتره يشره وتبرأ إذا نقصه ومنه الحديث(٢) فكأنه وتر أهله وماله، وأصله القطع ومنه الترة القطع بالقتل ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره. انتهى.

فالمعنى : لن ينقصكم أعمالكم أي يوفّي أجرها ناماً كاملًا ، وقيل : المعنى : لن يضيع أعمالكم ، وقيل : لن يظلمكم ، والمعاني متقاربة .

ومعنى الآية : إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسول وإبطال أعمالكم هذه السبيل وكان مؤدِّياً إلى الحرمان من مغفرة الله أبداً فلا تضعفوا ولا تفتروا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين إلى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئاً من أجوركم بل يوفيكموها تامة كاملة .

وفي الآية وعد المؤمنين بالعَلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقـوله : ﴿وَلاَ تُعْنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ ترغيب لهم في الآخرة وتزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها وهي أنها لعب ولهو ـ وقد مر معنى كونها لعباً ولهواً ـ .

وقوله: ﴿وإِن تؤمنوا﴾ الخ ، أي إن تؤمنوا وتتقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتكم الجوركم ولا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم وظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤيده أيضاً الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿إِنْ يَسَالُكُمُوهُا فَيَحْفُكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجُ أَضْغَانُكُمْ ﴾ الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقة ، والمراد بالبخل ـ كما قيل ـ الكفّ عن الإعطاء ، والأضغان الأحقاد .

⁽١) الحديد : ١

 ⁽٢) وهـو ما عن النبي صلى الله عليه وآله : «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» عن
الجوامع .

⁽٣) آل عمران : ١٣٩ .

والمعنى : إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلها كففتم عن الإعطاء لحبكم لها ويخرج أحقاد قلوبكم فضللتم .

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنتُم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ﴾ إلى آخر الآية بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنه قيل : إنه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا ويشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله - وهو بعض أموالكم ـ فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لوسأل الجميع جميعكم بخلتم .

وقوله: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم ، وإليه يشير قوله بعده: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ والقصران للقلب أي الله هو الغني دونكم وأنتم الفقراء دون الله .

وقوله: ﴿ وَإِن تَتُولُوا يَسْتَبِدُلُ قُوماً غَيْرُكُم ثُم لا يَكُونُوا أَمْثَالُكُم ﴾ قيل: عطف على قوله: ﴿ وَإِن تَوْمُنُوا وَتَقُوا يُؤْتُكُم الْجُورُكُم وَإِن تَتُولُوا وَتَقُوا يُؤْتُكُم الْجُورُكُم وَإِن تَتُولُوا وَتَعُرضُوا يَسْتَبِدُلُ قُوماً غَيْرُكُم بأن يُوفَقِهم للإِيمان دُونُكُم ثُم لا يَكُونُوا أَمْثَالُكُم بل يؤمنُون ويتقون في سبيل الله .

(بحث روائي)

في ثواب الأعمال عن أبي جعفر مانتك قال : قال رسول الله مانته الله عن أبي جعفر مانتك قال : سبحان الله غرس الله له سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة .

فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير. قال: نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾.

وفي تفسير القمي ﴿وإن جنحوا للسلم كافة فاجنح لها﴾ قال : هي منسوخة بقوله : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ .

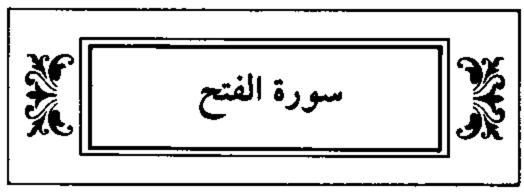
وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جريـر وابن

أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله هذه الآية: ﴿ وَإِنْ تَتُولُوا يَسْتَبِدُلُ قُوماً غَيْرُكُم ثُم لا يكونُوا أمثالكم ﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول الله من منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس.

أقول : وروي بطرق أخر عن أبي هريرة مثله . وكذا عن ابن مردويه عن جابر مثله .

وفي المجمع وروى أبو بصير عن أبي جعفر مالنظة قال : ﴿إِن تَتُولُوا﴾ يا معشر العرب ﴿يَسْتَبِدُلُ قُوماً غيركم﴾ يعني الموالي .

وفيه عن أبي عبد الله مُؤنِّكُ قال : قد والله أبدل خيراً منهم الموالي .



مدنية ، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَبْلِكَ وَمَا تَأْخُرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُركَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُو الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ لِيُزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُلْفِحْ أَلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنِينَ تَخْدِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّنَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَيُعَذَّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَلَامُشُوكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ اللَّهُ عَنْ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ وَلَامُ مَوْلِينَ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٢) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمُواتِ وَآلْأَرْض وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) .

(بیان)

مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية الواقعة في السنة السادسة من الهجرة وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلُّف الأعراب

وصدّ المشركين ، وبيعـة الشجرة على مـا تفصّله الآثار وسيجيء شـطر منها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

فغرض السورة بيان ما امتنَّ الله تعالى على رسول منطقة بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة ، وعلى المؤمنين ممن معه ، ومدحهم البالغ ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ، والسورة مدنية .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحَنَّا لَكَ فَتَحَاً مِبِيناً﴾ كلام واقع موقع الامتنان ، وتأكيد الجملة بإنَّ ونسبة الفتح إلى نون العظمة وتنوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي يمتن به .

والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو مــا رزق الله نبيه نوائد من الفتح في صلح الحديبية .

وذلك أن ما سيأتي في آيات السورة من الامتنان على النبي منطقة والمؤمنين ، ومدحهم والرضاعن بيعتهم ووعدهم الجميل في الدنيا بمغانم عاجلة وآجلة وفي الآخرة بالجنة وذم المخلفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله منطقة فلم يخرجوا معه ، وذم المشركين في صدهم النبي منطقة ومن معه ، وذم المنافقين ، وتصديقه تعالى رؤيا نبيه منطقة ، وقوله : وفعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحا قريباً وكاد يكون صريحاً - كل ذلك معانٍ مرتبطة بخروجه منطقة إلى مكة للحج وانتهاء ذلك إلى صلح الحديبية .

وأما كون هذا الصلح فتحاً مبيناً رزقه الله نبيه والمؤمنين إلى هذه البغية خروجاً آيات السورة في هذه القصة فقد كان خروج النبي والمؤمنين إلى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينة عادة كما يشير إليه قوله تعالى : فربل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً والمشركون من صناديد قريش ومن يتبعهم على ما لهم من الشوكة والقوة والعداوة مع النبي والمؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف ولم يجمعهم جامع غير معركة والقتال كغزوة بدر وأحد والأحزاب ، ولم يخرج مع النبي والمؤمنين وهم في عقر دارهم .

لكن الله سبحانه قلّب الأمر للنبي ممنية والمؤمنين على المشركين فرضوا بما

سورة الفتح ـ آية ١ ـ٣ ٢٥٧

لم يكن مطموعاً فيه متوقعاً منهم فسألوا النبي مُشَنِّتُ أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين ، وعلى تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر ومن لحق به ، وعلى أن يرجع النبي مُشَنِّتُ إلى المدينة عامه هذا ثم يقدم إلى مكة العام القابل فيخلُوا لـه المسجد والكعبة ثلاثة أيام .

وهذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه من أمس أمس الأسباب بفتح مكة سنة ثمان من الهجرة فقد آمن جمع كثير من المشركين في السنتين بين الصلح وفتح مكة ، وفتح في أوائل سنة سبع خيبر وما والاه وقوي به المسلمون واتسع الإسلام اتساعاً بيناً وكثر جمعهم وانتشر صيتهم وأشغلوا بلاداً كثيرة ، وخرج النبي من الفي من الفتح مكة في عشرة آلاف أو في اثني عشر ألفاً ، وقد كان خرج إلى حديبية في ألف وأربعمائة على ما تفصله الآثار .

وقيل : المراد بالفتح فتح مكة فالمراد بقوله : ﴿إِنَا فَتَحَنَا لَكُ﴾ إِنَا قَضَيْنَا لَكُ فَتَحَ مكة ، وفيه أن القرائن لا تساعده .

وقيل: المراد به فتح خيبر، ومعناه على تقدير ننزول السورة عند مرجع النبي مسلمة من الحديبية إلى المدينة _ إنا قضينا لـك فتح خيبر، وحال هـذا القول أيضاً كسابقه.

وقيل: المراد بـ الفتح المعنوي وهو الـظفر على الأعـداء بـالحجـج البيّنـة والمعجزات الباهرة التي غلب بها كلمة الحق على الباطل وظهر الإسلام على الدين كله، وهذا الوجه وإن كان في نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه.

قوله تعالى : وليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً اللام في قوله : وليغفر للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ومن المعلوم أن لا رابطة بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقولاً لتعليله بالمغفرة .

وقول بعضهم فراراً عن الإشكال: إن اللام المكسورة في وليغفر للام المتسورة في وليغفر للام القسم والأصل ليغفرن حذفت نون التوكيد وبقي ما قبلها مفتوحاً للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

وكذا قول بعض آخر فراراً عن الإشكال: وإن العلة هو مجموع المغفرة وما عطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب في نفسه علة للفتح، كلام سخيف لا يغني طائلًا فإن مغفرة الذنب لا هي علة أو جزء علة للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها في ضمن علله فلا مصحح لذكرها وحدها ولا مع العلل وفي ضمنها.

وبالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي ، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان ، والمغفرة هي الستر على الشيء ، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنما لزماهما بحسب عرف المتشرعين .

وقيام النبي على الدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه مسلم ذا تبعة سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة ، وما كانوا لينسوا زهوق ملتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم ، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدرهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه مسلم المفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكة فذهب بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه مسلم الذنب وآمنه منهم .

فالمراد بالذنب والله أعلم التبعة السيئة التي لـدعوته مرازية عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه: ﴿ ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴿ () ، وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه مرازية بمكة قبل الهجرة ، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة ، ومغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال

⁽١) الشعراء : ١٤ .

سورة الفتح ــ آية ١ ــ٣ ٢٥٩

تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم ، ويؤيد ذلك ما يتلوه من قـوله : ﴿ويتم نعمتـه عليك﴾ إلى أن قال ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ .

وللمفسرين في الآية مذاهب مختلفة أخر:

فمن ذلك : أن المراد بذنبه منطقة ما صدر عنه من المعصية ، والمراد بما تقدم منه وما تأخر ما صدر عنه قبل النبوة وبعدها ، وقيل : ما صدر قبل الفتح وما صدر بعده .

وفيه أنه مبني على جواز صدور المعصية عن الأنبياء عليهم السلام وهو خلاف ما يقطع به الكتاب والسنة والعقل من عصمتهم عليهم السلام وقد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من الكتاب وغيره .

على أن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

ومن ذلك : أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر مغفرة ما وقع من معصيته وما لم يقع بمعنى الوعد بمغفرة ما سيقع منه إذا وقع لئلا يرد الإشكال بأن مغفرة ما لم يتحقق من المعصية لا معنى له .

وفيه مضافاً إلى ورود ما ورد على سابقه عليه أن مغفرة ما سيقع من المعصية قبل وقوعه تلازم ارتفاع التكاليف عنه مناهم عامة ، ويدفعه نص كلامه تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿إِنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُ الْكَتَابِ بِالْحَقِ فَاعِبْدُ الله مخلصاً له الله الدين ﴿(١) ، وقوله : ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾(١) ، إلى غير ذلك من الآيات التي تأبى بسياقها التخصيص .

على أن من الذنوب والمعاصي مثل الشرك بالله وافتراء الكذب على الله والاستهزاء بآيات الله والإفساد في الأرض وهتك المحارم ، وإطلاق مغفرة الذنوب يشملها ولا معنى لأن يبعث الله عبداً من عباده فيأمره أن يقيم دينه على ساق ويصلح به الأرض فإذا فتح له ونصره وأظهره على ما يريد يجيز له مخالفة ما أمره وهدم ما بناه وإفساد ما أصلحه بمغفرة كل مخالفة ومعصية منه والعفو عن كل ما تقوّله وافتراه على الله ، وفعله تبليغ كقوله ، وقد قبال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل

⁽١) الزمر : ٢ .

⁽٢) الزمر : ١٢ .

لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾(١) .

ومن ذلك : قول بعضهم : إن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنب مغفرة ما تقدم من ذنب مغفرة ما تقدم من ذنب أبويه آدم وحواء عليهما السلام ببركت مناه المغفرة ذنوب أمته بدعائه .

وفيه ورود ما ورد على ما تقدم عليه .

ومن ذلسك : أن الكلام في معنى التقدير وإن كان في سياق التحقيق والمعنى : ليغفر لك الله قديم ذنبك وحديثه لوكان لك ذنب .

وفيه أنه أخذ بخلاف الظاهر من غير دليل .

ومن ذلك : أن القول خارج مخرج التعظيم وحسن الخطاب والمعنى : غفر الله لك كما في قوله تعالى : ﴿عَفَا الله عنك لم أذنت لهم﴾ (٢) .

وفيه أن العادة جرت في هذا النـوع من الخطاب أن يـورد بلفظ الدعـاء . كما قيل .

ومن ذلك: أن المراد بالذنب في حقه مَرْ الله الأولى وهو مخالفة الأوامر الإرشادية دون التمرد على امتثال التكاليف المولوية ، والأنبياء على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على المعاصي المعروفة كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين .

ومن ذلك : ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر مغفرة ما تقدم من ذنوب أمته وما تأخر منها بشفاعته والله من ولا ضير في إضافة ذنوب أمته من الله للاتصال والسبب بينه وبين أمته .

وهذا الوجمه والوجمه السابق عليمه سليمان عن عامة الإشكالات لكن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

ومن ذلك : ما عن علم الهدى رحمه الله أن الذنب مصدر ، والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً إلى المفعول ، والمراد ما تقدم

⁽١) الحاقة : ٤٦ .

⁽٢) التوبة : ٤٣ .

من ذنبهم إليك في منعهم إياك من مكة وصدّهم لك عن المسجد الحرام ، ويكون معنى المغفرة على هذا الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين أي يـزيل الله تعالى ذلك عنـك ويستر عليـك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكـة فتدخلها فيما بعد .

وهذا الوجه قريب المأخذ مما قدمنا من الوجه ، ولا بأس به لو لم يكن فيه بعض المخالفة لظاهر الآية .

وفي قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ الخ ، بعد قوله: ﴿إنا فتحنا لك﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة ولعل الوجه فيه أن محصل السورة امتنانه تعالى على النبي المنابي التكلم والمؤمنين بما رزق من الفتح وإنزال السكينة والنصر وسائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجاري في السورة سياق الغيبة ويذكر تعالى فيها باسمه وينسب إليه النصر بما يعبده نبيه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون وإنما يعبدون آلهة من دونه طمعاً في نصرهم ولا ينصرونهم .

وأما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمة في الآية الأولي فلمناسبته ذكر الفتح فيها ويجري الكلام في قوله تعالى الآتي : ﴿إِنَا أَرْسَلْنَاكُ شَاهِدًا﴾ الآية .

وقوله : ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ قيل : أي يتمّها عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك ، وفي الآخرة برفع درجتك ، وقيل : أي يتمّها عليك بفتح خيبر ومكة والطائف .

وقوله: ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ وقيل: أي ويثبتك على صراط يؤدّي بسالكه إلى الجنة ، وقيل: أي ويهديك إلى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكمام وإجراء الحدود.

وقوله: ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد وعات مريد، وقد فعل بنبيه معنية ذلك إذ جعل دينه أعز الأديان وسلطانه أعظم السلطان، وقيل: المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظير أو عديمه ونصره تعالى لنبيه عمنية كذلك كما يظهر بقياس حاله في أول بعثته إلى حاله في آخر أيام دعوته.

والتدبر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله : ﴿إِنَا فَتَحْمُ اللَّهُ

الجزء السادس والعشرون

فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ يعطى أن يكون المراد بقولـه : ﴿ويتم نعمته عليك﴾ هو تمهيده تعالى له سِنْكُ لتمام الكلمة وتصفيته الجو لنصره نصرا عزيزا بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبقوله : ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ هدايته سُلُون بعد تصفية الجو له إلى الطريق الموصل إلى الغايـة الذي سلكـه بعد الـرجوع من الحـديبية من فتـح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتى انتهى إلى فتح مكة والطائف .

وبقوله : ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ نصره له ﴿ فَاكُ النصر الظاهر الباهـر الذي قلما يوجد ـ أو لا يوجد ـ له نظير إذ فتح له مكة والـطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذلّ اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها ، وأكمل تعالى للناس دينهم وأتمَّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام

قوله تعالى : ﴿ هُو الذِّي أَنْزُلُ السَّكِينَةُ فَي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيزْدَادُوا إِيمَاناً مُع إيمانهم ﴾ الخ ، الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها إلى ما آمنت به ، ولذا علَّل إنزالها فيها بقوله : ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ وقد تقدم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى : ﴿ أَن يَأْتِيكُم التَّابُوتِ فِيهُ سَكِينَةُ مَن ربكم ﴾(١) في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنـا هناك أنهـا تنطبق على روح الإيمـان المذكور في قوله تعالى : ﴿وَأَيُّدُهُمْ بُرُوحٌ مُنَّهُ﴾(٢) .

وقيل : السكينة هي الـرحمة ، وقيـل : العقل ، وقيـل : الوقـار والعصمة لله ولرسوله ، وقيل : الميل إلى ما جاء به الـرسول ﷺ ، وقيـل : ملك يسكن قلب المؤمن ، وقيل : شيء له رأس كرأس الهرة ، وهـذه الأقاويـل لا دليـل على شيء

والمراد بإنزال السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيراً مّا يعبر في القرآن عن الخلق والإيجاد بالإنزال كقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾(٣) ، وقـوله : ﴿وأنـزلنا الحـديد﴾(٤) ، وقـوله : ﴿وإنَّ من شيء إلا عنـدنــا

> (٣) الزمر: ٦. (١) البقرة: ٢٤٨ .

(٤) الحديد : ٢٥ . (٢) المجادلة : ٢٢ .

خرائنه وما ننزَّله إلا بقدر معلوم ﴿أَنَ . وإنما عبّر عن الخلق والإيجاد بالإنزال للإشارة إلى علوّ مبدئه .

وقيل : المراد بالإنزال الإسكان والإقرار من قـولهم : نزل في مكـان كذا أي حط رحله فيه وأنزلته فيه أي حططت رحله فيه هذا .

وهو معنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه ، ولعل الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة ﴿في﴾ إذ قبال : ﴿أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ لكنه عناية كلامية لوحظ فيها تعلق السكينة بالقلوب تعلق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلقها تعلق الوقوع عليها من علو في قوله الآتي : ﴿فَأَنْ زِلَ السّكينة عليهم ﴾ الآية وقوله : ﴿فَأَنْ زِلَ الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ الآية .

والمراد بزيادة الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العملية ، ومن المعلوم أن كلا من العلم والالتزام المذكورين مما يشتد ويضعف فالإيمان الذي هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد ويضعف .

فمعنى الآية: الله الذي أوجد الثبات والاطمئنان الذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذي كان لهم قبل نـزول السكينة فيصير أكمل مما كان قبله .

(كلام في الإيمان وازدياده)

الإيمان بالشيء ليس مجرد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى:
﴿إِنَ الذِّينَ ارتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهُم مِن بعد مَا تَبِينَ لَهُمَ الْهُدَى ﴾(٢) ، وقوله : ﴿إِنَ اللَّهِ وَاللَّهِ اللَّهِ وَسُاقُوا الرسول مِن بعد مَا تَبِينَ لَهُمَ الْهُدَى ﴾(٣) ، وقوله : ﴿وَاصَلُهُ اللهُ عَلَى عَلَم ﴾(٥) ، وقوله : ﴿وَأَصَلُهُ اللهُ عَلَى عَلَم ﴾(٥) ، وقوله : ﴿وَأَصَلُهُ اللهُ عَلَى عَلَم ﴾(٥) ، فالآيات ـ كما ترى ـ تثبت الارتداد والكفر والجحود والضلال مع العلم .

فمجرد العلم بالشيء والجزم بكونه حقاً لا يكفي في حصول الإيمان واتصاف من

(۱) الحجر: ۲۱ .
 (۳) محمد: ۳۲ .
 (۵) الجاثية: ۲۳ .

(٢) محمد : ٢٥ . (٤) النمل : ١٤ .

حصل له به ، بل لا بد من الالتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤداه بحيث يترتب عليه آثاره العملية ولو في الجملة ، فالذي حصل له العلم بأن الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه وهو عبوديته وعبادته وحده كان مؤمناً ولو علم به ولم يلتزم فلم يأت بشيء من الأعمال المظهرة للعبودية كان عالماً وليس بمؤمن .

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل : إن الإيمان هو مجرد العلم والتصديق وذلك لما مر أن العلم ربما يجامع الكفر .

ومن هنا يظهر أيضاً بـطلان ما قيـل : إن الإيمان هـو العمل ، وذلك لأن العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل وربما كان ممن ظهر له الحق ظهوراً علمياً ولا إيمان لـه على أي حال .

وإذ كان الإيمان هو العلم بالشيء مع الالتزام به بحيث يترتب عليه آثاره العملية ، وكل من العلم والالتزام مما يزداد وينقص ويشتد ويضعف كان الإيمان المؤلف منهما قابلًا للزيادة والنقيصة والشدة والضعف فاختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريات التي لا يشك فيها قط .

هذا ما ذهب إليه الأكثر وهو الحق ويدل عليه من النقل قوله تعبالى : ﴿ليزدادوا إِيسَاناً مع إِيمانهم﴾ وغيره من الآيات ، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالة على أن الإيمان ذو مراتب .

وذهب جمع منهم أبو حنيفة وإمام الحرمين وغيرهما إلى أن الإيمان لا يهزيد ولا ينقص ، واحتجوا عليه بأن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والقطع وهو مما لا يتصور فيه الزيادة والنقصان فالمصدق إذا ضم إلى تصديقه المطاعات أو ضم إليه المعاصى فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً .

وأولوا ما دلَّ من الآيات على قبوله الزيادة والنقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجددة يزيد وينقص كوقوعه للنبي مسلماً مثلاً على التوالي من غير فترة متخللة وفي غيره بفترات قليلة أو كثيرة فالمراد بزيادة الإيمان توالي أجزاء الإيمان من غير فترة أصلاً أو بفترات قليلة .

وأيضاً للإيمان كثرة بكثرة ما يؤمن به ، وشرائع الدين لما كانت تنـزل تدريجـاً والمؤمنون يؤمنون بما ينزل منها وكان يزيد عدد الأحكام حيناً بعد حين كـان إيمانهم

أيضاً يزيد تدريجاً ، وبالجملة المراد بزيادة الإيمان كثرته عدداً .

وهو بيِّن الضعف ، أما الحجة ففيها أولاً : أن قولهم : الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الذي معه الالتزام كما تقدم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام .

وثانياً: أن قولهم: إن هذا التصديق لا يختلف بالزيادة والنقصان دعوى بلا دليل بل مصادرة على المطلوب وبناؤه على كون الإيمان عرضاً وبقاء الأعراض على نحو تجدد الأمثال لا ينفعهم شيئاً فإن من الإيمان ما لا تحركه العواصف ومنه ما يزول بأدنى سبب يعترض وأوهن شبهة تطرأ ، وهذا مما لا يعلل بتجدد الأمثال وقلة الفترات وكثرتها بل لا بد من استناده إلى قوة الإيمان وضعفه سواء قلنا بتجدد الأمثال أم لا .

مضافاً إلى بطلان تجدد الأمثال على ما بيّن في محله .

وقولهم: إن المصدق إذا ضمَّ إليه الطاعات أو ضمَّ إليه المعاصي لم يتغير حاله أصلاً ممنوع فقوة الإيمان بمزاولة الطاعات وضعفها بارتكاب المعاصي مما لا ينبغي الارتياب فيه ، وقوة الأثر وضعفه كاشفة عن قوة مبدأ الأثر وضعفه ، قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيِّب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (١) ، وقال : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذَّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴾ (٢) .

وأما ما ذكروه من التأويل فأول التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان وهو الذي في قلبه فترات خالية من أجزاء الإيمان على ما ذكروه مؤمناً وكافراً حقيقة وهذا مما لا يساعده ولا يشعر به شيء من كلامه تعالى .

وأما قوله تعالى: ﴿ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (٣) ، فهو إلى الدلالة على نفيه فإن الدلالة على كون الإيمان مما يزيد وينقص أقرب منه إلى الدلالة على نفيه فإن مدلوله أنهم مؤمنون في حال أنهم مشركون فإيمانهم إيمان بالنسبة إلى الشرك المحض وشرك بالنسبة إلى الإيمان المحض ، وهذا معنى قبول الإيمان للزيادة والنقصان .

⁽١) فاطر : ١٠ .

⁽٢) الروم : ١٠ .

وثاني التأويلين يفيد أن الزيادة في الإيمان وكشرته إنما هي بكثرة ما تعلق به وهو الأحكام والشرائع المنزلة من عند الله فهي صفة لـلإيمان بحـال متعلقه والسبب في اتصافه بها هو متعلقه ، ولو كـان هذا الـزيادة هي المـرادة من قولـه : ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ كـان الأنسب أن تجعل زيـادة الإيمان في الآيـة غايـة لتشريـع الأحكام الكثيرة وإنزالها لا لإنزال السكينة في قلوب المؤمنين هذا .

وحمل بعضهم زيادة الإيمان في الآية على زيـادة أثره وهـو النور المشـرق منه على القلب .

وفيه أن زيادة الأثر وقوت فرع زيادة المؤثر وقوته فـلا معنى لاختصاص أحـد الأمرين المتساويين من جميع الجهات بأثر يزيد على أثر الأخر .

وذكر بعضهم أن الإيمان الذي هو مدخول مع في قوله : ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيماناً مع إيماناً مع إيماناً الفيطري والإيمان المذكور قبله هنو الإيمان الاستندلالي ، والمعنى : ليزدادوا إيماناً استدلالياً على إيمانهم الفطري .

وفيه أنه دعـوى من غير دليـل يـدلُّ عليـه . على أن الإيمـان الفـطري أيضـاً استدلالي فمتعلق العلم والإيمان على أي حال أمر نظري لا بديهي .

وقال بعضهم كالإمام الرازي: إن النزاع في قبول الإيمان للزيادة والنقص وعدم قبوله نزاع لفظي فمراد النافين عدم قبول أصل الإيمان وهو التصديق ذلك وهو كذلك لعدم قبوله الزيادة والنقصان، ومراد المثبتين قبول ما به كمال الإيمان وهو الأعمال للزيادة والنقصان وهو كذلك بلاشك.

وفيه أولاً: أن فيه خلطاً بين التصديق والإيمان فالإيمان تصديق مع الالتـزام وليس مجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه .

وثانياً: أن نسبة نفي الزيادة في أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحة فهم إنما يثبتون الـزيادة في أصل الإيمان ، ويـرون أن كلاً من العلم والالتـزام المؤلف منهما الإيمان يقبل القوة والضعف .

وثالثاً: أن إدخال الأعمال في محل النزاع غيـر صحيح لأن النـزاع في شيء غير النزاع في أثره الذي به كماله ولا نزاع لأحد في أن الأعمال والطاعات تقبل العد وتقل وتكثر بحسب تكرر الواحد .

وقوله: ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله ولذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم ، والسياق يشهد أن المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في العالم مما يرى من الخلق فهي وسائط متخللة بينه تعالى وبين ما يريده من شيء تطيعه ولا تعصاه .

وإيراد الجملة أعني قوله: ﴿ولله جنود﴾ النح ، بعد قوله: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ النح ، للدلالة على أن له جميع الأسباب والعلل التي في الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في ذلك ، وقد نسبت إلى زيادة إيمان المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم .

وقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي منيعاً جانبه لا يغلبه شيء متقناً في فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليلي لقوله: ﴿ولله جنود﴾ النح ، كما أنه بيان تعليلي لقوله: ﴿ولله جنود﴾ النح ، كما أنه بيان تعليلي لقوله: ﴿هو الذي أنزل السكينة ﴾ الخ ، كأنه قيل: أنزل السكينة لكذا وله ذلك لأن له جميع الجنود والأسباب لأنه العزيز على الإطلاق والحكيم على الإطلاق.

قوله تعالى : ﴿لِيدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحنها الأنهار﴾ إلى آخر الآية ، تعليل آخر لقوله : ﴿أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ على المعنى كما أن قوله : ﴿ليزدادوا إيماناً﴾ تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل : خص المؤمنين بإنزال السكينة وحرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم وحقيقة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة ويعذب أولئك فيكون قوله : ﴿ليدخل﴾ بدلاً أو عطف بيان من قوله : ﴿ليزدادوا﴾ الخ .

وفي متعلق لام ﴿ليدخل﴾ الخ ، أقوال أخر كالقول بتعلقها بقوله : ﴿فتحنا﴾ أو قوله : ﴿يزدادوا﴾ أو بجميع ما تقدم إلى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده .

وضم المؤمنات إلى المؤمنين في الآية لـدفع تـوهم اختصاص الجنة وتكفير السيئات بالذكور لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد ، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل .

وضمير ﴿خالدين﴾ و ﴿يكفر عنهم سيئاتهم﴾ للمؤمنين والمؤمنات جميعاً على ٢- التغليب .

وقوله : ﴿ وَكَانَ ذَلَكَ عَنْدَ اللَّهُ فَوَزَاً عَظَيْماً ﴾ بيان لكون ذلك سعادة حقيقية لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك وهو يقول الحق .

قوله تعالى : ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ إلى آخر الآية معطوف على قوله : ﴿يدخل﴾ بالمعنى الذي تقدم ، وتقديم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في الآية لكونهم أضر على المسلمين من أهل الشرك ولأن عذاب أهل النفاق أشد قال تعالى : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ .

وقوله: ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء بالضم اسم مصدر، وظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله وقيل: المراد بظن السوء ما يعم ذلك وسائر ظنونهم السيئة من الشرك والكفر.

وقوله : ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضروا بدائرة السوء التي تدور لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب .

وقوله: ﴿وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم ﴾ معطوف على قوله: ﴿عليهم وأعدَّ لهم جهنم ﴾ معطوف على قوله: ﴿عليهم والله مساءة مصيرهم ، كما أن قوله: ﴿وكان عند الله فوزاً عظيماً ﴾ بيان لحسن مصير أهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ تقدم معناه ، والظاهر أنه بيان تعليلي للآيتين أعني قوله : ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات﴾ إلى قبوله ﴿وأعدَّ لهم جهنم﴾ على حذو ما كان مثله فيما تقدم بياناً تعليلياً لقوله : ﴿أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ النخ .

وقيل : إن مضمون متعلق بالآية الأخيرة فهـو تهديـد لهم أنهم في قبضة قــدرته فينتقم منهم ، والوجه الأول أظهر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَا فَتَحَنَا لَكُ فَتَحَا مِبِناً ﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله مَالِئَةُ قال: كان سبب نزول هذه الآية وهذا الفتح العظيم أن الله جل وعز أمر رسوله مَالِئَةُ في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلق مع المحلقين فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا.

فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله منتشب ستة وستين بدنة وأحرموا من ذي الحليفة ملبين بالعمرة وقد ساق من ساق منهم الهدي معرّات مجللات .

فلما بلغ قريشاً بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً يستقبل رسول الله المنافية فكان يعارضه على الجبال فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذن بلال فصلى رسول الله المنافية بالناس فقال خالد بن الوليد : لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم لأنهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجيء الآن لهم صلاة اخرى أحب إليهم من ضياء أبصارهم فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم ، فنزل جبرئيل على رسول الله المنافية الخوف في قوله عز وجل : ﴿ فإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ الآية .

قال: فلما كان في اليوم الثاني نزل رسول الله مُشِرِّتُهُ الحديبية ، وكان رسول الله مُشِرِّتُهُ الحديبية ، وكان رسول الله مُشَرِّتُهُ يستنفر الأعراب في طريقه فلم يتبعه أحد ويقولون: أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم ، إنه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً. الحديث.

وفي المجمع: قال ابن عباس: إن رسول الله سَلَمَ خرج يريد مكة فلما بلغ المحديبية وقفت ناقته فزجرها فلم تنزجر وبركت الناقة فقال أصحابه: خلأت الناقة، فقال: ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل.

ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا لـه بأن يـدخل مكة ويحلّ من عمرته وينحر هديه فقال: يا رسول الله ما لي بها حميم وإني أخاف قريشاً لشدة عـداوتي إياهـا ولكن أدلّك على رجـل هـو أعـز بهـا مني عثمـان بن عفـان فقـال: صدقت.

فدعا رسول الله عَيْنَ عنهان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته ، فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله عَيْنَ والمسلمين أن عنمان قد قتل . فقال عَيْنَ : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله عَيْنَ إلى الشجرة واستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفروا . قال عبد الله بن مغفل :

كنت قائماً على رأس رسول الله ع^{مان اله} ذلك اليوم وبيدي غصن من السمـرة أذبُّ عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنما بايعهم على أن لا يفرُّوا .

وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسوّر بن مخرمة قالوا: خرج رسول الله الله الله المدينة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بـذي الحليفة قلّد رسول الله وَمُنْوَا الله عَنْوَا الله وَمُنْوَا الله وَمُنْوَا الله وَاحْرَم بِالْعَمْرَة وَبَعْثُ بِينَ يَدَيُهُ عَيْنًا لَهُ مَنْ خَزَاعَة يَخْبُره عَنْ قَرِيشٌ .

وسار رسول الله عَيْدَ عَلَى إذا كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعاً وهم قاتلوك أو مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال عَيْدَ : روحوا فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي عَيْدَ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين .

فسار حتى إذا كان بالثنية بركت راحلته فقال عنطة : ما خلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت به .

قال: فعدل حتى نـزل بأقصى الحـديبية على ثمـد قليل المـاء إنما يتبـرضـه الناس تبرضاً فشكوا إليـه العطش فـانتزع سهمـاً من كنانتـه ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينا هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله على أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله على ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله على أن أبوا لم نجىء لقتال أحد وإنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلو بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمّوا وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذ الله تعالى أمره، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وإنه يقول :

سورة الفتح ــ آية ٦-٧٠٠٠ .٠٠٠ ٢٧١

كذا وكذا فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آنه فقال له رسول الله منزية نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها وأرى اشاباً من الناس خلقاء أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قال: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي مَشَنَّ وكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي مَشَنَّ ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله مَشَنَّ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله مَشَنَّ فَرَوْبَ فَيْ اللهُ مَشْنَ فَيْ اللهُ مَشْنَا فَيْ اللهُ مَشْنَا فَيْ اللهُ مَشْنَا فَيْ اللهُ مَشْنَا فَيْ اللهُ مَنْ هذا؟ قال المغيرة بن شعبة . قال: أي غُدر أولست أسعى في غدرتك .

قال : وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم . ثم جاء فأسلم فقال النبي علم الله الإسلام فقد قبلنا ، وأما المال فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي بمنزة إذا أمرهم رسول الله منزة المرهم رسول الله منزة المردوا أمره ، وإذا توضأ ثاروا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له .

قال: فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف عليهم قال رسول الله مُسْنَاتُهِ : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها فبعثت له واستقبله

القوم يلبون فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته فقال: اثته فلما أشرف عليهم قال النبي سَنْوَا فلما أشرف عليهم قال النبي سَنْوَا فلما مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي سَنْوَا في فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال سَنْوَا : قد سهل عليكم أمركم فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً.

فدعا رسول الله متنائب على بن أبي طالب فقال له رسول الله متنائب : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي متنائب : اكتب باسمك اللهم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله متنائب : إني لرسول الله وإن كذبتموني ثم قال لعلي امح رسول الله فقال : يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذه رسول الله متنائب فمحاه .

ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سئين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله ، وأن بيننا(۱) عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالـوا: نحن في عقد محمـد وعهـده ، وتـواثبت بنـو بكـر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم .

فقال رسول الله مَشْنَاتُهِ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف فقال سهيل : والله ما تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب فقال سهيل : على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددتـه إلينا ومن جاءنا

⁽١) أي يكون بيننا صدر نقي من الغل والخداع .

ممن معك لم نرده عليك فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فقال رسول الله سننه على عن جاءهم منا فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل به مخرجاً.

فقال سهيل: وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فبإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب(١) وسلاح الراكب، وعلى أن هذا الهدي حيث ما حبسناه محله لا تقدمه علينا فقال: نحن نسوق وأنتم تردون.

فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف (٢) في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده فقال النبي بسنية : إنا لم نقض بالكتاب بعد . قال : والله إذا لا أصالحك على شيء أبداً فقال النبي بسنية : فأجره لي فقال : ما أنا بمجيره لك قال : بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجرناه ، قال أبو جندل بن سهيل : معاشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت ؟ _ وكان قد عذب عذاباً شديداً _ .

فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبي الله ؟ فقال: بلى . قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى ، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقاً ؟ قال: بلى أفأخبرتك أن نأتيه العام ؟ قلت: لا . قال: فإنك تأتيه وتطوف به فنحر رسول الله مسلمة بدنة فدعا بحالقه فحلق شعره ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ الآية .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : وحدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب أن كاتب رسول الله سَلِمَاتُ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب فقال له رسول الله سَلَمَاتُ : اكتب وهذا ما صالح عليه محمد بن عبـد الله سهيل بن عمـرو، فجعل علي تُعْرَبُهُ ...

⁽١) القراب : جمع قربة بمعنى الغمد .

⁽٢) رسف رسفاً : إذا مشى مشى المقيد .

يتلكأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله فقال رسول الله : فـإن لك مثلهـا تعطيهـا وأنت مضطهد ، فكتب ما قالوا .

ثم رجع رسول الله على المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلا يأكلان من تمر لهم قال أبو بصير لأحد الرجلين: وإني لأرى سيفك جيداً جداً فاستلّه فقال: أجل إنه لجيد وجرّبت به ثم جرّبت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الأخر حتى بلغ المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله عشرت حين رآه: لقد رأى هذا دعراً، فلما انتهى إلى النبي عشرة قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول.

قال: فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله قد أوفى الله ذمَّتك ورددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال النبي مُسَلِّلُةٍ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر.

وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عليه عصابة . قال : فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي وَالدُولِيُ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل واليهم فأتوه .

وفي تفسير القمي في حديث طويل أوردنا صدره في أول البحث قال : وقال رسول الله منزات المصحابه بعد ما كتب الكتاب : انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم فامتنعوا وقالوا : كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة فاغتم رسول الله منزات وشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت : يا رسول الله انحر أنت واحلق فنحر رسول الله وحلق فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياب .

أقول : وهو مروي في روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة . وهذا الذي رواه الطبرسي مأخوذ مع تلخيص مّا عما رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن مروان والمسوّر .

وفي الـدر المنثور أخـرج البيهقي عن عروة قـال : أقبل رسـول الله سَلْمُنْكُ من

الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله مُؤَلِّدُهُمْ : والله ما هـذا بفتح لقـد صددنا عن البيت وصد هدينا وعكف رسول الله بالحديبية ورد رجلين من المسلمين خوجا .

فبلغ رسول الله عَلَمْ الله عَلَمْ الله عَلَمْ الله عَلَمُ الكلام . هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم وردَّكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ أنسيتم يـوم الأحـزاب إذ جـاؤكم من فـوقكم ومن أسفــل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟

قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا فأنزل الله سورة الفتح .

أقول : والأحاديث في قصة الحديبية كثيرة وما أوردناه طرف منها .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى عمر بن يـزيد بيّـاع السابـري قال : قلت لأبي عبد الله مَنْ نَنْكُ وما تأخر في كتابه : ﴿لَيْغَفَّر لَكَ الله مَا تَقَدَم مِن ذَنْبُكُ ومَا تَأْخَر في قال : ما كان له ذنب ولا همّ بذنب ولكن الله حمله ذنوب شيعته ثم غفر لها .

وفي العيون في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علله فقال المأمون : يا ابن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، إلى أن قال = قال : فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ .

عند مشركي مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم ، وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم . فقال المأمون : لله درك يا أبا الحسن .

وفي تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله طلني قال : ما ترك رسول الله عليه ﴿ إِنِّي أَخَافَ إِنْ عَصِيتَ رَبِّي عَذَابٍ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿ إِنِّي أَخَافَ إِنْ عَصِيتَ رَبِّي عَذَابٍ يَوْمَ عَظَيمٍ ﴾ حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

أقول: وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضاً ، والحديث لا يخلو من شيء لأنه مبني على كون المراد بالذنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة .

وفي الكافي بإسناده إلى جميل قال: سألت أبا عبد الله طنك عن قـول الله عز وجـل: ﴿هو الـذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ قال: الإيمان قال عـز من قائل: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾.

أقول : ظاهر الرواية أنه عَالِمُنَهُ أخذ قوله تعالى في الآية : ﴿ليزدادوا إيماناً سع إيمانهم﴾ تفسيراً للسكينة ، وفي معنى الرواية روايات أخر .

وفيه بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله طلنة قال : قلت له : أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : ما لا يقبل الله شيئاً إلا به . قلت : وما هو ؟ قال : الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً .

قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟ قال: الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بين في كتابه واضح نوره ثابتة حجته يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه. قال: قلت: صف لي جعلت فداك حتى أفهمه قال: الإيمان حالات ودرجات وصفات ومنازل فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص المبين نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه.

قلت : إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد ؟ قال : نعم . قلت : كيف ذلك ؟ قال : لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرَّقه فيها فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أُختها فمن

لقي الله عز وجل حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عز وجل عليها لقي الله مستكملًا لإيمانه وهـو من أهل الجنـة ، ومن خان في شيء منهـا أو تعدى ما أمر الله عز وجل فيها لقى الله عز وجل ناقص الإيمان .

قلت: وقد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال: قول الله عزل وجل: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورة فَمنهم مَنْ يَقُولُ أَيْكُم زَادَتُهُ هَذَهُ إِيمَانًا فَأَمَا الذّينَ آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ ، وقال: ﴿ نحن نقص عليك نباهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ .

ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه ، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة ، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، وبالنقصان دخل المفرّطون النار .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِـهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللّهَ يَـدُ اللهِ فَوْقَ أَيْـدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللّهَ فَسَيَّوْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) .

(بیان)

فصل ثان من آيات السورة يعرف سبحانه فيه نبيه والمناه العريف إكبار وإعظام بأنه الرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله ، وقد كان الفصل الأول امتناناً منه تعالى على نبيه بالفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر وعلى المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم وإدخال الجنة ووعيد المشركين والمنافقين بالغضب واللعن والنار .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أُرسَلْنَاكُ شَاهِداً وَمِيشَراً وَنَـذَيْراً ﴾ المراد بشهادته والمراد بشهادته والمراد

شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح أو طالح ، وقد تكور في كـلامه تعـالى ذكر شهـادته سِنْدَاهِ ، وتقـدم استيفاء الكـلام في معنى هـذه الشهـادة ، وهي شهادة حمل في الدنيا ، وأداء في الأخرة .

وكونه مبشراً تبشيره لمن آمن واتقى بالقرب من الله وجزيل ثوابه ، وكونه نذيراً إنذاره وتخويفه لمن كفر وتولى بأليم عذابه .

قوله تعالى : ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبّحوه بكرة وأصيلاً﴾ القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة ، وقرأ ابن كثير وأبـو عمرو بيـاء الغيبة في الجميع وقراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق .

وكيف كان فالـلام في ﴿لتؤمنوا﴾ للتعليـل أي أرسلناك كـذا وكذا لتؤمنـوا بالله ورسوله .

والتعزير - على ما قيل - النصر والتوقير التعظيم كما قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمُ لَا تَرْجُونَ لِلّٰهُ وَقَاراً ﴾ (١) ، والظاهر أن الضمائر في «تعزروه وتوقروه وتسبحوه» جميعاً لله تعالى والمعنى : إنا أرسلناك كذا وكذا ليؤمنوا بالله ورسوله وينصروه تعالى بأيديهم وألسنتهم ويعظموه ويسبحوه - وهو الصلاة - بكرة وأصيلاً أي غداة وعشيا .

وقيل : الضميران في «تعزروه وتوقروه» للرسول ﷺ ، وضميـر «تسبحوه» لله تعالى ويوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة .

قوله تعالى : ﴿إِن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ إلى اخر الآية . البيعة نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات : وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى ، والكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك بنقل التصرفات التي يتحقق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق ، وبذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعة بيعة ومبايعة ، وحقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء .

فقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهُ تَنْزِيلُ بَيْعَتُهُ مُسْرِلَةً بَيْعَتُه

(۱) نوح : ۱۳ .

تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه والمناه من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله مبحانه لأن طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير وتأكيد بقوله: ﴿يد الله فوق أيديهم حيث جعل يده والله أيديهم حيث جعل يده والله والله كما جعل رميه والله الله رمي نفسه في قوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي ﴿ (١) .

وفي نسبة ما له عَشْنَاهُ مِن الشَّانَ إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى : ومن يطع الرسول فقد أطاع الله (٢) ، وقوله : ﴿فَإِنْهُم لا يَكْذَبُونُكُ وَلَكُنَ الظَّالَمِينَ بآيات الله يجحدون﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ (٤) .

وقوله: ﴿ وَمَن نَكَتُ فَإِنْمَا يَنَكُثُ عَلَى نَفْسُهُ ﴾ النكث نقض العهد والبيعة ، والجملة تفريع على قوله: ﴿ إِنَ الذِينَ يَبايعُونَكُ إِنَّمَا يَبَايعُونَ الله ﴾ والمعنى: فإذا كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين.

وقوله: ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ وعد جميل على حفظ العهد والإيفاء به .

والآية لا تخلو من إيماء إلى أن النبي سنوا كان عند البيعة يضع بده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس .

وللمفسرين في قوله : ﴿ يَدُ اللَّهُ فَوَقَ أَيْدِيهُم ﴾ أقوال أُخر .

فقيل: إنه من الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه وتقرير أن مبايعة الرسول سنوات كمبايعة الله من غير تفاوت فخيل أنه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول سنوات مكان يد الرسول وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيل على وجه هو منزه عنه.

وقيل: المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله لا بنصرتهم .

وفيه أن المقام مقام إعظام بيعة النبي علمانة وأن مبايعتهم لـه مبايعـة لله ،

(١) الأنفال: ١٧ . (٣) الأنعام: ٣٣ .

(۲) النساء : ۸۰ .
 (۲) النساء : ۸۰ .

والوثوق بالله ونصرته وإن كان حسناً في كل حال لكنه أجنبي عن المقام .

وقيل: المراد باليد العطية والنعمة أي نعمة الله عليهم بـالثواب أو بتـوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بـالمبايعـة ، وقيل: نعمتـه عليهم بالهـداية أعـظم من نعمتهم عليك بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله مشكلة هذه الآية هووتعزروه في قال النبي مسترية الأصحابه : ما ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : لتنصروه .

وفي العيون بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قبال: قلت لعلي بن موسى الرضا على يرويه أهل البن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث: أن المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم في الجنة ؟ فقال: يا أبا الصلت إن الله تعالى فضّل نبيه محمداً على جميع خلقه من النبيين والملائكة ، وجعل طاعته ماعته ، ومبايعته مبايعته ، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته ، فقال عز وجل: فمن يطع الرسول فقد أطاع الله وقال: فإن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم وقال النبي يترفق : من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله .

ودرجته في الجنة أعلى الـدرجات ، ومن زاره في درجته في الجنة من منـزله فقد زار الله تبارك وتعالى .

وفي إرشاد المفيد في حديث بيعة الرضا طلقة قال: وجلس المأمون ووضع للرضا طلقة وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفرشه ، وأجلس الرضا طلقة في أول الحضرة وعليه عمامة وسيف . ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له في أول الناس فرفع الرضا طلقة يده فتلقى بها وجهه وببطنها وجوههم فقال له المأمون : ابناس فرفع الرضا طلقة فقال الرضا طلقة : إن رسول الله طلقة هكذا كان يبايع فيايعه الناس ويده فوق أيديهم .

سورة الفتح ــ آية ١١ ــ ١٧ ٢٨١

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلِّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَآسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلُ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذُلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُــوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِـاللهِ وَرَسُــولِـهِ فَــإِنَّــا أَعْتَـدْنَــا لِلْكَــافِـرينَ سَعِيراً (١٣) وَللهِ مُلْكَ السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَـذَّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُــوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُــولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا آنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُريدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَـلاَمَ اللهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَـلْ تَحْسُدُونَنَـا بَـلّ كَانَـوا لاَ يَفْقَهُـونَ إِلَّا قَلِيـلاً (١٥) قُـلْ لِلْمُخَلِّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْـرَاب سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمِ أُولِي بَأْسِ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنَّ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلُّوا كَمَا تَوَلَّيْتُمَ مِّنْ قَبْلَ يُعَذَّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦) لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمٰى حَرَجُ وَلاَ عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُبطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَـهُ يُـدْخِلُّهُ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلُّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (١٧) .

(بیان)

فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله منظرة في سفرة الحديبية ولم ينفروا إذا استنفرهم وهم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم ودئل فتخلفوا عن النبي منظرة ولم يصاحبوه قائلين: إن محمداً ومن معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر

دارهم فقتلوهم قتـلًا ذريعـاً ، وإنهم لن يـرجعـوا من هـذه السفـرة ولن ينقلبــوا إلى ديارهم وأهليهم أبداً .

فأخبر الله سبحانه لنبيه مسلمة في هذه الآيات أنهم سيلقونك ويعتلون في قعودهم باشتغالهم بالأموال والأهلين ويسألونك أن تستغفر الله لهم ، وكذبهم الله فيما قالوا وذكر أن السبب في قعودهم غير ذلك وهو ظنهم السوء ، وأخبر أنهم سيسألونك اللحوق وليس لهم ذلك غير أنهم سيدعون إلى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل وإن تولوا فأليم العذاب .

قوله تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾ إلى آخر الآية ، قال في المجمع : المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد ، وهو مشتق من الخلف وضده المقدم . انتهى . والأعراب على ما قالوا - الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة ، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه .

وقوله: ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾ إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي سيناتي من المحديبية للنبي سيناتي ، وفي اللفظ دلالة مّا على نزول الآيات في رجوعه سينات من الحديبية إلى المدينة ولما يردها .

وقوله: ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾ أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا وأهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخفنا ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك ، وفي سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلتهم الأموال والأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع في الذنب .

وقوله: ﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين، ولا أنهم يهتمون باستغفاره وسنوس ، وإنما سألوه ليكون ذلك جنة يصرفون بها العتاب والتوبيخ عن أنفسهم.

وقوله : ﴿قُلَ فَمَن يَمَلُكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيئًا إِنْ أَرَادُ بَكُمْ ضَرَاً أَوْ أَرَادُ بَكُمْ نَفْعاً﴾ جواب على عما اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصّله أن الله سبحانه

له الخلق والأمر وهو المالك المدبر لكل شيء لا رب سواه فلا ضر ولا نفع إلا بإرادته ومشيّته فلا يملك أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير ، وإذا كان كذلك فانصرافكم عن الخروج مع النبي ويُما نصرة للدين واشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً .

فقوله: ﴿قَلَ فَمَن يَمَلُكُ لَكُم﴾ النح ، جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه ، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر وجلب الخير بظاهر الأسباب ومنها تدبيركم والقعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراده الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى : ﴿قَلَ لَن يَصِيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ .

والتمسك بالأسباب وعدم إلغائها وإن كان مشروعاً ماموراً به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهم منها كالدفاع عن الحق وإن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع والسعي .

وقوله : ﴿ بِل كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم : ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بِل ظنته أَن لَن يَنقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم ﴾ الخ ، بيان لما يشير إليه قوله : ﴿ بِل كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ من كذبهم في اعتذارهم ، والمعنى : ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبداً وأن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والق ، ق ولذلك تخلفتم .

وقـولـه: ﴿وزين ذلـك في قلوبكم﴾ أي زين الشيـطان ذلـك الـظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين وهو أن تتخلفوا ولا تخرجوا حذراً من أن تهلكـوا وتبيدوا .

وقوله : ﴿ وظننتم ظنَّ السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ البور - على ما قيل - مصدر بمعنى

الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين .

قيل: المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدأ ولا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مرَّ في قـوله في الآية السادسة من السورة: ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ بل هو أظهر.

قوله تعالى : ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتبدنا للكافرين سعيه أنه الجمع في هذه الآيات بين الإيمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله ، وفي الآية لحن تهديد .

وقوله: ﴿ فَإِنَا أَعتدنا للكَافرين سعيراً ﴾ كان مقتضى الظاهر أن يقال: أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى علة الحكم بتعليقه على المشتق، والمعنى أعتدنا وهيَّانا لهم لكفرهم سعيراً أي ناراً مسعّرة مشتعلة، وتنكير سعيراً للتهويل.

قوله تعالى : ﴿وقه ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً معنى الآية ظاهر وفيها تأييد لما تقدم ، وفي تذييل الملك المطلق بالإسمين : الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب وحتَّ على الاستغفار والاسترحام .

قوله تعالى: ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ﴾ إلى آخر الآية إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعاً في الغنيمة ، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبي مُسَنِّهُ والمؤمنون إليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصها الله تعالى بمن كان مع النبي مُسَنَّةُ في سفرة الحديبية لم يشرك معهم غيرهم .

والمعنى : أنكم ستنطلقون إلى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون : اتركونا نتبعكم .

وقوله: ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يَبِدُلُوا كَلَامُ الله ﴾ قيل: المراد به وعده تعالى أهل الحديبية أن يخصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله: ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ الآية ، ويشير إليه في هذه الآية بقوله: ﴿ إِذَا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ .

أن يمنعهم عن اتباعهم استناداً إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع .

وقوله: ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أي سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع: ﴿بل تحسدوننا﴾ وقوله: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ جواب عن قولهم: ﴿بل تحسدوننا﴾ لم يوجه الخطاب إليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث ولذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبي سَنْدَهُ وقال: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾.

وذلك أن قولهم: ﴿ بل تحسدوننا ﴾ إضراب عن قول النبي مسلم لهم بأمر الله : ﴿ لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ فمعنى قولهم: إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبية أن نشارككم في الغنائم وتريدون أن تختص بكم .

وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتمييز رسول الله مشت المعصوم الذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطة العقل وبلادة الفهم فهذا القول الذي واجهوا به النبي مشنس وهم مدعون للإيمان والإسلام أدل دليل على ضعف تعقلهم وقلة فقههم .

ومن هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلًا بساطة عقلهم وضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أن بعضهم يفقه القول وجلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم .

قوله تعالى : ﴿قُلُ للمخلفين مِن الأعراب ستدعون إلى قوم أُولِي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ النخ ، اختلفوا في هذا القوم من هم ؟ فقيل : المراد به هوازن ، وقيل : ثقيف ، وقيل : هم الروم في غزاة مؤتة وتبوك ، وقيل : هم أهل الردة قاتلهم أبو بكر بعد الرحلة ، وقيل : هم الفارس ، وقيل : أعراب الفارس وأكرادهم .

وظاهر قوله : ﴿ ستدعون ﴾ أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبي عَلَيْتُ بعد فتح خيبر من هوازن وثقيف والروم في مؤتة ، وقوله تعالى سابقاً : ﴿ قُلَ لَن تَتَبَعُونا ﴾ ناظر إلى نفي اتباعهم في غزوة خيبر على ما يفيده السياق .

وقوله : ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ استئناف يدل على التنويع أي إما تقاتلون أو

يسلمون أي إنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهـل الكتاب بـل إما أن يقاتلوا أو يسلموا .

ولا يصح أخذ ﴿تقاتلونهم﴾ صفة لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال القوم لا إلى قتال قتال القوم لا إلى قتال قوم يقاتلونهم، وكذا لا يصح أخذ حالاً من نائب فاعل ﴿ستدعون﴾ لأنهم يدعون إليهم حال قتالهم ، كذا قيل .

ثم تمم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال : ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ أي بالمعصية وعدم تطيعُوا﴾ أي بالخروج إليهم ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا﴾ أي بالمعصية وعدم الخروج ﴿كما توليتم من قبل﴾ ولم تخرجوا في سفرة الحديبية ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معاً .

قول تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعسرج حرج ولا على المحسوب حرج ولا على المريض حرج ﴾ رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج .

ثم تمّم الآية أيضاً بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال : ﴿وَمِن يَطْعُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ عَذَابًا أَلْيَما ﴾ .

لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ آلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ اللّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰ فِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (٢٠) وَأَخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا لِللّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ وَلَا نَصِيراً (٢١) وَلُو قَاتَلَكُمُ اللّهِ الّذِينَ كَفَرُوا لَوَلُوا آلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً (٢٢) سَنَّةَ اللهِ اللّهِ اللهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللهِ اللّهِ اللهِ اللّهِ اللّهِ الللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ الللهِ اللّهِ الللللّهُ الللللّهُ الللّهِ الللللّهِ الللللّه

الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْن مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) هُمُ الَّـذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكَمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاً رِجَالً مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُّؤْمِنَاتُ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمِ لِيُـدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَـوْ تَزَيَّلُوا لَعَـذَّبْنَا الَّـذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَـذَاباً أَلِيماً (٢٥) إِذْ جَعَـلَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةِ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْـوَى وَكَانُـوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَـا وَكَـانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّوْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِـدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتَحَا قَرِيباً (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُـدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلَّهِ وَكُفَىٰ بَاللَّهِ شُهِيداً (٢٨)

(بیان)

فصل رابع من الآيات يذكّر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي عَشَنَاتُ في خروجه إلى الحديبية فيذكّر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي عَشَنَاتُ تحت الشجرة ثم يمتنّ عليهم بإنزال السكينة وإثابة فتح قريب ومغانم كثيرة يأخذونها .

ويخبرهم ـ وهو بشرى ـ أن المشركين لو قاتلوهم لانهزموا وولّوا الأدبار وأن الرؤيا التي رآها النبي سَنَاتُ رؤيا صادقة سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم لا يخافون فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ الرضا

هيئة تطرأ على النفس من تلقّي ما يلائمها وتقبله من غير دفع ، ويقابله السخط ، وإذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابة والجزاء الحسن دون الهيئة الطارئة والصفة العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى ، فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات .

والرضا - كما قيل - يستعمل متعدياً إلى المفعول بنفسه ومتعدياً بعن ومتعدياً بالباء فإذا عدّي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو : رضيت زيداً ، وعلى المعنى نحو : رضيت أمارة زيد ، قال تعالى : ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾(١) ، وإذا عدّي بعن دخل على الذات كقوله : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾(١) ، وإذا عدّي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى : ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ .

ولما كان الرضا المنسوب إليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة والجزاء ، والجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى إلى الذات وعدّي بعن كما في الآية ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾ نوع عناية استدعى عد الرضا وهو متعلق بالعمل متعلقاً بالذات وهو أخذ بيعتهم التي هي متعلقة الرضا ظرفاً للرضا فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقاً بهم أنفسهم .

فقوله : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له سَنْ تحت الشجرة .

وقد كانت البيعة يوم الحديبية تحت شجرة سمرة بها بايعـه المنظرة من معه من المؤمنين وقد ظهر بـه أن الظرف في قـوله : ﴿إِذْ يَبَايَعُونَـكُ مَتَعَلَقَ بِقُولَـه : ﴿لقد رضي ﴾ واللام للقسم .

قوله تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ تفريع على قوله : ﴿ لقد رضي الله ﴾ الخ ، والمراد بما في قلوبهم حسن النية وصدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضياً عند الله لا بصورته وهيئته بل بصدق النية وإخلاصها .

فالمعنى : فعلم ما في قلوبهم من صدق النية وإخلاصها في مبايعتهم لك .

⁽١) المائدة: ٣.

⁽٢) البينة : ٨ .

وقيل: المراد بما في قلوبهم الإيمان وصحته وحب الدين والحسرص عليه، وقيل: الهم والأنفة من لين الجانب للمشركين وصلحهم. والسياق لا يساعــد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى.

فإن قلت: المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيَّتهم الصادقة المخلصة في المبايعة كما ذكر ، وعلمه تعالى بنيتهم الموصوفة بالصدق والإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لا مسبب متفرع على الرضا ، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال: لقد علم ما في قلوبهم فرضي عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآية .

قلت: كما أن للمسبب تفرعاً على السبب من حيث التحقق والوجود كذلك للسبب مسواء كان تاماً أو ناقصاً - تفرع على المسبب من حيث الانكشاف والظهور، والرضا كما تقدم صفة فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح وما يثيب به ويجزي صاحب العمل، والذي انتزع عنه الرضا في المقام هو مجموع علمه تعالى بما في قلوبهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها.

فقوله : ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة﴾ الخ ، تفريع على قوله : ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾ للدلالة على حقيقة هذا الرضا والكشف عن مجموع الأمور التي بتحققها يتحقق معنى الرضا .

ثم قوله : ﴿فَأَنْزُلُ السَّكِينَةُ عَلَيْهُم﴾ متفرع على قوله : ﴿فَعَلَمُ مَا فَي قَلُوبُهُم﴾ وكذا ما عطف عليه من قوله : ﴿وأثابِهِم فَتَحاً قريباً ﴾ النح .

والمراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق وكذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها ، غنائم خيبر ، وقيل : المراد بالفتح القريب فتح مكمة ، والسياق لا يساعد عليه .

وقوله : ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي غالباً فيما أراد متقناً لفعله غيـر مجازف فيه .

قوله تعالى : ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه ﴾ الخ ، المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من

الحديبية أعمَّ من مغانم خيبر وغيرها فتكون الإشارة بقوله : ﴿فعجل لكم هذه﴾ إلى المغانم المذكورة في الآية السابقة وهي مغانم خيبر نـزلت منزلـة الحاضـرة لاقتراب وقوعها .

هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة ، وأما على ما قيل : إن الآية نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشارة في قوله : ﴿فعجل لكم هذه﴾ ظاهر لكن المعروف نزول السورة بتمامها في مرجع النبي منطالة من الحديبية بينها وبين المدينة .

وقيل : الإشارة بهذه إلى البيعة التي بايعوها تحت الشجرة وهو كما ترى .

وقوله : ﴿ وَكُفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُم ﴾ قيل : المراد بالنَّاسِ قبيلتا أسد وغطفان هموا بعد مسير النبي مُنْسُ إلى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة فقذف الله في قلوبهم الرعب وكف أيديهم .

وقيل: المراد مالك بن عوف وعيينة بن حصين مع بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة يهود خيبر فقذف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا، وقيل: المراد بالنـاس أهل مكة ومن والاها حيث لم يقاتلوه ع^{مزين} ورضوا بالصلح.

وقوله: ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ عطف على مقدر أي وعدهم الله بهذه الإثابة إثابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجلة والمؤجلة لمصالح كذا وكذا ولتكون آية للمؤمنين أي علامة وأمارة تدلهم على أنهم على الحق وأن ربهم صادق في وعده ونبيهم سنسة صادق في إنبائه .

وقد اشتملت السورة على عدة من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله: وسيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا الخ ، وقوله: وسيقول المخلفون إذا انطلقتم النخ ، وقوله: وقل للمخلفين من الأعراب ستدعون النخ ، وما في هذه الآيات من وعد الفتح والمغانم ، وقوله بعد: ووأخرى لم تقدروا عليها النخ ، وقوله بعد: ولقد صدق الله ورسوله الرؤيا النخ .

وقوله: ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ عطف على ﴿تكون ﴾ أي وليهديكم صراطاً مستقيماً وهو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحق وبسط الدين ، وقيـل : هو الثقة بالله والتوكل عليه في كل ما تأتون وتذرون ، وما ذكرناه أوفق للسياق .

قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَى لَمْ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا قَـدَ أَحَاطُ اللهِ بِهِـا وَكَانَ اللهِ عَلَى كَـل

شيء قديراً﴾ أي وغنائم أُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطـــة قدرة وكــــان الله على كل شيء قديراً .

فقوله : ﴿ أُخرى ﴾ مبتدأ و ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ صفته وقولـه : ﴿ قد أحـاط الله بها ﴾ خبره الثاني وخبره الأول محـذوف ، وتقديـر الكلام : وثمَّـة غنائم أخـرى قد أحاط الله بها .

وقيل: قوله: ﴿أخرى﴾ في موضع نصب بالعطف على قوله: ﴿هـذه﴾ والتقدير: وعجَّل لكم غنائم أخرى، وقيل: في موضع نصب بفعل محذوف، والتقدير: وقضى غنائم أخرى، وقيل: في موضع جر بتقدير رب والتقدير: ورب غنائم أخرى، وقيل: في موضع جر بتقدير دب والتقدير: وربغنائم أخرى، وهذه وجوه لا يخلوشيء منها من وهن.

والمراد بالأخرى في الآية ـعلى ما قيل ـغنائم هوازن ، وقيل : المراد غنائم فارس والروم ، وقيل : المراد فتح مكة والموصوف محذوف ، والتقدير : وقرية أخرى لم تقدروا عليها أي على فتحها ، وأول الوجوه أقربها .

قوله تعالى : ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولُّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم ولي يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم ، ويتخلص في أنهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم ، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ سُنَّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ﴿ سنة الله ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر أي سن سنة الله أي هذه سنة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نيَّاتهم على أعدائهم من الذين كفروا ولن تجد لسنة الله تبديلاً كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورستلي ﴾ (١) . ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلا بما خالفسوا الله ورسوله بعض المخالفة .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي كفُّ أبديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ الخ ، الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن

⁽١) المجادلة : ٢١ .

الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئين بالحديبية وهي بطن مكة لقربها منها واتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم وذلك أن كلاً من الفئين كانت أعدى عدو للأخرى وقد اهتمت قريش بجمع الجمع من أنفسهم ومن الأحابيش، وبايع المؤمنون النبي والنبي على أن يقاتلوا، وعزم النبي والذين آمنوا على الكفار حيث النبي والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيراً.

قوله تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محلَّه﴾ العكوف على أمر هو الإقامة عليه، والمعكوف ـ كما في المجمع ـ الممنوع من الذهاب إلى جهة بالإقامة في مكانه، ومنه الاعتكاف وهو الإقامة في المسجد للعبادة.

والمعنى: المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي ـ الذي سقتموه ـ حال كونه محبوساً من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى ، وقد كان النبي منتا ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هدياً لذلك .

قوله تعالى : ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرَّة بغير علم﴾ الوطء الدوس ، والمعرَّة المكروه ، وقوله : ﴿أَنْ تَطؤهم ﴾ بدل اشتمال من مدخول لولا ، وجواب لولا محذوف ، والتقدير : ما كفَّ أيديكم عنهم .

والمعنى : ولولا أن تدوسوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كفّ الله أيديكم عنهم .

وقوله: ﴿لِيدخل الله في رحمته من يشاء﴾ الـــلام متعلق بمحذوف، والتقدير: ولكن كفَّ أيــديكم عنهم ليدخل في رحمته أولئـك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإياكم بحفظكم من إصابة المعرَّة.

سورة الفتح ـ آية ٢٥ ـ ٢٦ ٢٩٣

وقيل : المعنى : ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح .

وقوله: ﴿ لَو تزيلوا لَعَذَبنا النَّذِينَ كَفُرُوا مِنهُمَ عَذَاباً أَلَيماً ﴾ التزيل التفرق وضمير ﴿ تزيلوا ﴾ لجميع من تقدم ذكره من المؤمنين والكفار من أهل مكة أي لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعنذبنا النّين كفروا من أهل مكة عنذاباً أليماً لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين.

قوله تعالى : ﴿إِذْ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ إلى أخر الآية قال الراغب : وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فيقال : حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى : ﴿حمية الجاهلية ﴾ ومن ذلك استعير قولهم : حميت المكان حمى انتهى .

والظرف في قوله: ﴿إذ جعل﴾ متعلق بقوله سابقاً: ﴿وصدّوكم﴾ وقيل: متعلق بقوله سابقاً: ﴿وصدّوكم﴾ وقيل: متعلق باذكر المقدر، والجعل بمعنى الإلقاء و «الذين كفروا» فاعله والحمية مفعوله و «حمية الجاهلية» بيان للحمية والجاهلية وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملة الجاهلية.

ولو كان وجعل، بمعنى صيّر كان مفعوله الثاني مقدراً والتقدير إذ جعل الـذين كفروا الحمية راسخة في قلوبهم ووضع الـظاهر مـوضع الضميـر في قولـه: ﴿جعل الذين كفروا﴾ للدلالة على سبب الحكم .

ومعنى الآيـة : هم الذين كفـروا وصدّوكم إذ ألقـوا في قلوبهم الحمية حميـة الملة الجاهلية .

وقوله : ﴿فَأَنْزُلُ الله سَكِينَةُ عَلَى رَسُولُهُ وَعَلَى الْمُؤْمَنِينَ ﴾ تفريع على قوله : ﴿جَعَلُ الله وَعَلَى الله الله الله الله سبحانه بإنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ولم يستخفهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة .

وقوله : ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ أي جعلها معهم لا تنفكُ عنهم ، وهي على ما اختاره جمهور المفسرين كلمة التوحيد وقيل : المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل : المراد بها السكينة وقيل : قولهم : بلى في عالم الذرّ وهو أسخف الأقوال .

ولا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التي تأمر بالتقوى كما قال تعـالى : ﴿أُولئك

كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾(١) ، وقد أطلق الله الكلمة على الـروح في قوله : ﴿وَكَلَّمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مَنْهُ﴾(٢) .

وقوله: ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقّي هذه العطية الإلهية بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم ، وأما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد في غيرهم وأهل الشيء خاصته .

وقيل : المراد وكمانوا أحق بـالسكينة وأهلهـا ، وقيل : إن في الكــلام تقديمــاً وتأخيراً والأصل وكانوا أهلها وأحق بها وهو كما ترى .

وقـوله : ﴿وكـان الله بكل شيء عليمـاً﴾ تذييـل لقـولـه : ﴿وكـانـوا أحق بهـا وأهلها﴾ أو لجميع ما تقدم ، والمعنى على الوجهين ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ النح ، قبل : إن صدق وكذب مخففين يتعديان إلى مفعولين يقال : صدقت زيداً الحديث وكذبته الحديث ، وإلى المفعول الثاني بفي يقال : صدقته في الحديث وكذبته فيه ، ومثقلين يتعديان إلى مفعول واحد يقال : صدّقته في حديثه وكذّبته في حديثه .

واللام في ﴿لقد صدق الله﴾ للقسم ، وقوله : ﴿لتدخلن المسجد الحرام﴾ جواب القسم .

وقوله: ﴿ بِالحق ﴾ حال من الرؤيا والباء فيه للملابسة ، والتعليق بالمشيئة في قوله : ﴿ إِن شَاء الله ﴾ لتعليم العباد والمعنى : أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون المشركين .

وقوله: ﴿فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴿ «ذلك إشارة إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين ، والمراد بقوله: ﴿ من دُلك ﴾ أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام

⁽١) المجادلة : ٢٢ .

⁽٢) النساء : ١٧١ .

آمنين ما جهلتموه ولم تعلموه ، ولذلك جعل قبل دخولكم كـذلك فتحـاً قريبـاً ليتيسّر لكم الدخول كذلك .

ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية فهو الذي سوًى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسر لهم ذلك ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل.

ومن هنا تعرف أن قــول بعضهم : إن المراد بــالفتح القــريب في الآية فتــح خيبر بعيد من السياق ، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد .

وسياق الآية يعطي أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي مسئرة فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبي مسنرة من دخولهم المسجد آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدُّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الأية .

ومحصله: أن الرؤيا حقة أراها الله نبيه عليه وقد صدق تعالى في ذلك ، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، لكنه تعالى أخره وقدم عليه هذا الفتح وهو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق .

قوله تعالى : ﴿هُو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على المدين كله ﴾ النخ ، تقدم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣ ، وقوله : ﴿وكفى بالله شهيداً ﴾ أي شاهداً على صدق نبوَّته والوعد أن دينه سيظهر على المدين كله أو على أن رؤياه صادقة ، فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾ الآية ، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردوية عن سلمة بن الأكوع قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله مُشَرَّتُهِ: أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القـدس ، فثرنـا إلى

وفيه أخرج عبـد بن حميد ومسلم وابن مـردوية عن مغفـل بن يسار قــال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي شيراه يبايع الناس وأنا رافــع غصناً من أغصــانها عن رأســه ونحن أربع عشرة مائة ولم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر .

أقول: كون المؤمنين يومئذ أربع عشرة مائة مروي في روايات اخـرى ، وفي بعض الروايات ألف وثلاثمائة وفي بعضها إلى ألف وثمـان مائـة ، وكذا كـون البيعة على أن لا يفرُّوا وفي بعضها على الموت .

وفيه أخرج أحمد عن جابـر ومسلم عن أم بشر عنـه عن النبي مَشْرَاتُهُ قال : لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قـولـه تعـالى : ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾ قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

أقول: والرواية تخصص ما تقدم عليها ويدلّ عليه قوله تعالى فيما تقدم: ﴿ إِنْ الذَّيْنَ يَبَايِعُونُكُ إِنَمَا يَبَايِعُونُ الله يَدُ الله فَوقَ أَيْدِيهُم فَمَنَ نَكَثُ فَإِنْمَا يَنَكُثُ عَلَى فَضِهُ وَمِنَ أُوفِى بِمَا عَاهِدُ عَلَيْهُ الله فَسَيَوْتِيهُ أَجَراً عَظَيْماً ﴾ فاشترط في الأجر ـ ويلازمه الاشتراط في الرضا ـ الوفاء وعدم النكث ، وقد أورد القمي هذا المعنى في تفسيره وكأنه رواية .

وفي الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : ﴿أَذَ جَعَلَ الذَينَ كَفُرُوا﴾ الآية أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردوية والبيهقي في الدلائل عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية نرجىء الصلح الذي كان بين النبي النبي المشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا .

فجاء عمر إلى رسول الله مُشْرَاتُهِ فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . الباطل ؟ قال : بلى .

قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا ؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يــا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدأ .

فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى . قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى . قال: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً فنزلت سورة الفتح فأرسل رسول الله والدينة إلى عمر فأقرأه إياها فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم .

وفي كمال الدين بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله على في قول الله عز وجل : ﴿ لُو تَزيلُوا لَعَذَبنَا الذين كَفُرُوا مِنهُم عَذَاباً أَلَيماً ﴾ قال : لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذبنا الذين كفروا .

أقول : وهذا المعنى مروي في روايات أخر .

وبإسناده عن جميل قال : سألت أبا عبد الله الله علي عن قوله تعالى : ﴿وألـزمهم كلمة التقوى﴾ قال : هو الإيمان .

وفي الدر المنثور أخرج الترمـذي وعبد الله بن أحمـد في زوائد المسنـد وابن جرير والدارقطني في الأفراد وابن مردوية والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب عن النبي سننت ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال : لا إله إلا الله .

أقول: وروي هذا المعنى أيضاً بطرق أخرى عن علي وسلمة بن الأكوع وأبي هريرة ، وروي أيضاً من طرق الشيعة كما في العلل بإسناده عن الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جده الحسن بن علي مانك عن النبي مانك في حديث يفسر فيه هسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال مانك وقوله: لا إله إلا الله يعني وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلا بها ، وهي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة .

وفي المجمع في قصة فتح خيبر قال : ولما قدم رسول الله ع^{مليا} المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة ثم خرج منها غادياً إلى خيبر .

ذكر ابن إسحاق بـإسناده إلى أبي مـروان الأسلمي عن أبيـه عن جـده قـال :

خرجنا مع رسول الله مينية إلى خيبر حتى إذا كنا قريباً منها وأشرفنا عليها قال رسول الله مينية : قفوا فوقف الناس فقال اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّ هذه القرية وشر أهلها وشرّ ما فيها . أقدموا بسم الله .

وعن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله على الله على خيبر فسرنا ليـلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتـك وكان عـامر رجـلاً شاعراً فجعل يقول :

لا هم لولا أنت ما حجينا ولا تصدقنا ولا صلينا فاغفر فداء لك ما اقتنينا وثبّت الأقدام إن لاقينا وأنزلن سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أتينا وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله عَلَمْهُ عَلَى مِن هذا السائق؟ قالوا : عامر قال : يرحمه الله . قال عمر وهو على جمل له وجيب(١) : يـا رسول الله لـولا أمتعتنا بـه ، وذلك أن رسـول الله مُمْمَلُكُ ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد .

قالوا: فلما جدٌّ الحرب وتصافُّ القوم خرج يهودي وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرّب إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر وهو يقول :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهودي في ترس عامر وكان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه .

قال سلمة : فإذا نفر من أصحاب رسول الله مَشْنَتْ يقولون : بطل عمل عامر قتل نفسه . قال : فأتيت النبي مُشَنَّةِ وأنا أبكي فقلت : قالوا : إن عامراً بطل عمله ، فقال : من قال ذلك ؟ قلت : نفر من أصحابك ، فقال : كذب أولئك بل

(١) وجب البعير أعيى ، ووجب برك وضرب بنفسه الأرض .

أوتي من الأجر مرتين .

قال: فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصة شديدة ثم إن الله فتحها علينا ، وذلك أن النبي علم النبي علم النبي علم النبي علم اللواء عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله يجبنه أصحابه ويجبنهم ، وكان رسول الله علم الخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فقال حين أفاق من وجعه: ما فعل الناس بخيبر ؟ فاخبر فقال : لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

وروى البخاري ومسلم عن قتيبة بن سعيد قال: حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني عن أبي حازم قال: أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله مسترات قال يوم خيبر: لاعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدركون بجملتهم أنهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله مسترات كلهم يرجون أن يعطاها.

فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله مشته في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

قال سلمة : فبرز مرحب وهو يقول : قـد علمت خيبر أني مـرحب . . الأبيات ، فبرز له علي وهو يقول :

أنا الذي سمَّتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره أوفيهم بالصاع كسل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله وكان الفتح على يده .

أورده مسلم في صحيحه .

وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله م^{منرات} قبال : خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله م^{منرات} ، فلما دنيا من الحصن خرج إليه أهله

فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول علي باب الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتـل حتى فتح الله عليـه ثم ألقاه من يـده ، فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فمـا استطعنـا أن نقلبه .

وبإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي قــال : حدثني جــابــر بن عبــد المسلمــون عليـــه جــابــر بن عبــد المسلمــون عليـــه فاقتحموها ، وأنه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلًا .

قـال : وروي من وجه آخـر عن جابـر : ثم اجتمع عليـه سبعون رجـلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب .

وبإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان على يلبس في الحر والشتاء القباء المحشو الثخين وما يبالي الحر فأتاني أصحابي فقالوا: إنا رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيت؟ فقلت: وما هو؟ قالوا: رأيناه يخرج علينا في الحر الشديد في القباء المحشو الثخين وما يبالي الحر، ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئاً؟ فقلت: لا فقالوا: فسل لنا أباك عن ذلك فإنه يسمر معه فسألته فقال: ما سمعت في ذلك شيئاً.

فدخل على على فسمر معه ثم سأله عن ذلك فقال: أو ما شهدت خيبر؟ قلت: بلى . قال: أفما رأيت رسول الله حين دعا أبا بكر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم ثم جاء بالناس وقد هزم ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم فقاتلهم ثم رجع وقد هزم .

فقال رسول الله مُبِمِنْ : لاعطينَ الراية اليوم رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يذيه كرّاراً غير فرار فـدعاني وأعـطاني الرايـة ثم قال : اللهم أكفه الحر والبـرد فما وجـدت بعد ذلـك حراً ولا بـرداً ، وهذا كله منقـول من كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي .

قـال الطبـرسي: ثم لم يزل رسـول الله عِمَلِيَّ يفتـح الحصـون حصناً حصناً ويحـوز الأموال حتى انتهـوا إلى حصن الوطيـح والسلالم وكـان آخـر حصـون خيبـر افتتح، وحاصرهم رسول الله عِمْرِيَّ بضع عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق: ولما افتتح القموص حصن أبي الحقيق أتي رسول الله ومناه بصفية بنت حيى بن أخطب وباخرى معها فمر بهما بلال وهو الذي جاء بهما على قتلى من قتلى يهود فلما رأتهم التي معها صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ومناه قال: اعزبوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه، وقال لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟.

وكانت صفية قد رأت في المنام ـ وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ـ أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً ولطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها فاتي بها رسول الله منطقة وبها أثر منها فسألها رسول الله منطقة ما هو ؟ فأخبرته .

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله على خفن أنزل فاكلمك؟ قال: نعم . فنزل وصالح رسول الله على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الندرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله على المقاتلة وعلى وبين ما كان لهم من مال وأرض على الصفراء والبيضاء والكراع(١) والخلقة وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، وقال رسول الله على فرثت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً فصالحوه على ذلك .

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله نَشَلُوهِ يَسَلُوهِ يَسَلُوهِ يَسَلُوهِ يَسَلُوهُ يَسَلُوهُ يَسَلُونَهُ أَنْ يَسْيَرُهُم ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال ففعل وكان ممن مشى بين رسول الله عَشِرَهُم وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله مَشْنَاتُ أن يعاملهم الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله مَشْنَاتُ على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فيئاً بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله مَشْنَاتُ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

⁽١) الكراع : بضم الكاف مطلق الماشية والخلفة بالكسر فالسكون الاثاث والبز الثوب .

ولما اطمأن رسول الله علم الله علمت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله علم فقيل لها : الذراع فأكثرت فيها السم وسمّت سائر الشاة ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظماً فانتهش منه فقال رسول الله علم والته الفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنها مسمومة ثم دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على كتف هذه الشاة يخبرني أنها مسمومة ثم دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟ فقالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحت منه فتجاوز عنها رسول الله عليث ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .

قال: ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله على تعوده في مرضه الذي تعود في مرضه الذي تعوفي فيه فقال منظمة المسلمون فيه فقال منظمة : يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري ، وكان المسلمون يرون أن رسول الله منطبة مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة .

* * *

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدًاءُ عَلَىٰ آلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَوَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيَماهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي آلْانْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَآسْتَغْلَظَ فَآسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَآسْتَغْلَظَ فَآسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يَعْجِبُ اللهِ اللهِ اللهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا يُعْجِبُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩) .

(بیان)

الآية خاتمة السورة تصف النبي نطرت وتصف الذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل وتعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعداً جميلاً ، وللآية اتصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق .

قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله ﴾ إلى آخر الآية ، الظاهر أنه مبتدأ وخبر فه و كلام تام ، وقيل: ﴿محمد ﴾ خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد إلى الرسول في الآية السابقة والتقدير: هو محمد، و ﴿رسول الله ﴾ عطف بيان أو صفة أو بدل و ﴿الذين معه ﴾ معطوف على المبتدأ و ﴿أشداء على الكفار ﴾ الخ ، خبر المبتدأ .

وقوله: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ مبتدأ وخبر ، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه والشدة والرحمة المذكورتان من نعوتهم .

وتعقيب قوله: ﴿أشداء على الكفار﴾ بقوله: ﴿رحماء بينهم﴾ لدفع ما يمكن أن يتوهم أن كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشدة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله: ﴿رحماء بينهم﴾ وأفادت الجملتان أن سيرتهم مع الكفار الشدة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة.

وقوله: ﴿تراهم ركَعاً سجّداً ﴾ الركّع والسجّد جمعا راكع وساجد ، والمراد بكونهم ركعاً سجداً إقامتهم للصلاة ، و ﴿تراهم ﴾ يفيد الاستمرار ، والمحصل : أنهم مستمرون على الصلاة ، والجملة خبر بعد خبر للذين معه .

وقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضَلًا مِنَ اللهِ وَرَضُوانًا ﴾ الابتغاء الطلب ، والفضل العطية وهو الثواب ، والرضوان أبلغ من الرضا .

والجملة إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان الأنسب أن تكون حالًا من ضمير المفعول في ﴿تراهم﴾ وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقاً كما هو الظاهر كانت خبراً بعد خبر للذين معه .

وقوله: ﴿ سيماهم في وجوهم من أثر السجود ﴾ السيما العلامة و ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿ من أثر السجود ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر أو بيان للسيما أي إن سجودهم لله تـذللاً وتخشعاً أثر في وجوههم أثراً وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم ، ويقرب من هذا المعنى ما عن الصادق الشاهر في الصلاة (١) .

 ⁽١) رواه الصدوق في الفقيه والمفيد في روضة الواعظين مرسلًا عن عبد الله بن سنان عنه عليه
 السلام .

وقيل : المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانـوا إنما يسجـدون على التراب لا على الأثواب .

وقيـل : المراد سيمـاهم يوم القيـامة فيكـون موضـع سجودهم يـومئذٍ مشـرقـاً مستنيراً .

وقوله: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ المثل هو الصفة أي الذي وصفناهم به من أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ النح ، وصفهم الذي وصفناهم به في الكتابين التوراة والإنجيل .

فقوله: ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ معطوف على قوله: ﴿مثلهم في السوراة﴾ وقيل: إن قوله: ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ النخ، استثناف منقطع عما قبله، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ النخ، فيكون وصفهم في التوراة هو أنهم أشداء على الكفار _ إلى قوله _: ﴿من أثر السجود﴾، ووصفهم في الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه ؛ الخ.

وقوله : ﴿كررع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع﴾ شطؤ النبات أفراخه التي تتولىد منه وتنبت حوله ، والإيـزار الإعـانـة ، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة ، والسوق جمع ساق ، والزرّاع جمع زارع .

والمعنى : هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت وغلظت وقـام على سوقـه يعجب الزارعين بجودة رشده .

وفيه إشارة إلى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدَّة والقوَّة يوماً فيومـاً ولذلـك عقبَّه بقوله : ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ .

وقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً في ضمير ﴿منهم للذين معه ، و ومن المتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم ويفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوثاً وبقاء وعمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم في قوله : ﴿إن الذين ارتدوا على الذين ارتدوا على النفاق المدينة والله على النفاق الدين التدوا على النفاق الدين التدوا على النفاق الدين التدوا على النفاق الدين التدوا على النفاق الذين التدوا التدوا الذين التدوا التدو

⁽١) التوبة : ١٠١ .

سورة الفتح ــ آية ٢٩ ٢٠٠٠ سورة الفتح ــ آية ٢٩

أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى إلى أن قال ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾(١) .

أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك (٢) وآية التبيّن في نسأ الفاسق وأمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم .

ونظير هذا الاشتراط ما تقدم في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الذين يَبَايِعُونَكَ إِنْمَا يَبَايُعُونَكَ إِنْمَا يَبَكُ عَلَى نَفْسَهُ وَمِنَ أُوفَى بِمَا عَاهِدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُوتِيهُ أَجِراً عَظَيْماً ﴾ ، ويؤيده أيضاً ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى : ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ﴾ حيث فسره بقوله : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء ، وقد تقدمت الرواية .

ونظير الآية أيضاً في الاشتراط قوله تعالى: ﴿وعد الله الـذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ إلى أن قال ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (٣).

وقيل : إن «من» في الآية بيانية لا تبعيضية فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه .

وهو مدفوع _ كما قيل _ بأن ومن، البيانية لا تدخل على الضمير مطلقاً في كلامهم ، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى : ﴿لُو تَزيلُوا لَعَذَبْنَا الذَيْنَ كَفُرُوا مِنْهُم ﴾ مبني على إرجاع ضمير ﴿تزيلُوا ﴾ إلى المؤمنين وضمير ﴿منهم ﴾ للذين كفروا ، وقد تقدم في تفسير الآية أن الضميرين جميعاً راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكة فتكون ومن، تبعيضية لا بيانية .

وبعد ذلك كله لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولاً مطلقاً من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح وكانوا مغفورين ـ آمنوا أو أشركوا وأصلحوا

⁽۱) محمد : ۳۰

⁽٣) فمن أهل الإفك من هو صحابي بدري وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحَصَّنَاتَ الْغَافَلاتُ المؤمناتُ لَعَنُوا فِي الْدَنِيا وَالأَخْرَةُ وَلَهُمْ عَذَابِ عَظِيمٍ النُّور : ٣٣ ، ومن نـزل فيه : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسَقَ فَاسَقَ وَقَدْ سَمَاهُ اللهُ فَاسَقَا وقد قال فَاسَق بَنَا فَتِينُوا ﴾ الحجرات : ٦ . وهو الوليد بن عقبة صحابي وقد سماه الله فاسقاً وقد قال تعالى : ﴿فَانَ الله لا يَرْضَى عَنَ القومِ الفاسقين ﴾ التوبة : ٩٦ .

⁽٣) النور : ٥٥ .

أو فسقوا ـ لزمته لزوماً بيناً لغوية جميع التكاليف الدينية في حقهم وارتفاعها عنهم وهذا مما يدفعه الكتاب والسنة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه وإن لم يتعرض له في اللفظ ، وقد قال تعالى في أنبيائه : ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾(١) ، فأثبته في أنبيائه وهم معصومون فكيف فيمن هو دونهم .

فإن قيل: اشتراط الوعد بالمغفرة والأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح اشتراط عقلي كما ذكر ولا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله: ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ يشهد باتصافهم بالإيمان وعمل الصالحات وأنهم واجدون للشرط.

وخاصة بالنظر إلى تأخير (منهم) عن قوله: (الدين آمنوا وعملوا الصالحات) حيث يدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله في آية النور: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم) أن كما ذكره بعضهم، ويؤيده أيضاً قوله في مدحهم (تراهم ركعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً حيث يدل على الاستمرار.

قلنا: أما تأخير ﴿منهم﴾ في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفك عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ولا يترتب على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة والأجر ثم قوله: ﴿منهم﴾ متعلق بمجموع الموضوع فمن حق، أن يذكر بعد تمام الموضوع وهو ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ، وأما تقدم الضمير في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم﴾ فلأنه مسوق سوق البشرى للمؤمنين والأنسب لها التسريع في خطاب من بشر بها لينشط بذلك وينبسط لتلقي البشرى .

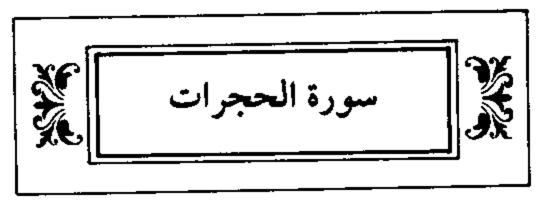
وأما دلالة قوله: ﴿تراهم ركعاً سجداً ﴾ النح ، على الاستمرار فإنما يدل عليه في ما مضى إلى أن ينتهي إلى الحال ، وأما في المستقبل فلا ومصب إشكال لغوية الأحكام إنما هو المستقبل دون الماضي إذ معفرة الذنوب الماضية لا تـزاحم تعلق التكليف بـل تؤكده بخلاف تعلق المعفرة المطلقة بما سيأتي فإنه لا يجامع بقاء

⁽١) الأنعام : ٨٨ .

⁽٢) النور : ٥٥ .

4.4	 YA 1 (-3) +
1 7	 17 40) - 74401 0144

التكليف المولوي على اعتباره فيرتفع بذلك التكيف وهو مقطوع البطلان . على أن ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصية ويرتفع بارتفاعها موضوع المغفرة فوجود المغفرة كذلك يستلزم عدمها .



مدنية ، وهي ثمان عشرة آية

بِسُم ِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِهِ وَآتَقُوا اللهَ اللهَ سَمِيعُ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَـهُ بِآلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضِ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُونَ أَصْواتَهُمْ يَخْفِرةً عَنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَٰ بِنَكَ الَّذِينَ آمْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَقْوَىٰ لَهُمْ مَّغْفِرة وَأَجْرُ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ آلْحُجُرَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْفُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللّهُ يَعْفُودٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَيْإٍ فَتَبَيْنُوا أَنْ فَوْلَ لَهُ مُولَالُهُ لَوْمِينَ (٦) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللّهُ عَقُولًا وَعَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَآعُلَمُوا أَنْ تَصِيبُوا قُومًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَآعُلَمُوا أَنْ فَيْكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأُمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَ اللّهَ حَبَّبَ فَيَكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأُمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ وَلَكُمْ الْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَالْفُسُوقَ وَالْفُسُونَ (٧) فَضَالًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللّهُ وَالْعُمْ وَاللّهُ مَنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللّهُ وَالْمُهُمْ وَاللّهُ مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللّهُ وَالْمُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ (^) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمُا عَلَىٰ ٱلْأَخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللّهَ يُجِبُ أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللّهَ يُجِبُ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا اللّهَ لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) .

(بیان)

تتضمن السورة مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياة السعيدة للفرد ويستقر النظام الصالح الطيب في المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه ومع رسوله كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة ، ومنها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي ، ومنها ما يتعلق بتفاضل الأفراد وهو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيء ويتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية وغيرها وتختتم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام وامتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان .

والسورة مدنية بشهادة مضامين آياتها سوى ما قيل في قـوله تعـالى : ﴿يَا أَيُهَـا النَّاسِ إِنَا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكُرُ وَأُنثَى﴾ الآية وسيجيء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَيُهَا الذَّينَ آمنُوا لا تقدّمُوا بَينَ يَدِي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم بين يدي الشيء أمامه وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري وإضافته إلى الله ورسوله معا لا إلى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه وبرسوله بإذنه كما قال تعالى : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ (١) .

ومن الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله : ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ آمَنُوا ﴾ وتـذييله بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا الله إنَّ الله سميع عليم ﴾ الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله ورسوله

⁽١) يوسف : ٤٠ .

⁽٢) النساء: ٦٤.

الجزء السادس والعشرون

هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية .

وبذلك ينظهر أن المراد بقوله : ﴿لا تقدموا﴾ تقديم شيء ما من الحكم قبال حكم الله ورسوله إما بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقبوا الأمر بــه من الله ورسولــه لكن تذييله تعــالى النهى بقولــه : ﴿إِنَّ اللَّهُ سميع عليم الشامل للقول دون تقديم الفعل ودون الأعم الشامل للقول والفعل وإلا لقيل: إن الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول وبالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾(١) ، فمحصّل المعنى : أن لا تحكموا فيما لله ولـرسولـه فيه حكم إلا بعـد حكم الله ورسـولـه أي لا تحكموا إلا بحكم الله ورسوله ولتكن عليكم سمة الاتباع والاقتفاء .

لكن بالنظر إلى أن كل فعل وتـرك من الإنسان لا يخلو من حكم لـه فيه وكـذلك العزم والإرادة إلى فعل أو تـرك يدخـل الأفعال والتـروك وكذا إرادتهـا والعزم عليهـا في حكم الاتباع ، ويفيد النهي عن التقديم بين يـدي الله ورسـولـه النهي عن المبـادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله ، وإلى فعل أو تـرك أو عزم وإرادة بـالنسبة إلى شيء منهما قبل تلقي الحكم من الله ورسوله فتكون الآية قـريبة المعنى من قـوله تعالى في صفة الملائكة : ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بسأمره يعملون﴾(٢) .

وهذا الاتباع المندوب إليه بقوله : ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ هو الدخول في ولاية الله والوقوف في موقف العبودية والسيـر في مسيرهـا بجعل العبد مشيئته تـابعة لمشيئة الله في مرحلة التشريع كما أنها تابعة لهـا في مرحلة التكـوين قال تعـالي : ﴿وَمَا تشاؤن إلا أن يشاء الله ﴾ (٣) ، وقبال : ﴿وَالله وَلَي الْمُؤْمَنِينَ ﴾ (٤) • وقبال : ﴿وَالله وَلِّي المتقين♦(٧) .

وللقوم في قوله تعالى : ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ وجوه :

منها : أن التقديم بمعنى التقدم فهـو لازم ومعنى ﴿لا تقــدمـوا بين يـــدي الله

(٥) الجاثية: ١٩. (٢) الإنسان: ٣٠ . (١) الحديد : ٤ .

(٢) الأنبياء: ٢٧.

ورسوله لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ، وربما قيل : إن التقديم في الآية بمعناه المعروف لكنه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله : ﴿ يحيى ويميت ﴾ (١) ، فيؤول المعنى إلى مجرد كون شيء قدام شيء فيرجع إلى معنى التقدم .

واللفظ مطلق يشمل التقدم في قـول أو فعـل حتى التقـدم على النبي التقديم على النبي التقدم الموقتة قبل وقتها وغير ذلك .

ومنها: أن المراد النهي عن التكلم قبل رسول الله سنران أي إذا كنتم في مجلسه وسئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب هو أولاً.

ومنها : أن المعنى : لا تسبقوه بقول أو فعل حتى يأمركم به .

ومنها: أن المعنى: لا تقدموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبي سَلَمَا وفعله ولا تمكنوا أحداً يمشي أمامه.

والظاهر أن تفسير ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله مسلمة فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشريف كقوله : أعجبني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أن السبقة على النبي مسلمة على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه .

ولعل التأمل فيما قدَّمناه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير إلى شيء من هذه الوجوه .

وقـوله : ﴿واتقـوا الله إن الله سميـع عليم﴾ أمـر بـالتقـوى في مـوقف الاتبـاع والعبودية ولا ظرف للإنسان إلا ظرف العبودية ولذلك أطلق التقوى .

وفي قوله : ﴿إِن الله سميع عليم﴾ تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتقوه بالانتهاء عن هذا النهي فلا تقدموا قولاً بلسانكم ولا في سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم وباطنكم وعلانيتكم وسركم .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصُواتُكُمْ فُوقَ صُوتَ النَّبِي ﴾

⁽١) الحديد : ٢ .

الخ ، وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه ويناه أرفع من صوته وأجهر لأن في ذلك كما قيل أحد شيئين : إما نوع استخفاف به وهمو الكفر ، وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به .

وقوله: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فصطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة.

وقوله: ﴿أَن تَحْبُطُ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لئلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم ، وهو متعلق بالنهيين جميعاً أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط ، وقد تقدم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب .

وجوّز بعضهم كون ﴿أن تحبط﴾ النح ، تعليلًا للمنهي عنه وهو السرفع والجهر ، والمعنى : فعلكم ذلك لأجل الحسوط منهي عنه ، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهي عنه أن الفعل المنهي عنه معلّل على الأول والفعل المعلّل منهي عنه على الثاني ، وفيه تكلف ظاهر .

وظاهر الآيـة أن رفع الصـوت فـوق صـوت النبي ﷺ والجهـر لـه بـالقـول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط .

وقد توجّه الآية بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائسر الأعمال كما في الكفر، قال في مجمع البيان: وقال أصحابنا: إن المعنى في قوله: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ أنه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي المناب وتوقيره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية.

ولأنه تعالى علَّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل وهم يعلقونه بـالمستحق على العمل وذلك خلاف الظاهر . انتهى . سورة الحجرات ـ آية ٢-١٠٠٠ ٢٠٠٠ ٢٠٣

وفيه أن الحبط المتعلق بالكفر الذي لا ريب في تعلقه بثواب الأعمال أيضاً متعلق في كلامه بنفس الأعمال كما في هذه الآية فلتحمل هذه على ما حملت عليه ذلك من غير فرق ، وكونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب عليه .

وقد توجّه الآية أيضاً بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبي مَنْ الله والجهر له بالقول ليسا بمحبطين من حيث أنفسهما بل من حيث إدّائهما أحياناً إلى إيذائه مَنْ الله وإيذاؤه كفر والكفر محبط للعمل.

قال بعضهم: المراد في الآية النهي عن رفع الصوت مطلقاً ومعلوم أن ملاكه التحذر مما يتوقع فيه من إيذاء النبي المنتقلة الذي هو كفر محبط للعمل بالاتفاق . فورد النهي عما هو مظنّة أذاه ـ سواء وجد هذا المعنى أو لا ـ حماية للحومة وحسماً للمادة .

ثم لما كان هذا المنهي عنه منقسماً إلى ما يبلغ حد الكفر وهو المؤذي له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولا دليل يميز أحد القسمين من الأخر ولم و فرض وجوده لم يلتفت إليه في كثير من الأحيان ، لـزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً مخافة أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى .

وإلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشارة بقوله تعالى : وأن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون وإلا فلو كان رفع الصوت والجهر بالقول منهيا عنهما مطلقاً سواء بلغا حد الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى : ووأنتم لا تشعرون و الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغا حد الأذى فيكون كفراً محبطاً قطعاً فالإحباط محقق على أي تقدير محبطاً قطعاً فالإحباط محقق على أي تقدير فلا موقع لإدعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقاً للعلم به بعد النهى . انتهى ملخصاً .

وفيه أن ظهور قوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بسالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ في النهي النفسي دون النهي المقدمي أخذاً بالاحتياط مما لا ريب فيه لكن كلا الفعلين مما يدرك كونه عملاً سيئاً عقلاً قبل ورود النهي الشرعي عنه كالافتراء والإفك، وكان الذين يأتون بهما المؤمنين كما صدر

النهي بقوله : ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ آمنُوا ﴾ وهم وإن أمكن أن يسامحوا في بعض السيئـات بحسبانه هيناً لكنهم لا يرضون ببطلان إيمانهم وأعمالهم الصالحة من أصله .

فنبّه سبحانه بقوله: ﴿أَن تَحَبَطُ أَعَمَالُكُمْ وَأَنتُمَ لَا تَشْعَرُونَ﴾ على أنكم لا تشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شيئاً منهما أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون .

فقوله : ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ ناظر إلى حالهم قبل النهي حيث كانـوا يشعرون بكون الفعل سيئة لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمة مساءته لهذا الحد ، وأما بعد صدور البيان الإلهى فهم شاعرون بالإحباط .

فالآية من وجه نظيرة قوله تعالى في آيات الإفك: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عنظيم﴾(١) ، وقبوله في آيات القيامة : ﴿وبندا لهم من الله ما لم يكنونوا يحتسبون﴾(٢) .

قوله تعالى: ﴿إِن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى الخ ، غض الصوت خلاف رفعه ، ومعنى الامتحان الابتلاء والاختبار وإنما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك ، وإذ يستحيل ذلك في حقه تعالى فالمراد به هذا التمرين والتعويد ـ كما قيل ـ أو حمل المحنة والمشقة على القلب ليعتاد بالتقوى .

والآية مسوقة للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله سننا بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنة للتقوى والذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه، وفيه تأكيد وتقوية لمضمون الآية السابقة وتشويق للانتهاء بما فيها من النهى.

وفي التعبير عنه مسلمة في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبي إشارة إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فما له فلمرسله ، وتعظيمه وتوقيره تعظيم لمرسله وتوقير له فغض الصوت عند رسول الله تعظيم وتكبير لله سبحانه ، والمداومة والاستمرار على ذلك _ كما يستفاد من قوله : ﴿ يغضون المفيد للاستمرار _ كاشف عن تخلقهم بالتقوى وامتحانه من قوله : ﴿ يغضون ﴾ المفيد للاستمرار _ كاشف عن تخلقهم بالتقوى وامتحانه

⁽١) النور : ١٥ .

⁽٢) الزمر : ٤٧ .

سورة الحجرات_ آية ٣-٦٠٠٠ ...٠٠٠ ٣١٥

تعالى قلوبهم للتقوى .

وقوله : ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ وعدجميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله، والعاقبة للتقوى .

قوله تعالى: ﴿إِن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ سياق الآية يؤدي أنه واقع وأنهم كانوا قوماً من الجفاة ينادونه والمراب من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان.

قوله تعالى : ﴿ وَلُو أَنهُم صَبِرُوا حَتَى تَخْرِجُ إِلَيْهُم لَكَانَ خَيْراً لَهُم وَاللهُ غَفُورُ رَحِيم ﴾ أي ولو أنهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لما فيه من حسن الأدب ورعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة ، وكان ذلك مقرباً لهم إلى مغفرة الله ورحمته لأنه غفور رحيم .

فقوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ كالناظر إلى ما ذكر من الصبر ويمكن أن يكون ناظراً إلى كبون أكثرهم لا يعقلون والمعنى: أن ما صدر عنهم من الجهالة وسوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل وفهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَيُهَا الذَّينَ آمنُوا إِنْ جَاءَكُم فَاسَقَ بَنِا فَتَبِينُوا ﴾ النَّ ، الفاسق ـ كما قيل ـ الخارج عن الطاعة إلى المعصية ، والنبأ الخبر العظيم الشان ، والتبين والاستبانة والإبانة ـ على ما في الصحاح ـ بمعنى واحد وهي تتعدى ولا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح والإظهار يقال : تبينت الأمر واستبنته وأبنته أي أوضحته وأظهرته ، وإذا لزمت كانت بمعنى الاتضاح والظهور يقال : أبان الأمر واستبان وتبين أي اتضح وظهر .

ومعنى الآية : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبينوا خبره بالبحث والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوماً بجهالـة فتصيروا نـادمين على ما فعلتم بهم .

وقد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر وهو من الأصول العقلائية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية ، وأمر بـالتبين في خبر

الفاسق وهو في معنى النهي عن العمل بخبره ، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته وهذا أيضاً كالإمضاء لما بنى عليه العقلاء من عدم حجية الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به وعدم ترتيب الأثر على خبره .

بيان ذلك : أن حياة الإنسان حياة علمية يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشر والنافع والضار والرأي الذي يأخذ به فيه ، ولا يتيسر له ذلك إلا فيما هو بمرأى منه ومشهد ، وما غاب عنه مما تتعلق به حياته ومعاشه أكثر مما يحضره وأكثر فاضطر إلى تتميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر ، ولا طريق إليه إلا السمع وهو الخبر .

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملًا ومعاملة مضمونه معاملة العملم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة والنظر إلى الجملة مما يتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفاً ابتدائياً ، وعليه بناء العقلاء ومدار العمل .

فالخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرائن قطعية توجب قطعية مضمونه كان حجة معتبرة من غير توقف فيها فإن لم يكن متواتراً ولا محفوفاً بما يفيد قطعية مضمونه وهو المسمى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه وإن لم يفده بحسب شخصه ، وكل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علماً وهو العلم الحقيقي أو الوثوق والظن الاطمئناني المعدود علماً عادة .

وإذا تمهد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتبين في خبر الفاسق : ﴿أَنْ تَصِيبُوا قُوماً بَجُهَالَة ﴾ الخ، يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة وحصول العلم بمضمون الخبر عندما يراد العمل به وترتيب الأثر عليه ففي الآية إثبات ما أثبته العقلاء ونفي ما نفوه في هذا الباب ، وهو إمضاء لا تأسيس .

قوله تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يبطيعكم في كثير من الأمر لعنتُم ﴾ النخ ، العنت الإثم والهلاك ، والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال النطاعة في الائتمار لما أمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جري المتبوع على ما يريده التابع ويهواه طاعة من المتبوع للتابع ومنه قوله تعالى في الآية : ﴿لو يطيعكم ﴾ حيث سمى عمل الرسول على ما يراه ويهواه المؤمنون طاعة منه لهم .

والآية على ما يفيده السياق من تتمة الكلام في الآية السابقة تعمم ما فيها من

الحكم وتؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبين في خبر الفاسق وتعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهالة ، ومضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أوردهم شرع الرشد ولذلك حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله وهو مؤيد عن عند الله وعلى بيّنة من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغيّ فعليهم أن يطيعوا الرسول منفن فيما يأمرهم به ويريدوا ما أراده ويختاروا ما اختاره ، ولا يصرّوا على أن يطيعهم في آرائهم وأهوائهم فإنه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا وهلكوا .

فقوله: ﴿وَاعلموا أَن فيكم رسول الله ﴾ عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿فَتَبَيِّنُوا ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على الحصر، والإشارة إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله مُشَرِّتُهُ فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد ويتجنبوا الغي ويرجعوا الأمور إليه ويطيعوه ويتبعوا أثره ولا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى: ولا تنسوا أن فيكم رسول الله ، وهو كناية عن أنه يجب عليهم أن يبرجعوا الأصور ويسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يبراه ويأمس به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم .

وقوله: ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتُم﴾ أي جهدتم وهلكتم ، والجملة كالجواب لسؤال مقدَّر كأن سائلًا يسأل فيقول: لماذا نرجع إليه ولا يسرجع إلينا ولا يوافقنا ؟ فأجيب بأنه ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتُم ﴾ .

وقوله: ﴿ ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم ﴾ استدراك عما يدلّ عليه الجملة السابقة: ﴿ لو يطبعكم في كثير من الأمر لعنتُم ﴾ من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك والغيّ فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان.

والمراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوباً عندهم وبتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به ويعرضون عما يلهيهم عنه .

وقـولـه : ﴿وكنرٌه إليكم الكفر والفسـوق والعصيان﴾ عـطف على ﴿حبّب﴾ وتكريه الكفر وما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفر عنها نفوسهم ، والفرق بين

الفسوق والعصيان ـ على ما قيل ـ أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية ، والعصيان نفس المعصية وإن شئت فقل : جميع المعاصي ، وقيل : المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي .

وقوله: ﴿ أُولئك هم الراشدون﴾ بيان أن حب الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الـرشد الـذي يطلبه الإنسان بفـطرته ويتنفـر عن الغيّ الـذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزمـوا الإيمان ويتجنبوا الكفر والفسـوق والعصيان حتى يرشدوا ويتبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم .

ولما كان حب الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرّح به الآية السابقة ، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفظاً على وحدتهم وتشويقاً لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبي المناه ققال : ﴿ أُولئك هم الراشدون ﴾ والإشارة إلى من اتصف بحب الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، ليكون مدحاً للمتصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم .

واعلم أن في قوله : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ إشعاراً بأن قوماً من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبأ الفاسق الذي تشير إليه الآية السابقة ، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي المرابي الى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلما رآهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبي المرابي النهم أنهم ارتدوا فعزم النبي المرابي على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصر على أن يغزوهم . وسيجيء القصة في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى: ﴿فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إن ذلك منه تعالى مجرد عطية ونعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلا جزافياً فإنه تعالى عليم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً كما قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً ﴾(١).

⁽١) الفتح : ٢٦ .

قوله تعالى : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ إلى آخر الآية الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق ، ورجوع ضمير الجمع في ﴿اقتتلوا﴾ إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلاً من الطائفتين جماعة ومجموعهما جماعة كما أن رجوع ضمير التثنية إليهما باعتبار المعنى .

ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميـرين : أنهم أولاً في حال القتــال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حــال الصلح متميزون متفــارقون فلذا ثنى الضمير .

وقوله: ﴿ فَإِنْ بَعْتَ إِحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ البغي الظلم والتعدي بغير حق ، والفيء الرجوع ، والمراد بأمر الله ما أمر به الله ، والمعنى : فإن تعدت إحدى الطائفتين على الأخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه .

وقوله: ﴿ فَإِن فَاءَت فَأَصَلَحُوا بِينَهُما بِالْعَدَل ﴾ أي فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحاً بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحاً متلبساً بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته .

وقوله: ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله: ﴿وأقسطوا على قوله: ﴿أصلحوا بينهما بالعدل من عطف المطلق على المقيد للتأكيد، وقوله: ﴿إن الله يحب المقسطين تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائماً وفي جميع الأمور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخُوةَ فَأَصَلَحُوا بِينَ أَخُويِكُم﴾ استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الأخوة مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله : ﴿فأصلحُوا بِينَ أَخُويكُم﴾ من حكم الصلح فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الأخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح ، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما .

وقوله : ﴿ فَأَصَلَحُوا بَيْنَ أَخُـويَكُم ﴾ ولم يقل : فأصلحوا بين الأخـوين من أوجز

الكلام وألطف حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما اخوَّة فمن الـواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما .

وقوله : ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعاً .

(كلام في معنى الأخوَّة)

واعلم أن قوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة ﴾ جعل تشريعي لنسبة الاخوة بين المؤمنين لها آثار شرعية وحقوق مجعولة ، وقد تقدم في بعض المباحث المتقدمة أن من الابوّة والبنوّة والاخوّة وسائر أنواع القرابة ما هو اعتباري مجعول يعتبره الشرائع والقوانين لترتيب آثار خاصة عليه كالوراثة والإنفاق وحرمة الازدواج وغير ذلك ، ومنها ما هو طبيعي بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أو هما .

والاعتباري من القرابة غير الطبيعي منها فربما يجتمعان كالأخوين المتولدين بين الرجل والمرأة عن نكاح مشروع ، وربما يختلفان كالولد الطبيعي المتولد من زنا فإنه ليس ولداً في الإسلام ولا يلحق بمولده وإن كان ولداً طبيعياً ، وكالدعي الذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعي .

واعتبار المعنى الاعتباري وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأساً لهم ليكون نسبته إليهم نسبة الرأس إلى البدن فيدبر أمر المجتمع ويحكم بينهم وفيهم كما يحكم الرأس على البدن .

لكن لما كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تـابعاً للمصلحة فإن اقتضت تـرتيب جميع آثار الحقيقة ترتبت عليه جميعاً وإن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتباري ذلك البعض كمـا أن القراءة مثـلاً جـزء من الصـلاة والجـزء الحقيقي ينتفي بانتفائه الكل مطلقاً لكن القراءة لا ينتفي بانتفائها الصلاة إذا كان ذلك سهواً وإنما تبطل الصلاة إذا تركت عمداً.

ولذلك أيضاً ربما اختلفت آثار معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة كجزئية الركوع حيث تبطل الصلاة بزيادته ونقيصته عمداً وسهواً بخلاف جزئية القراءة كما تقدم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتبة على معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة لكن لا تترتب الآثار الاعتبارية إلا على موضوع اعتباري كالإنسان يتصرف في ماله لكن لا بما أنه بما أنه مالك والأخ يبرث أخاه في الإسلام لا لأنه أخ طبيعي يشارك

المبت في الوالد أو الوالدة أو فيهما ـ فولد الزنا كذلك ولا يرث أخاه الطبيعي ـ بل يرث لأنه أخ في الشريعة الإسلامية .

والأخوَّة من هذا القبيل فمنها اخوة طبيعية لا أثر لها في الشرائع والقوانين وهي اشتراك إنسانين في أب أو أم أو فيهما ، ومنها اخوة اعتبارية لها آثار اعتبارية وهي في الإسلام اخوة نسبية لها آثار في النكاح والإرث ، واخوة رضاعية لها آثار في النكاح دون الإرث ، واخوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث ، وسيجيء قول الصادق شنخ : المؤمن أخو المؤمن ، عينه ودليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ولا يغشه ، ولا يعده عدة فيخلفه .

وقد خفي هذا المعنى على بعض المفسرين فأخذ إطلاق الإخوة في كلامه تعالى على المؤمنين إطلاقاً مجازياً من باب الاستعارة بتشبيه الاشتراك في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأن كلا منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان ، وقيل : هو من باب التشبيه البليغ من حيث انتسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبدي .

(بحث روائي)

في المجمع في قول تعالى: ﴿ إِلَا أَيْهَا السَّذِينَ آمَنُوا ﴾ روى زرارة عن أبي جعفر والنظرة أنه قال: ما سلت السيوف، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف، ولا جهر بأذان، ولا أنزل الله: ﴿ إِنَا أَيْهَا الذِّينَ آمَنُوا ﴾ حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج.

أقول: وعن ابن عباس أيضاً ما نزل يا أيها الذين آمنوا إلا بالمدينة ، ولا في الهيا الناس إلا بمكة الخبر ، وتوقف بعضهم في عموم ذيله ، واعلم أن هناك روايات في الدر المنثور وتفسير القمي في سبب نزول قوله : فلا تقدموا بين يدي الله ورسوله الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعهما .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلى والبغوي في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردوية والبيهقي في الدلائــل عن أنس قال: لما نزلت ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ آمنُوا لا ترفعُوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم

لا تشعرون﴾ وكان ثـابت بن قيس بن شماس رفيـع الصوت فقـال : أنا الـذي كنت أرفـع صوتي على رسـول الله ﷺ حبط عملي أنا من أهـل النار ، وجلس في بيتـه حزيناً .

ففقده رسول الله وسنرائي فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: فقدك رسول الله وسنرائي ما لك؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي والمها وأجهر له بالقول حبط عملي وأنا من أهل النار ، فأتوا النبي والمنائي والحبروه بذلك فقال : لا بل هو من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة قتل .

أقول: قوله: «فلما كان يوم اليمامة قتل» من كلام الراوي يريد أنه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبي مستريق ، والرواية مروية بطرق مختلفة أخرى باختلاف يسير.

وفيه أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض الباب من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع وأحزر (١) البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع .

أقول: وروى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراساني قال: أدركت حجر أزواج رسول الله ميشن من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود. الحديث.

وفيه أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردوية بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله مينزي فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها . قلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي وترسل إليَّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله مُشْرَاتُهِ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فيظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله مُشْرَاتُهُ كان وقّت

إ(١) كذا في الأصل ولعله جمع خرير بالخاء المعجمة وهو المكان المطمئن .

سورة الحجرات ـ آية ٨ ـ ١٠ ٢٣٣

لي وقتاً يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله مُسْلَنَّ . الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله مُسْلَنَّ .

وبعث رسول الله منطق الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله منطق فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله منطق البعث إلى الحارث .

فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم ؟ قالوا: إلى قالوا: إن رسول الله مؤلف اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتانى.

فلما دخل الحارث على رسول الله مسلمة قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله مسلمة خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل فويا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا إلى قوله فحكيم .

أقول: نزول الآية في قصة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنة والشيعة وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: ولا خلاف بين أهل العلم يتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل: ﴿إن جاءكم فاسق بنباً﴾ نزلت في الوليد بن عقبة.

وفي المحاسن بإسناده عن زياد الحذّاء عن أبي جعفر على في حديث له قال : يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب ؟ ألا ترى إلى قول الله : ﴿إِن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ؟ أو لا ترون إلى قول الله لمحمد على الله اليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم ﴾ ؟ قال : ﴿يحبون من هاجر إليهم ﴾ وقال : الحب هو الدين والدين هو الحب .

أقول: وروى في الكافي بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق سَلَوْتُهُم ما في معناه ولفظه: وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟ ثم تــلا هذه الآيــة: ﴿حَبِّبِ إليكم الإيمان﴾ إلى آخر الآية.

وفي المجمع وقيل : الفسوق هو الكذب عن ابن عباس وابن زيد وهو

المروي عن أبي جعفر طِلْنَكُ .

أقول : وفي هذا المعنى بعض روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن عقبة عن أبي عبد الله طَّنَتُ قال : المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعده عدة فيخلفه .

أقول : وفي معناه روايات أخر عنه ﷺ وفي بعضها : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يغتابه .

وفي المحاسن باسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر علنه قال : المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق المؤمن من طينة جنان السماوات ، وأجرى فيهم من ربح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه وأمه .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وإبن مردوية والبيهقي في سننه عن أنس قال: قيل للنبي الله الله أبي الله بن أبي فانطلق وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما المطلق إليهم قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ربح حمارك .

فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله مَنْدُنَتُ أَطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل فيهم ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ .

أقول: وفي بعض الروايات كما في المجمع أن الذي قبال ذلك لعبد الله بن أبيّ بن سلول هو عبد الله بن رواحة وأن التضارب وقع بين رهطه من الأوس ورهط عبد الله بن أبيّ من الخزرج، وفي انطباق الآية بموضوعها وحكمها على هذه الروايات خفاء.

يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَـوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُـوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِـزُوا

أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَابِ بِئْسَ ٱلْاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ لُّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظُّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظُّنَّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضاً ٱيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْنَاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابُ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَر وَأَنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْــذَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنًا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُـولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَـهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا وَجَـاهَدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُـلُ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بـدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمْ وَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُوا عَلَى إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَـدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمْوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

(بیان)

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمِهَا الذَّمِنَ آمنُوا لا يَسْخُرُ قَوْمُ مَنْ قَوْمُ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مَنْهُم ولا نساء من نساء عسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مَنْهَن ﴾ الخ ، السخرية الاستهزاء وهو ذكر ما يستحقر ويستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليداً بحيث يضحك منه بالطبع ، والقوم الجماعة وهو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأمور المهمة دونهن ، وهذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بما قوبل بالنساء .

وقلوله : ﴿عسى أن يكونوا خيـراً منهم﴾ و ﴿عسى أن يكنَّ خيراً منهن﴾ حكمـة النهي .

والمستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلاً أو امرأة وكذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخرية القوم من القوم وسخرية النساء من النساء لمكان الغلبة عادة .

وقوله: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ اللمز على ما قيل التنبيه على المعايب، وتعليق اللمز بقوله: ﴿أنفسكم﴾ للاشارة إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره، ففي قوله: ﴿أنفسكم﴾ إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ النبز بالتحريك هو اللقب ، ويختص ـ على ما قيل ـ بما يبدلُ على ذم فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضاً بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك .

والمراد بالاسم في ﴿بئس الأسم الفسوق﴾ الذكر كما يقال: شاع اسم فلان بالسخاء والجود، وعلى هذا فالمعنى: بئس الذكر ذكر الناس بعد إيمانهم بالفسوق فإن الحري بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا ويا من أمه كانت كذا.

ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى: بئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كأن يقال لمن اقترف معصية ثم تاب: يا صاحب المعصية الفلانية ، أو المعنى: بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب ، وعلى أي معنى كان ففي الجملة إشارة إلى حكمة النهى .

وقول : ﴿ وَمِن لَم يَتِبِ فَاوَلَئُكُ هُمُ الطَّالَمُونَ ﴾ أي وَمِن لَم يَتِبِ عَن هَــَذَهُ المُعاصي التي يقترفها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فاولئك ظالمون حقاً فإنهم لا يرون بها بأساً وقد عدها الله معاصي ونهى عنها .

وفي الجملة أعني قوله : ﴿ومن لم يتب﴾ الخ ، إشعار بأن هناك من كـان يقترف هذه المعاصى من المؤمنين .

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ آمنُوا اجتنبُوا كَثِيراً مِن الظّن إِنْ بَعْضَ الظّن إِثْمَ ﴾ إلى آخر الآية المراد بالظن المأمور بالاجتناب عنه ظن السوء فإن ظن الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ لُولًا إِذْ سَمَعْتُمُوهُ ظُنَ الْمُؤْمِنُونُ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِانْفُسُهُمُ خَيراً ﴾ (١)

والمراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن باخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويرتب عليه سائر آثاره ، وأما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفساني فهو أمر يفاجىء النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهي اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختيارياً .

وعلى هذا فكون بعض الظن إثماً من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثماً كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرمة ، والمراد بكثير من الظن وقد جيء به نكرة ليدل على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن ، ولو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثماً وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطياً توقياً من الوقوع في الإثم .

وقوله: ﴿ ولا تجسسوا ﴾ التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها ، ومثله التحسس بالحماء المهملة إلا أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر والتحسس بالحاء يستعمل في الخير ، ولذا قيل : معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الأمور التي يسترها أهلها .

وقوله: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه ، وقد فسرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً في الفقه، ويؤول إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به .

والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بـأن

⁽١) النور : ١٢ .

يعرفه إنساناً عمدلاً سويـاً يأنس بـه ولا يكرهـه ولا يستقذره ، وأمـا إذا عرف بما يكـرهـه ويعيبـه به انقـطع عنه بمقـدار ذلك وضعفت رابـطة الاجتماع فهي كـالأكلة التي تـأكــل جثمان من ابتلي بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة .

والإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهوية اجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمازج فيفيد ويستفاد منه ، وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية ، وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فساداً ويذهب الأنس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء .

فهي في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها ومن حيث لا يشعر به ، ولو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرّز منه وتوقّى انهتاك ستره وهو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان ونواقصه ليتمّ به ما أراده من طريق الفطرة من تألّف أفراد الإنسان وتجمّعهم وتعاونهم وتعاضدهم ، وأين الإنسان والنزاهة من كل عيب .

وإلى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله: ﴿ أَيحبُ أحدكم أَن يَأْكُلُ لَحَم أَخِيهُ مِيتاً فكرهتموه ﴾ وقد أتى بالاستفهام الإنكاري ونسب الحب المنفي إلى أحدهم ولم يقل: بعضكم ونحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعاباً وشمولاً ولذا أكّده بقوله بعد: ﴿ فكرهه مِنسب الكراهة إلى الجميع ولم يقل: فكرهه .

وبالجملة محصّله أن اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتاً ، وإنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامي المؤلف من المؤمنين وإنما المؤمنون إخوة ، وإنما كان ميتاً لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه .

وفي قوله: ﴿فكرهتموه﴾ ولم يقل: فتكوهونه إشعار بأن الكراهة أمر ثابت محقق منكم في أن تأكلوا إنساناً هو أخوكم وهو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروهاً لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتاً .

واعلم أن ما في قوله: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل﴾ النح ، من التعليل جمارٍ في التجسس أيضاً كالغيبة ، وإنما الفرق أن الغيبة هـ وإظهار عيب الغير للغير أو التوصّل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير ، والتجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من

طريق تتبع آثاره ولذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله: ﴿ أَيحبُ أَحدكم أَن يَأْكُلُ لَحِم أَخيه ميتاً ﴾ النح ، تعليلًا لكل من الجملتين أعني ﴿ ولا تجسُسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ .

واعلم أن في الكلام إشعاراً أو دلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين ، ومن القرينة عليه قوله في التعليل : ﴿لحم أخيه﴾ فالاخوّة إنما هي بين المؤمنين .

وقوله : ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ ظاهره أنه عطف على قوله : ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنَّ ﴾ إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله : ﴿إن الله تواب رحيم ﴾ أن الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التاثبين إليه اللائذين به .

وإن كان هو التجنب عنها والتورَّع فيها وإن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله : ﴿إِن الله تُوَّابِ رحيم﴾ أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم .

وذلك أن التوبة من الله توبتان: توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾(١) ، وتوبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة وقبول التوبة كما في قوله: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب علمه ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُهَا النَّاسِ إِنَا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكُرُ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شَعُوبًا وقبائل لتعارفوا إِنْ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ النح ، الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون وهو على ما في المجمع الحيّ العظيم من الناس كربيعة ومضر ، والقبائل جمع قبيلة وهي دون الشعب كتميم من مضر .

وقيل: الشعوب دون القبائل وسمّيت بها لتشعّبها ، قال الراغب: الشعب القبيلة المنشعبة من حيّ واحد ، وجمعه شعوب ، قال تعالى : ﴿شعوباً وقبائل﴾ والشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف وتفرَّق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الذي تفرَّق أخذت في وهمك اثنين في وهمك اثنين اجتمعا فلذلك قيل : شعبت إذا جمعت ، وشعبت إذا فرقت . انتهى .

⁽١) التوبة : ١١٨ .

⁽٢) المائدة : ٢٩ .

وقيـل : الشعوب العجم والقبـائل العـرب ، والظاهـر أن مآلـه إلى أحـد القـولين السابقين ، وسيجيء تمام الكلام فيه(١) .

ذكر المفسرون أن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب ، وعليه فالمراد بقوله : ومن ذكر وأنثى آدم وحوّاء ، والمعنى : أنّا خلقناكم من أب وأمّ تشتركون جميعاً فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي وجعلناكم شعوباً وقبائل مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً ويتم بذلك أمر اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم ومعاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع وبادت الإنسانية فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتباهوا بالآباء والامهات .

وقيل: المراد بالذكر والأنثى مطلق الرجل والمرأة ، والآية مسوقة لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض والأسود والعرب والعجم والغني والفقير والمولى والعبد والرجل والمرأة ، والمعنى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل وامرأة فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا تفترقون من هذه الجهة ، والاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل ـ وهو اختلاف راجع إلى الجعل الإلهي ـ ليس لكرامة وفضيلة وإنما هو لأن تتعارفوا فيتم بذلك اجتماعكم .

واعترض عليه بأنَّ الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب وذمّه كما يدل عليه قوله: ﴿ وَجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ وترتب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر ، ويمكن أن يناقش فيه أن الاختلاف في الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتي وبناء هذا الوجه على كون الآية مسوقة لنفي مطلق الاختلاف الطبقاتي وكما يمكن نفي التفاخر بالأنساب ودمه استناداً إلى أن الأنساب تنتهي إلى آدم وحواء والناس جميعاً مشتركون فيهما ، كذلك يمكن نفيه وذمه استناداً إلى أن كل إنسان مولود من إنسانين والناس جميعاً مشتركون في ذلك .

والحق أن قـوله : ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائـل﴾ إن كان ظـاهراً في ذم التفـاخـر بالأنساب فأول الوجهين أوجه ، وإلا فالثاني لكونه أعم وأشمل .

وقوله : ﴿إِنْ أَكْرُمُكُمْ عَنْدُ اللهُ أَتَقَاكُمْ﴾ استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله

⁽١) في البحث الروائي الآتي .

سبحانه ، وذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره ، وأن الاختلاف المترائي في المخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنما هو للتوصل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتم ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقة من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب وتتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضاً ويستخدم إنسان إنساناً ويستعلي قوم على قوم فينجر إلى ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء .

ثم نبُّ ه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله : ﴿إِن أَكْرَمُكُم عَنْـُ اللهُ أَتَقَاكُم﴾ على ما فيه الكرامة عنده ، وهي حقيقة الكرامة .

وذلك أن الإنسان مجبول على طلب ما يتميز به من غيره ويختص به من بين أقرانه من شرف وكرامة ، وعامة الناس لتعلقهم بالحياة الدنيا يرون الشرف والكرامة في مزايا الحياة المادية من مال وجمال ونسب وحسب وغير ذلك فيبذلون جلَّ جهدهم في طلبها واقتنائها ليتفاخروا بها ويستعلوا على غيرهم .

وهذه مزايا وهمية لا تجلب لهم شيئاً من الشرف والكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة والشقوة ، والشرف الحقيقي هو الذي يؤدِّي الإنسان إلى سعادته الحقيقية وهو الحياة الطيبة الأبدية في جوار رب العزة وهذا الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة ، وتتبعها سعادة الدنيا قال تعالى : ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الأخرة﴾(۱) ، وقال : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴿ركن ، وإذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى .

وهذه البغية والغاية التي اختارها الله بعلمه غاية للناس لا تـزاحم فيها ولا تـدافع بين المتلبسين بها على خلاف الغايات والكرامات التي يتخذها الناس بحسب أوهامهم غايات يتوجهون إليها ويتباهون بها كالغنى والرئاسة والجمال وانتشار الصيت وكـذا الأنساب وغيرها .

وقـوله : ﴿إِن الله عليم خبير﴾ فيه تـأكيد لمضمـون الآية وتلويـح إلى أن الـذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقية اختارها الله بعلمه وخبرته بخلاف ما اختاره الناس

⁽١) الأنفال : ٦٧ .

⁽٢) البقرة : ١٩٧ .

كرامة وشرفاً لأنفسهم فإنها وهمية باطلة فإنها جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿وما هـذه الحياة الـدنيـا إلا لهـو ولعب وإن الـدار الآخـرة لهي الحيـوان لـوكسانـوا يعلمون﴾(١) .

وفي الآية دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتَّبعوا في غايـات الحياة أمر ربهم ويختاروا ما يختاره ويهدي إليه وقد اختـار لهم التقوى كمـا أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين .

قوله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنًا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ النج الآية وما يليها إلى آخر السورة متعرضة لحال الأعراب في دعواهم الإيمان ومنهم على النبي وسنون بإيمانهم ، وسياق نقل قولهم وأمر النبي والنبي المنافق الإيمان ومنهم بقوله : ﴿لم تؤمنوا ﴾ يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم ، ويؤيده قوله : ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الأخر ﴾ (٢) .

وقوله: ﴿ قَالَتَ الْأَعْرَابِ آمَنًا قُلَ لَمْ تَوْمَنُوا ﴾ أي قالوا لك آمنا وادَّعُوا الإيمان قل لم تؤمنوا وكذَّبهم في دعواهم ، وقوله: ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ استدراك مما يدلُّ عليه سابق الكلام ، والتقدير: فلا تقولوا آمنًا ولكن قولوا: أسلمنا .

وقوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ لنفي دخول الإيمان في قلوبهم مع انتظار دخوله ، ولذلك لم يكن تكراراً لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله : ﴿لم تؤمنوا ﴾ .

وقد نفى في الآية الإيمان عنهم وأوضحه بأنه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام ، ويظهر به الفرق بين الإيمان والإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد ، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح فإنه الاستسلام والخضوع لساناً بالشهادة على التوحيد والنبوة وعملاً بالمتابعة العملية ظاهراً سواء قارن الاعتقاد بحقية ما شهد عليه وعمل به أو لم يقارن ، ويظاهر الشهادتين تحقن الدماء وعليه تجري المناكح والمواريث .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَطَيِّعُوا اللهُ وَرُسُولُهُ لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالُكُمْ شَيْئًا ﴾ الليت النقص

⁽١) العنكبوت : ٦٤ .

⁽٢) التوبة : ٩٩ .

يقال: لاته يليته ليتاً إذا نقصه ، والمراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق ، وطاعة الله استجابة ما دعا إليه من اعتقاد وعمل ، وطاعة رسوله تصديقه واتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من أمور الأمة ، والمراد بالأعمال جزاؤها والمراد بنقص الأعمال نقص جزائها .

والمعنى: وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقاداً ، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيئاً ، وقوله : ﴿إِنَّ الله غفور رحيم ﴾ تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الذِّينَ آمنُوا بِاللهِ وَرَسُولُهُ ثُمْ لَمْ يُرْتَابُوا وَجَاهِدُوا بِأُمُوالُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ فِي سَبِيلَ اللهُ أُولئكُ هم الصادقون و تعريف تفصيلي للمؤمنين بعدما عرفوا إجمالاً بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله : ﴿لَمْ تَوْمَنُوا وَلَمَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قلوبكم ﴾ .

فقوله: ﴿إِنْمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولُهُ ۚ فَيِهُ قَصَّرَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَ الذينَ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولُهُ الْخَ ، فَتَفَيْدُ تَعْرِيفُهُمْ بَمَا ذَكَرَ مِنَ الْأُوصَافَ تَعْرِيفًا جامعاً مانعاً فمن اتَّصِفَ بِهَا مؤمن حقاً كما أن من فقد شيئاً منها ليس بمؤمن حقاً .

والإيمان بالله ورسوله عقد القلب على توحيده تعالى وحقيّة ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتّباع الرسول فيما يأمر به .

وقوله: ﴿ ثُمْ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي لم يشكُّوا في حقية ما آمنوا به وكان إيمانهم ثابتاً مستقراً لا يزلزله شك ، والتعبير بثم دون الواو - كما قيل - للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنه طري جديد دائماً فيفيد ثبوت الإيمان علي استحكامه الأولي ولو قيل: ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولا مقارناً لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

وقوله: ﴿ووجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة وسبيل الله دينه ، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بما تسعه الاستطاعة وتبلغه الطاقة في التكاليف المالية كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة ، والتكاليف البدنية كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك .

والمعنى : ويجدُّون بإتيان التكاليف المالية والبدنية حال كونهم أو حال كون

عملهم في دين الله وسبيله .

وقوله : ﴿أُولئك هم الصادقون﴾ تصديق في إيمانهم إذا كانـوا على الصفات المذكورة .

قوله تعالى : ﴿قُلُ أَتَعْلَمُونَ اللهُ بِدِينَكُمُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتُ وَمَا فِي الْأَرْضُ وَاللهُ بِكُلُ شَيْءَ عَلَيْمٍ وَ تُوبِيخُ للأعرابِ حَيْثُ قَالُوا : آمنًا ولازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك ، وقيل : لما نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم : آمنًا ، فنزل : ﴿قُلُ أَتَعْلَمُونُ اللهُ الْأَعْرَابُ أَنْهُمُ مؤمنونَ اللهُ فَاهُمُ .

قوله تعالى: ﴿ يَمِنُونَ عَلَيْكُ أَنْ أَسَلَمُوا قَلَ لا تَمَنُوا عَلَيْ إِسَلاَمُكُم بِلِ اللهُ يَمِنُ عَلَيْكُ بَأَنْ أَسَلَمُوا وَقَدُ عَلَيْكُم أَنْ هَذَا مِن وَجَهِينَ أَحَدُهُما أَنْ حَقِيقَةَ النَّعِمَةُ التِي فَيِهَا الْمِن هُو الإِيمَانُ أَخَطَأُوا فِي مَنْهُم هٰذَا مِن وَجَهِينَ أَحَدُهُما أَنْ حَقِيقَةَ النَّعِمَةُ التِي فَيها الْمِن هُو الإِيمَانُ الذِي هُو مَفْتَاح سَعَادَةُ الدُنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الذي هو مَفْتَاح سَعَادة الدُنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والمواريث ، وثانيهما أن ليس للنبي سَنَاهُم من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم .

فلو كان هناك منّ لكان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا منّ لأحد على الله لأن المنتفع بالـدين في الدنيـا والآخـرة هم المؤمنـون دون الله الغني على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له .

وقد بدّل ثانياً الإِسلام من الإِيمان للإِشارة إلى أن المن إنما هو بـالإِيمان دون الإِسلام الذي إنما ينفعهم في الظاهر فقط .

فقد تضمن قوله : ﴿قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بـل الله يمن﴾ الخ ، الإشـارة إلى خطأهم من الجهتين جميعاً :

إحداهما : خطأهم من جهة توجيه المن إلى النبي مُؤْلِثُهُ وهـو رسول ليس لـه من الأمر شيء ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿لا تمنوا عليّ إسلامكم﴾ .

وثانيهما : أن المن ـ لو كان هناك من ـ إنما هو بالإيمان دون الإسلام ، وإليــه الإشارة بتبديل الإسلام من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿إِنْ الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾

ختم للسورة وتأكيد يعلل ويؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي والأوامر وما بين فيها من الحقائق وما أخبر فيها عن إيمان قوم وعدم إيمان آخرين فالأية تعلل بمضمونها جميع ذلك .

والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما ومن الخارج منهما .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُهَا الذِّينَ آمِنُوا لا يُسخر قُـوم من قُـوم ﴾ قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسلمان وعمار وخبّاب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة .

وفي المجمع : نـزل قـولـه : ﴿لا يسخـر قـوم من قـوم﴾ في ثـابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر وكان إذا دخل المسجد تفسّحوا له حتى يقعد عند النبي مُنْهُ اللهُ فيسمع ما يقول .

فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلقه مغضباً فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان فقال ثابت: ابن فلانة ذكر أماً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية ، عن ابن عباس .

وفيه: وقوله: ﴿ولا نساء من نساء ﴾ نزل في نساء النبي منه سخرن من أم سلمة . عن أنس . وذلك أنها ربطت حقويها بسبيبة وهي ثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره فقالت عائشة لحفصة : انظري ماذا تجر خلفها كأنه لسان كلب فهذه كانت سخريتهما ، وقيل : إنها عيّرتها بالقصر ، وأشارت بيدها أنها قصيرة . عن الحسن .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والبغوي في معجمه وابن حبان والشيرازي في الألقاب والطبراني وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جبيرة بن

الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قدم رسول الله المؤلفة المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأن سلمان نام نوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله وسنت يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك . قال : ما يصنع أصحابك بالادم ؟ قد ائتدموا .

فرجع سلمان فخبَّرهما فانطلقا فأتيا رسول الله مَثِلَثُ فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما . فنزلت فأيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً .

وفيه أخرج الضياء المقدسي عن أنس قال: كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فناما واستيقظا ولم يهيّىء لهما طعاماً فقالا: إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا: ائت رسول الله بمنت فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويستأدمانك، فقال: إنهما ائتدما، فجاءاه فقالا يا رسول الله بأي شيء ائتدمنا ؟ قال: بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما، فقالا: استغفر لنا يا رسول الله. قال: مراه فليستغفر لكما.

أقول: الظاهر أن القصة الموردة في الروايتين واحدة والرجلان المذكوران في الرواية الأولى أبو بكر وعمر والرجل المذكور في الثانية هو سلمان، ويؤيد هذا ما عن جوامع الجامع قال: وروي أن أبا بكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله منزي ما عن جوامع بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله منزي على رحله فقال: ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة ولو بعثنا سلمان إلى بشر سميحة لغار ماؤها.

ثم انطلقا إلى رسول الله سَلَمَ فقال لهما : ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا : يا رسول الله ما تناولنا اليوم لحماً . قال : ظلتم تأكلون لحم سلمان

سورة الحجرات ـ آية ١٦ ـ ١٨ . . .

وأسامة فنزلت .

وفي العيون بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبي عباد عن عمه قبال : سمعت الرضا وَانْكُهُ يُوماً ينشد وقليلًا مَّا كان ينشد شعراً :

كلُّنا نأمل مدّاً في الأجل والمنايا هنَّ أفات الأمل لا يغسرنك أباطيل المنى والزم القصد ودع عنك العلل

إنما البدنيا كظل زائل حل فيه راكب ثم رحل

فقلت: لمن هذا أعزُّ الله الأمير؟ فقال: لعراقي لكم قلت: أنشدنيه أبو العتاهية(١) لنفسه فقال : هـات اسمه ودع هـذا ، إن الله سبحانـه يقول : ﴿وَلَا تَسَابِرُوا بالألقاب﴾ ولعل الرجل يكره هذا .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله ﴿ اللهِ عَالَ : قَـالَ أُمير المؤمنين مُؤتن في كلام له: ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظننٌ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملًا .

وفي نهج البلاغة وقال عَلِنَاهُ: إذا استولى الصلاح على النزمان وأهله ، ثم أساء رجل البطن برجيل لم يظهر منه حبوبة فقيد ظلم ، وإذا استولى الفسياد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر .

أقول : والروايتان غير متعارضتين فالثانية نـاظرة إلى نفس الـظن والأولى إلى ترتيب الأثر عليه عملاً.

وفي الخصال عن أسباط بن محمد بإسناده إلى النبي سَلَنْكِ أنه قال: الغيبة أشد من الزنا ، فقيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟ قال : صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحله .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويـه والبيهقي عن أبي سعيد وجــابر عنه مُسْلِبُ ، ولفظه قال رسول الله مُشْلِبُ : الغيبة أشد من الزنا . قالوا : يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الـزنا؟ قـال : إن الرجـل يزني فيتـوب فيتـوب الله عليـه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه.

⁽١) العتاهية بمعنى نقصان العقل .

وفي الكافي بإسناده إلى السكوني عن أبي عبد الله مَنْكُنَهُ قال : قـال رسول الله عَلَىٰهُ قال : قـال رسول الله عَلَىٰهُ : الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه .

. وفي تفسيس القمي في قوله تعالى : ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل﴾ قال : الشعوب العجم والقبائل العرب .

أقول : ونسبه في مجمع البيان إلى الصادق ﴿ الْحَهُ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابىر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله منزات في وسط أيام التشويق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله مُمَنَّاتُ قَالَ : إن رسول الله مُمَنِّاتُ وَاللهُ عَلَى الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . إنما زوجه لتضع المناكح ، وليتأسّوا برسول الله عَمْنِيْتُ ، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن جميل بن درّاج قال : قلت لأبي عبد الله مُؤلِّكُهُ : فما الكرم ؟ قال : التقوى .

وفي الكنافي بإسنناده عن يونس بن يعقبوب عن أبي عبد الله ﷺ في حــديث قال : إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون وعليه يتناكحون والإيمان عليه يثابون .

وفي الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد عَشَنْكِهِ في حديث : والإسلام غير الإيمان ، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

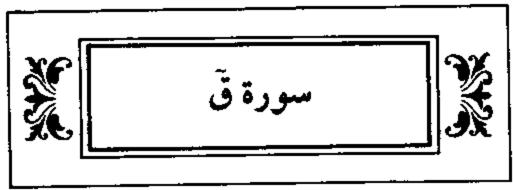
وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ قال : نزلت في بني أسد .

أقول : وهو مروي أيضاً عن مجاهد وغيره .

وفيه أخرج ابن ماجه وابن مردويه والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله مسلمات : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

وفيه أخرج النسائي والبزاز وابن مردويه عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله مسلمة فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك فنزلت هذه الآية ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .



مكية ، وهي خمس وأربعون آية

بِسُم ِ آللهِ آلرَّحْمٰنِ آلرَّحِيم ِ

(بيان)

السورة تذكر الدعوة وتشير إلى ما فيها من الإندار بالمعاد وجحد المشركين به واستعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصية الإنسانية بصيرورته تراباً لا يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانياً إلى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب والاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم وعنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق وجل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابة مثل ما أصاب الأمم الماضية الهالكة .

وتنبه ثانياً على علمه وقدرته تعالى بالإشارة إلى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات وما زينها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك ، وفي خلق الأرض من حيث مدّها وإلقاء الرواسي عليها وإنبات الأزواج النباتية فيها ثم بإنـزال الماء وتهيئة أرزاق العباد وإحياء الأرض به .

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق وأنه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتى ما يلفظ به من لفظ وحتى ما يخطر بباله وتوسوس به نفسه ما دام حياً ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فادخل النار إن كان من المكذبين أو الجنة المُزلفة إن كان من المتقين .

وبالجملة مصب الكلام في السورة هو المعاد ، ومن غرر الآيات فيها قوله : ولقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وقوله : ويوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد، وقوله : ولهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد، .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها إلا ما قيل في قـوله : ﴿ولقـد خلقنا السمـاوات والأرض﴾ الآية أو الآيتين ، ولا شاهد عليه من اللفظ .

وما أوردناه من الآيات فيه إجمـال الإشارة إلى المعـاد واستبعادهم لـه ، وإجمال الجواب والتهديد ثانياً .

قوله تعالى : ﴿قَ والقرآن المجيد﴾ ، قال في المجمع : المجد في كلامهم الشرف الواسع يقال : مجد الرجل ومجد بضم العين وفتحها مجداً إذا عظم وكرم ، وأصله من قولهم : مجدت الأبل مُجوداً إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء

٣٤٢ - ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ - العشرون المجزء السادس والعشرون

الربيع . انتهى .

وقوله: ﴿والقرآن المجيد﴾ قسم وجوابه محذوف يدل عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الإنذار حق ، وقيل : جواب القسم مذكور وهو قوله : ﴿وَبل عجبوا﴾ الخ ، وقيل : هو قوله : ﴿وَقد علمنا ما تنقص﴾ الخ ، وقيل : قوله : ﴿وَا يلفظ من قول﴾ الخ ، وقيل : قوله : ﴿إِن في ذلك لذكرى﴾ الخ ، وهذه أقوال سخيفة لا يصار النها .

قوله تعالى : ﴿ بِل عجبوا أَن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل : إنا أرسلناك نذيراً فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، أو قيل إن البعث الذي أنذرتهم به حق ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه واستبعدوه .

وضمير ﴿منهم﴾ في قوله : ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ راجع إليهم بما هم بشر أي من جنسهم وذلك أن الوثنيين ينكرون نيوة البشر كما تقدمت الإشارة إليه مراراً أو راجع إليهم بما هم عرب والمعنى : بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم وبلسانهم يبين لهم الحق أوفى بيان فيكون أبلغ في تقريعهم .

وقوله: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ وصفهم بالكفر ولم يقل: وقال المشركون ونحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم، والإشارة في قولهم: ﴿هذا شيء عجيب﴾، إلى البعث والرجوع إلى الله كما يفسره قوله بعد: ﴿وإذا متنا وكنا تراباً﴾ النح .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَتِنَا وَكُنَا تُرَابِاً ذَلَكَ رَجِع بِعِيدَ ﴾ الرجع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد عن العقل .

وجواب إذا في قولهم: ﴿ وَإِذَا مَنَا وَكُنَا تُرَاباً ﴾ محذوف يدل عليه قولهم: ﴿ ذَلَكُ رَجِع بَعَيْدُ ﴾ والتقدير عإذا مَنَا وَكُنَا تَرَاباً نَبَعَثُ وَنَرْجِع ؟ والاستفهام للتعجيب، وإنما حـذف للإشارة إلى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن يـذكـر، إذ لا يقبله عقـل ذي عقـل والآية في مساق قوله: ﴿ وقالوا عإذا ضللنا في الأرض عإنا لفي خلق جديد ﴾ (١) .

⁽١) الم السجدة : ١٠ .

سورة ق_ آیة ۲_٥ ۲ میلی میلی میلی ۲۴۳

والمعنى : إنهم يتعجبون ويقولون : ءإذا متنا وكنا تراباً _ وبطلت ذواتنا بطلاناً لا أثر معه منها _ نبعث ونرجع ؟ ثم كأن قائلًا يقول لهم : مم تتعجبون ؟ فقالوا : ذلك رجع بعيد يستبعده العقل ولا يسلمه .

قوله تعالى : ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ رد منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستندين في ذلك إلى أنهم ستتلاشى أبدانهم بالموت فتصير تراباً متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء والجواب أنّا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم وتنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل.

أو أنــا نعلم من يمـوت منهم فيــدفن في الأرض فتنقصـه الأرض من جمعهم ، و ﴿من﴾ على أول الوجهين تبعيضية وعلى الثاني تبيينية .

وقوله: ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ أي حافظ لكل شيء ولآثاره وأحواله، أو كتـاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف، وهو اللوح المحفوظ الذي فيـه كل مـا كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقول بعضهم إن المراد به كتاب الأعمال غير سديد أولاً: من جهـة أن الله ذكره حفيظاً لما تنقص الأرض منهم وهو غير الأعمال التي يحفظه كتاب الأعمال .

وثنانياً: أنه سبحانه إنما وصف في كلامه ببالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد.

ومحصل جواب الآية أنهم زعموا أن موتهم وصيرورتهم تراباً متلاشي الذرّات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها وإرجاعها لكنه زعم باطل فإنا نعلم بمن مات منهم وما يتبدل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم وكيف يتبدل وإلى أين يصير ؟ وعندنا كتاب حفيظ فيه كل شيء وهو اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : ﴿ إِبلَ كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مربج ﴾ المرج الاختلاط والالتباس ، وفي الآية إضراب عما تلوح إليه الآية السابقة فإن اللائح منها أنهم إنما تعجبوا من أمر البعث والرجوع واستبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه وآثارهم وأن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذّ عنه شاذ .

فاضرب في هذه الآية أن ذلك ليس من جهلهم وإن تجاهلوا بل كذَّبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون لـه وليسـوا بجاهلين بـه قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق ويكذبون بـه مع أن لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به .

وقيل : المراد بكونهم في أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون سا يقولون فتارة يقولون : افتراء على الله ، وتارة : سحر ، وتــارة : شعر ، وتــارة : كهانــة وتارة : زجر .

ولذلك عقّب الكلام بذكر آيات علمه وقدرته توبيخاً لهم ثم بالإشارة إلى تكذيب الأمم الماضية الهالكة الذي ساقهم إلى عذاب الاستئصال ، تهديداً لهم .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَم يَنظُرُوا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ الفروج جمع فرجة : الشقوق والفتوق ، وتقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها بمرأى منهم لا تغيب عن أنظارهم ، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بما لها من الجمال البديع ، فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال البرائع من غير شقوق وفتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة وعلمه المحيط بما خلق .

قوله تعالى : ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ مد الأرض بسطها لتلائم عيشة الإنسان ، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة الموصوف وهو الجبال ، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها ، والبهيج من البهجة ، قال في المجمع : البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة . انتهى . وقيل : المراد بالبهيج الذي من رآه بهج وسرَّ به فهو بمعنى المبهوج به .

والمراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات .

فخلق الأرض وما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يــدلّ العقل على كمال القدرة والعلم .

قوله تعالى : ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ مفعول لـه أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء ومد الأرض وعجائب التدبير التي أجريناها فيهما ليكون تبصرة يتبصّر بها وذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ونرلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ السماء جهة العلو والماء المبارك المطر، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة إلى الأرض وأهلها ، وحب الحصيد المحصود من الحب وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية ، والطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل ، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى: ﴿ رَزَقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميناً كذلك المخروج ﴾ الرزق ما يمدّ به البقاء ، و ﴿ رَزَقاً للعباد ﴾ مفعول لـه أي أنبتنا هـ له الجنات وحب الحصيد والنخل باسقات بما لها من الطلع النضيد ليكون رزقاً للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الوسيع الذي يـدهش اللبّ ويحير العقـل هو ذو علم لا يتناهى وقدرة لا تعيى لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد مـوته وإن تـلاشت ذرّات جسمه وضلّت في الأرض أجزاء بدنه .

وقوله: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طيّ الكلام فإن البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم تراباً غير متمايز الأجزاء كان برهاناً من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمنه قوله: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها ووقوف قواه عن النماء والنشوء.

وقد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلة بـإحياء الأرض بعـد موتهـا على البعث غير مرة فيما تقدم من أجزاء الكتاب .

يقوله تعالى : ﴿كذّبت قبلهم قـوم نوح﴾ إلى قـولـه ﴿كل كـذّب الـرسـل فحق وعيد﴾ ، تهديد وإنذار لهم بما كذّبوا بالحق لما جاءهم وتبين لهم عناداً كما أشرنا إليـه قبل .

وقد تقدم ذكر أصحاب الـرس في تفسير سـورة الفرقـان ، وذكر أصحـاب الأيكة

وهم قوم شعيب في سور الحجر والشعراء وصّ ، وذكر قوم تبع في سورة الدخان .

وفي قوله: ﴿كُلُ كَذُبِ الرَّسُلُ فَحَقَ وَعَيْدَ﴾ إشارة إلى أن هناك وعيداً بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾(١).

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له: ق السماء الدنيا مترفرفة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات . قال : وذلك قوله : ﴿والبحر يمدُه من بعده سبعة أبحر ﴾ .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : ﴿قَ﴾ قال : جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : خلق الله جبلاً يقال له ق محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

أقول: وروى القمي بإسناده عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن البـاقر عَلِيْكُ مشل ما مر عن عبد الله بن بريدة ، وروى ما في معناه مرسلًا ومضمراً ولفظه: قال: جبل ميحيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج .

وكيفما كان لا تعويل على هذه الروايات ، ويطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها .

وفي تفسير القمي في قولـه تعالى : ﴿فقـال الكـافـرون هـذا شيء عجيب﴾ قال : نزلت في أبي بن خلف قال لأبي جهل : تعال إلي أعجبك من محمد ثم أخذ

⁽١) النحل: ٣٦.

سورة ق_ آیة ۱۵ ـ ۳۸ ۲۲۷ ۳۲۷ ۳۲۷

عظماً ففته ثم قال : يا محمد تزعم أن هذا يُحيا ؟ فقال الله : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مربج ﴾ .

أَفَعَيينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأُوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسِ مِّنْ خَلْقِ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيانِ عَن ٱلْيَمِين وَعَن الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَـوْل ِ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَـاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنَفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلِّ نَفْس مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارِ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعِ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبِ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَّهَا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلال بِعِيدٍ (٢٧) قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيُّ وَقَـدٌ قَدُّمْتُ إِلَيْكُمْ بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدُّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامِ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَـلِ آمْتَلَاتِ وَتَقُـولُ هَلْ مِنْ مَّـزِيدٍ (٣٠) وَأَزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَلْذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّاب حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبِ مُّنِيبِ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَام ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدُ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا

فِي ٱلْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصِ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْ رَٰى لِمَنْ كَانَ لَـهُ قَلْبُ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُو شَهِيلًا (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمْوَاتِ وَلَلْاً رُضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَّغُوبٍ (٣٨) .

(بیان)

الآية الأولى متممة لما أورده في الآيات السابقة من الحجة على علمه وقدرته بما خلق السماء والأرض وما فيهما من خلق ودبر ذلك أكمل التدبير وأتمه وذلك كله هو الخلق الأول والنشأة الأولى . فتمم ذلك بقوله : ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ واستنتج منه أن القادر على الخلق الأول العالم به قادر على خلق جديد ونشأة ثانية وعالم به لأنهما مشلان إذا جاز له خلق أحدهما جاز خلق الآخر وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن .

ثم أضرب عنه أنهم في التباس من خلق جديد مع مماثلة الخلقين ثم أشار إلى نشأة الإنسان أول مرة وهو يعلم منه حتى خطرات قلبه وعليه رقباؤه يراقبونه أدق المراقبة ثم يجيئه سكرة الموت بالحق ثم البعث ثم دخول الجنة أو النار ثم أشار ثانياً إلى ما حلً بالقرون الماضية المكذبة من السخط الإلهي وعذاب الاستئصال وهم أشد بطشاً من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازي هؤلاء .

قوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ العيّ عجز يلحق من تولى الأمر والكلام كذا ، قال الراغب: يقال: أعياني كذا وعييت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأول خلق هذه النشأة الطبيعية بنظامها الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول في خلق السماء والأرض فقط كما مال إليه الرازي في التفسير الكبير ولا لقصره في خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم وذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والإنسان جميعاً كما قال تعالى: ﴿يوم تُبدُّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾(١) . والخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الأخرة ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى : أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد ؟ أي لم

⁽١) إبراهيم : ٤٨ .

نعجز عن الخلق الأول وهو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته .

ولو أخذ العيّ بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى : همل تعبنا بسبب المخلق الأول حتى يتعذر أو يتعسَّر علينا الخلق الجديد ؟ وذلك كما أن الإنسان وسائر الحيوان إذا أتى بشيء من الفعل وأكثر منه انتهى به إلى التعب البدني فيكفّه ذلك عن الفعل بعد ، فما لم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكنه لا يؤتى به لأن الفاعل لا يستطيعه لتعبه وإن كان الفعل جائزاً متشابه الأمثال .

وهذا معنى لا بأس به لكن قيل : إن استعمال العيّ بمعنى العجز أفصح .

على أن سوق الحجة من طريق العجز يفيد استحالة الإتيان ونفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنه يفيد تعسّره دون استحالة الإتيان ومراد النافين للمعاد استحالته دون تعسره هذا .

وقوله: ﴿ وَبل هم في لبس من خلق جديد ﴾ اللبس هو الالتباس ، والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لا نعمة معها ، والنشأة الأولى وهي الخلق الأول والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك .

والمعنى: إذا كنا خلقنا العالم بسمائه وأرضه وما فيهما ودبرناه أحسن تدبير لأول مرة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علماً وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبديله خلقاً جديداً فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد .

قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي . انتهى .

والمراد بخلق الإنسان وجـوده المتدرج المتحـول خلقاً بعـد خلق لا أول تكوينـه إنساناً وإن عبر عنه بالماضي إذ قـال : ﴿ولقد خلقنـا الإنسان﴾ إذ الإنسـان ـ وكذا كــل

مخلوق له حظ من البقاء ـ كما يحتاج إلى عطية رب ه في أول وجوده كـذلك يحتـاج إليه في بقائه .

ولما ذكر من النكتة عطف قوله: ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ﴾ وهو فعل ماض لكنه مستمر المعنى ، وكذا قوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ مفيد للثبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان .

وللآية اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأول بقوله: ﴿ أَفَلُم يَنْظُرُوا إِلَى السماء ﴾ واتصال أيضاً بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ بلا من خلق جديد ﴾ فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه ، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبة .

فقوله : ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ ـ واللام للقسم ـ دالٌ على القدرة عليه بـ إثبات الخلق .

وقوله: ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفساني الخفي إشارة إلى استيعاب العلم له كأنه قيل: ونعلم ظاهره وباطنه حتى ما توسوس به نفسه ومما توسوس به الشبهة في أمر المعاد: كيف يُبعث الإنسان وقد صار بعد الموت تراباً متلاشي الأجزاء غير متميز بعضها من بعض.

وقد بان أن «ما، في ﴿ما توسوس به﴾ موصولة وضمير «به، عائد إليه والباء لـ لآلة أو للسببية ، ونسب الوسوسة إلى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة إليه أيضاً لأن الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة .

وقوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ الوريد عرق متفرق في البدن فيه مجاري الدم ، وقيل: هو العرق الذي في الحلق ، وكيف كان فتسميته حبـالاً لتشبيهه به ، وإضافة حبل الوريد بيانية .

والمعنى: نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر في داخل بدنه فكيف لا نعلم به وبما في نفسه ؟.

وهذا تقريب للمقصود بجملة ساذجة يسهل تلقيها لعامة الأفهام وإلا فأمر قـربه عليها أثارها فهـو تعالى إليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الذي جعلها نفساً ورتب عليها آثارها فهـو

الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب إلى الإنسان من كل أمر مفروض حتى في نفسه ، ولكون هذا المعنى دقيقاً يشق تصوره على أكثر الأفهام عدل سبحانه إلى بيانه بنحو قوله : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وقريب منه بوجه قوله : ﴿إن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ .

ولهم في معنى الآية وجوه كثيرة أخر لا جدوى في نقلها والبحث عنها من أرادها فليراجع كتبهم .

قوله تعالى : ﴿إِذْ يَتَلَقَى المُتَلَقِيانَ عَنَ الْبِمِينَ وَعَنَ الشَّمَالُ قَعِيدُ ﴾ التلقي الأخذ والتلقن ، والمراد بالمتلقيان على ما يفيده السياق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتابة .

وقوله : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله ، والقعيد القاعد .

والظرف في قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَى المَتَلَقَيَانَ﴾ النظاهر أنه متعلق بمحذوف والتقدير اذكر إذ يَتَلَقَى المتلقيان ، والمراد به الإشارة إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط .

وقيل : الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : ﴿أَقَرِبَ﴾ والمعنى : نحن أقسرب إليه من حبل الوريد في حين يتلقى الملكان الموكلان عليه أعماله ليكتباها .

ولعل الوجه السابق أوفق للسياق فإن بناء هذا الوجه على كون العمدة في الغرض بيان أقربيته تعالى إليه وعلمه به والباقي مقصود لأجله ، وظاهر السياق وخماصة بالنظر إلى الآية التالية كون كل من العلم من طريق القرب ومن طريق تلقي الملكين مقصوداً بالاستقلال .

وقيل : «إذ» تعليلية تعلل علمه تعالى المدلول عليه بقوله : ﴿ونحن أقرب إليه﴾ الخ ، بمفاد مدخولها .

وفيه أن من البعيد من مذاق القرآن أن يستدل على علمه تعالى بعلم الملائكة أو بحفظهم وكتابتهم .

وقوله : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ تمثيل لموقعهما من الإنسان ، واليمين والشمال جانبا الخير والشرينتسب إليهما الحسنة والسيئة .

قوله تعالى : ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ اللفظ الـرمي سمي بـه التكلم بنوع من التشبيه ، والرقيب المحافظ ، والعتيد المعد المهيأ للزوم الأمر .

والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلم به من كلام ، وهي بعد قـوله : ﴿إِذْ يتلقى المتلقيان﴾ الخ ، من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به .

قوله تعالى : ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد الحيد العدول والميل على سبيل الهرب ، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه وينقطع عن الناس كالسكران الذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له .

وفي تقييد مجيء سكرة الموت بالحق إشارة إلى أن الموت داخل في القضاء الإلهي مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قبوله تعبالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾(١) ، وقد مر تفسيره فالموت وهو الانتقال من هذه الدار إلى دار بعدها حق كما أن البعث حق والجنة حق والنارحق ، وفي معنى كون الموت بالحق أقوال أخر لا جدوى في نقلها والتعرض لها .

وفي قوله: ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد﴾ إشارة إلى أن الإنسان يكره الموت بالطبع وذلك أن الله سبحانه زين الحياة الدنيا والتعلق بزخارفها للإنسان ابتلاء وامتحاناً، قال تعالى: ﴿ إِنَا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضَ زِينَةً لَهَا لَنْبَلُوكُم أَيَّكُم أَحْسَنَ عَمَلًا وَإِنَا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَى الأَرْضُ زِينَةً لَهَا لَنْبَلُوكُم أَيَّكُم أَحْسَنَ عَمَلًا وَإِنَا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جَرِزاً ﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ هذه نقلة ثانية إلى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الأولى ، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ .

والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده .

قوله تعالى : ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ السياقة حث الماشية على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها .

فقوله : ﴿وجاءت كل نفس﴾ أي جاءت إلى الله وحضرت عنده لفصل القضاء ،

⁽١) الأنبياء : ٣٥ .

⁽٢) الكهف: ٨.

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ (١) .

والمعنى: وحضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها وشاهد يشهد بأعمالها ولم يصرّح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكة ، غير أن السابق إلى الذهن من سياق الأيات أنهما من الملائكة ، وسيجيء الروايات في ذلك .

وكذا لا تصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بـل الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار ، وكذا الآيات التالية الذاكرة لاختصام الإنسان وقرينه دالة على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد .

قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات يوم القيامة ، والمخاطب بها هو الله سبحانه ، والذي خوطب بها هو الإنسان المذكور في قوله: ﴿وجاءت كل نفس﴾ ، وعليه فالخطاب عام متوجه إلى كل إنسان إلا أن التوبيخ والتقريع الملائح من سياق الآية ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري المعاد ، أضف إلى ذلك ، كون الآيات مسوقة لرد منكري المعاد في قولهم: ﴿واذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ .

والإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى ما يشاهده يومئذ ويعاينه من تقطّع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكل إلى الله الواحد القهار، وقد كان تعلق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهرية وركونه إليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا علماً فكرياً.

ولذا خوطب بقوله: ﴿لقد كنت﴾ في الدنيا ﴿في غفلة﴾ أحاطت بك ﴿من هذا﴾ الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ اليوم ﴿فبصرك﴾ وهو البصيرة وعين القلب ﴿اليوم﴾ وهو يوم القيامة ﴿حديد﴾ أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا.

ويتبين بالأية أولاً: أن معرّف يوم القيامة أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن

⁽١) القيامة : ٣٠ .

الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر ، وفي هذا المعنى وما يقرب منه آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿والأمر يومئذٍ لله﴾(١) ، وقوله : ﴿لمن الملك اليوم لله الـواحد القهـار﴾(١) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وثانياً: أن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيًا له وهو في الدنيا غير أنه في غفلة منه ، وخاصة يوم القيامة أنه يوم انكشاف الغطاء ومعلينة ما وراءه ، وذلك لأن الغفلة إنما يتصور فيما يكون هناك أمر موجود مغفول عنه ، والغطاء يستلزم أمراً وراءه وهو يغطيه ويستره ، وعدم حدَّة البصر إنما ينفع فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر .

ومن أسخف القول ما قيل: إن الآية خطاب منه تعالى لنبيه على والمعنى: لقد كنت قبل الرسالة في غفلة من هذا الذي نوحي إليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحي أو يبصر ملك الوحي فيتلقى الوحي، وذلك لأن السياق لا يساعده ولا لفظ الآية ينطبق عليه.

قوله تعالى : ﴿ وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد ﴾ لا يخلو السياق من ظهور في أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله : ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ هذا الإنسان الذي هو عندي حاضر ، وإن كان هو الشهيد كان المعنى هذا _ وهو يشير إلى أعماله التي حمل الشهادة عليها _ ما عندي من أعماله حاضر مهيأ .

وقيل : المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه ويغويه ، ومعنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذي توليت أمره وملكته حاضر مهيأ لدخول جهنم .

قوله تعالى : ﴿ أَلقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ﴾ الكفار اسم مبالغة من الكفر ، والمعتدي المعاند للحق المستمر على عناده ، والمعتدي المتجاوز عن الحد المتخطى اللحق ، والمريب الشاك أو المشكك في أمر البعث .

وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر برد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق والإصرار عليه ، والإصرار على العناد يوجب المنع

⁽١) الأنفطار: ١٩.

⁽٢) المؤمن : ١٦ .

عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا في الحق ومن ناحيته ، وهو يستلزم الخروج عن حد الحق إلى الباطل وتجاوز الإنسان عن حد العبودية إلى الاستكبار والـطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحق .

والخطاب في الآية منه تعالى ، وظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق والشهيد ، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار وخزنتها .

قوله تعالى : ﴿الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العداب الشديد ﴾ العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل : مشرك وقال : ﴿الذي جعل ﴾ الخ ، للإشارة إلى أن هذه الصفة أعظم المعاصي وأم الجرائم التي أتى بها والصفات الرذيلة التي عدّت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة .

وقوله: ﴿فَالْقَيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله: ﴿أَلْقَيَّا﴾ السخ ، ويلوّح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك ، ولذا عقبه بقوله: ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ المراد بهذا القرين قرينه من الشياطين بـ لا شك، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الـذي يلازم الإنسان ويوحي إليه ما يـوحي من الغواية والضلال، قال تعالى: ﴿ومن يعشُ عن ذكر الوحمان نقبض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾(١).

فقوله: ﴿قَالَ قَرِينهِ أَي شَيطانه الذي يصاحبه ويغويه ﴿رَبِنا﴾ أضاف الرب إلى نفسه والإنسان الذي هو قرينه لأنهما في مقام الاختصام ﴿مَا أَطغيته ﴾ أي ما أجبرته على الطغيان ﴿وَلَكُن كَانَ فِي ضَلال بعيد ﴾ أي متهيئاً مستعداً لقبول ما ألقيته إليه تلقّاه باختياره فما أنا بمسؤول عن ذنبه في طغيانه .

وقـد تقدم في سـورة الصافـات تفصيل اختصـام الظالمين وأزواجهم في قـولـه :

⁽١) الزخرف : ٣٨ .

﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (١) ، إلى آخر الأيات .

قوله تعالى : ﴿قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد ﴾ القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحلّ إلى خطابات جزئية لكل إنسان وقرينه بمثل قولنا : لا تختصما لديّ ، الخ .

وقـوك : ﴿وقـد قـدَّمت إليكم بـالـوعيــد﴾ حـال من فــاعـل ﴿لا تختصمــوا﴾ و ﴿بالوعيد﴾ مفعول ﴿قدَّمت﴾ والباء للوصلة .

والمعنى: لا تختصموا لدي فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك وظلم ، والوعيد الذي قدَّمه إليهم مثل قوله تعالى لإبليس: ﴿ اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعث منهم أجمعين ﴾ (٣) . أو قوله: ﴿ لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿مَا يَبدُلُ القولُ لَدِي وَمَا أَنَا بَطْلَامُ لَلْعَبِيدِ ﴾ الذي يعطيه السياق أن تكون الآية استئنافاً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلًا يقول : هب إنك قد قدّمت فهلًا غيرته وعضوت ؟ فأجيب بقوله : ﴿مَا يَبدُلُ القولُ لَدِيّ ﴾ والمراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذي قضى به الله ، وقد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم وينطبق بحسب المورد على الوعيد الذي أوعده الله لإبليس ومن تبعه .

فقد بان أن الجملة مستأنفة ، والمسراد بتبديل القول تغييسر القضاء المحتوم ، و «لدي» متعلق بالتبديل ، هذا ما يعطيه السياق ، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها ومعنى تبديل القول وجوهاً واحتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيد في الكلام إلا تعقيداً فأغمضنا عن إيرادها .

وقوله: ﴿وما أنا بـظلام للعبيد﴾ متمم لمعنى الجملة السـابقة أي لا يبـدل قولي فأنتم معذبون لا محالـة ولست أظلم عبيـدي في عـذابهم على طبق مـا قـدمت إليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجة .

ومن وجه آخر : لا ظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بـأعمالهم التي

(١) الصافات : ٢٢ . ٣) ص : ٨٥ .

(٢) الإسراء : ٦٣ . (٤) السجدة : ١٣ .

قدموها في أعمالهم ردت إليهم كما هو ظاهر قـوله تعـالى : ﴿يَا أَيُهَـا الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَعْتَذُرُوا الْيوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾(١) .

وما في قوله: ﴿ وَمِمَا أَنَا بَطْلَام ﴾ من نفي النظلم الكثير لا يستوجب جواز النظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظلماً كثيراً لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكبل إنسان مشرك ظالم مع قرينه ، وهم كثيرون فهو سبحانه لوظلم في شيء من الجزاء لكان ظلاماً .

قوله تعالى: ﴿ يَوْمِ نَقُولُ لَجَهُمْ هَلُ امْتَلَاتُ وَتَقُولُ هَلُ مِنْ مَزِيدٌ ﴾ خطاب منه تعالى لجهنم وجواب منها ، وقد اختلف في حقيقة هذا التكليم والتكلم فقيل : الخطاب والجواب بلسان الحال ويرده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بلك كان لكل من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها : هل من مزيد ؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكتة ظاهرة .

وقيل : حقيقة الخطاب لخزنة جهنم والجواب منهم وإن كانا نسبا إلى جهنم وفيه أنه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل .

وقيل: الخطاب والجواب على ظاهره، ولا دليل يبدل على عدم الجواز، وقد أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي والأرجل والجلود وغيرها، وهو الوجه وقبد تقدم في تنفسير سورة فصلت أن العلم والشعور سار في جميع الموجودات.

وقوله: ﴿هل امتلأت﴾ استفهام تقريري ، وكذا قوله حكاية عنها: ﴿هل من مزيد﴾ ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين وإيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ (٢).

واستشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى : ﴿لأملأنْ جَهِنَم﴾ الآية وأُجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال : البلد ممتلىء بأهله . على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها .

وقيل : الاستفهام في قوله : ﴿ هل من مزيد﴾ للإنكار والمعنى : لا مزيـد أي لا

⁽١) التحريم : ٧ .

⁽٢) التوبة : ٤٩ .

مكان في يزيد على من ألقي في من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة إلى ما قضى به في قوله : ﴿ لَا مَلَانَ جَهُمُ مِن الجنة والناس أجمعين ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ هل امتلأت في معنى أن يقال : ﴿ هل حق القول مني لأملأن جهنم ﴾ ، وقوله : ﴿ هل من مزيد ﴾ تقرير وتصديق له .

وربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل : ﴿مَا يَبَدُلُ القَوْلُ لَذِي﴾ على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى : ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ .

قوله تعالى: ﴿وأَرْلَسَفَتَ الْجَنَّةُ لَلْمَتَقَيْنَ غَيْرَ بَعَيْدَ﴾ شروع في وصف حال المتقين يـوم القيامـة، والإِرْلاف التقريب، و «غيـر بعيـد» على ما قيـل صفـة لـظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد.

والمعنى : وقربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلف لهم في دخولها .

قوله تعالى: ﴿هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من الثواب الموعود، والأواب من الأوب بمعنى الرجوع، والمراد كثرة الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة، والحفيظ هو الذي يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يترك فيضيع، وقوله: ﴿لكل أوّاب حفيظ﴾ خبر بعد خبر لهذا أو حال.

قوله تعالى : ﴿من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ بيان لكل أوَّاب والخشية بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائباً غير مرئي له ، والإنابة هو الرجوع ، والمجيء إلى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنابة فيأتي ربه بقلب متلبس بالإنابة .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ خطاب للمتقين أي يقال لهم : ادخلوا بسلام أي بسلامة وأمن من كل مكروه وسوء ، أو بسلام من الله وملائكته عليكم ، وقوله : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ بشرى يبشرون بها .

قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ يمكن أن يكون ﴿ فيها ﴾ متعلقاً بيشاؤون أو بمحذوف هو حال من الموصول ، والتقدير : حال كون ما يشاؤون فيها أو من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول ، والتقدير : ما يشاؤونه حال كونه فيها ،

⁽١) السجدة : ١٣ .

والأول أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه .

والمحصل: أن أهل الجنة وهم في الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيئتهم وإرادتهم كائناً ما كان من غير تقييد واستثناء فلهم كل ما أمكن أن يتعلق بـه الإرادة والمشيئة لو تعلقت .

وقوله: ﴿ولدينا مزيد﴾ أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك على ما يفيده السياق وإذا كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشيئتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب والمقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيئتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال.

وقيل: المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاؤون من جنس ما يشتهون فإذا شاءوا رزقاً أعطوا منه أكثر مما شاءوا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمرّ بهم السحابة فتقول: ماذا تريدون فامطره عليكم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرته عليهم.

وفيه أنه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيد فإن ظاهر قوله: ﴿لهم ما يشاؤن فيها﴾ أنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاءوا لا تملكهم ما شاءوه بالفعل فالمزيد وراء ما يمكن أن تتعلق به مشيئتهم .

وقيل : المراد أنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها وفيه ما في سابقه .

قوله تعالى : ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بـطشاً فنقُبـوا في البلاد هل من محيص﴾ التنقيب السير ، المحيص المحيد والمنجا .

وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره إلى الله بالتخويف والإنذار نظير ما جرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد وتذييله بالتخويف والإنذار في قوله : ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود﴾ الخ .

والمعنى : وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشد بطشاً منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا بيطشهم في البلاد ففتحوها وتحكموا عليها هل من محيد ومنجا من إهلاك الله وعذابه ؟

قوله تعالى : ﴿إِن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار،

فإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء ، وإلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شيء يلقى إلى المسموع فيناله ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد .

والمعنى : إن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا إليه من قصص الأمم الهالكة لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق ويختار ما فيه خيره ونفعه أو استمع إلى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضر يعي ما يسمعه .

والترديد بين من كان له قلب ومن استمع شهيداً لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه ويرى ما هو الحق فيذعن به ، وإما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه ، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيداً على ما يقال له ويلقى إليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعنت لا قلب له ولا سمع ، قال تعالى : ﴿وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستـــة أيام ومــا مسنا من لغوب﴾ اللغوب التعب والنصب ، والمعنى ظاهر .

(بحث روائي)

في التوحيد بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن ينزيد قبال : سألت أبا جعفر من خلق من خلق عن قبول الله عز وجل : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ قال : يا جابر تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدد الله عالماً غير هذا العالم وجدد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم ، وسماء غير هذه السماء تظلهم .

لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الـواحد أو تـرى أن الله لم يخلق بشراً غيركم بلى والله لقد خلق ألف ألف عـالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العـوالم وأولئك الأدميّين .

⁽١) الملك : ١٠ .

سورة قی۔آیة ۳۸ ۲۸

أقول: وروي في الخصال الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم عنه على المراد بكون ما ذكر تأويل الآية أنه مما ينطبق عليه.

وعن جوامع الجامع عن النبي متنطقة : كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يمين الرجل وكاتب السيئات على شماله ، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال : فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر .

أقول : وفي معناها روايات أخرى ، وروي ست ساعات بدل سبع ساعات .

وفي نهج البلاغة ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها .

وفي المجمع وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش قال: حدَّثنا أبو المتوكل التاجر عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله سلالي : إذا كنان يوم القيامة يقول الله لي ولعلي: ألقيا في النار من أبغضكما، وأدخلا في الجنة من أحبكما وذلك قوله: ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴾ .

أقول: ورواه شيخ الطائفة في أماليه بإسناده عن أبي سعيـد الخدري عنـه ملوانه والدوسلم

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله سيمال يقول : إن ابن آدم لفي غفلة عما خلق له إن الله إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه . اكتب أثره . اكتب أجله شقيًا أم سعيداً ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكاً فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك .

ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان وجاء ملك الموت ليقبض روحه فإذا أدخل قبره رد الروح في جسده وجاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان .

فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فبسطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق وآخر شهيد . ثم قال رسول الله مسلماتي : إن قدامكم لأمراً عظيماً لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿يوم نقولِ لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ قال : هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها فتمتلىء النار ثم يقول لها : هل امتلأت ؟ وتقول : همل من مزيد ؟ على حد الاستفهام أي ليس في مزيد .

أقول: بناؤه على كون الاستفهام إنكارياً.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال: قال رسول الله عمرات الله الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله عمرات الله الله عمرات الله عم

ولا يـزال في الجنة فضـل حتى ينشىء الله لها خلقـاً آخر فيسكنهم في قصـور الجنة .

أقول : وضع القدم على النار وقـولها : قط قط مـروي في روايات كثيـرة من طرق أهل السنة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيـد﴾ قال : النظر إلى رحمة الله .

وفي الـدر المنشور أخـرج البـزاز وابن المنـذر وابن أبي حـاتم وابن مــردويــه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله تعالى : ﴿ولدينا مزيد﴾ قال : يتجلى لهم الرب عز وجل .

وفي الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر سُنف : يا هشام إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنْ فِي ذَلْكُ لَـذَكُرَى لَمَنَ كَانَ لَهُ قَلْبَ﴾ يعني عقل .

وفي الدر المنثور أخرج الخطيب في تماريخه عن العوام بن حوشب قمال : لا بأس سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الأخرى فقمال : لا بأس به إنما كره ذلك اليهود زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة فأنزل الله ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب﴾ .

أقول: وروي هذا المعنى عن الضحاك وقتادة ، وروى هذا المعنى المفيد في روضة الواعظين في رواية ضعيفة ، وأصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الأسبوع واقع في التوراة ، والقرآن وإن كرر ذكر خلق الأشياء في ستة أيام لكنه لم يذكر كون هذه الأيام هي أيام الأسبوع ولا لوّح إليه .

وعلى هذه الروايات اعتمد من قال: إن الأية مدنية ، ولا دلالة في ردِّها قـول اليهود أن تكون نازلة بالمدينة ، وفي الآيات المكية ما تعرَّض سبحانه فيه لشـأن اليهود كما في سورة الأعراف وغيرها .

* * *

فَآصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّعْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُروبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُروبِ (٤١) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشَّمُودِ (٤٠) وَآسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ آلْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبِ (٤١) يَوْمَ الشَّعُونَ الصَّيْحَةَ بِآلْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِآلْحَقِي ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمُصِيرُ (٤٢) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْهِمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْهُمْ مِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّادٍ فَذَكُرْ بِآلْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٤) .

(بیان)

خاتمة السورة يأمر النبي المستنبي المستنبي على ما يقولون مما يرمونه بنحو السحر والجنون والشعر ، وما يتعنتون به باستهزاء المعاد والرجوع إلى الله تعالى فيأمره المستنبي بالصبر وأن يعبد ربه بتسبيحه وأن يتوقع البعث بانتظار الصيحة ، وأن يذكّر بالقرآن من يخاف الله بالغيب .

قوله تعالى : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ تفريع على جميع ما تقدم من إنكار المشركين للبعث ، ومن تفصيل القول في البعث والحجة عليه ، ومن وعيد المنكرين له المكذبين للنبي مسنّن الله

وتهديدهم بمثل ما جرى على المكذبين من الأمم الماضية .

وقوله: ﴿وسبّح بحمد ربك﴾ الخ ، أمر بتنزيهه تعالى عما يقولون مصاحباً للحمد ومحصله إثبات جميل الفعل له ونفي كل نقص وشين عنه تعالى ، والتسبيح قبل طلوع الشمس يقبل الانطباق على صلاة الصبح ، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاة الظهر .

قوله تعالى : ﴿ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ أي ومن الليل فسبحه فيه ، ويقبل الانطباق على صلاتي المغرب والعشاء .

وقوله: ﴿وأدبار السجود﴾ الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي إليه الشيء وبعده ، وكأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات ، وقيل : المراد به النوافل بعد الفرائض ، وقيل : المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل : ركعة الوتر في آخر الليل .

قوله تعالى: ﴿واستمع يـوم يناد المناد من مكان قريب﴾ فسروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمناً معنى الانتظار و ﴿يـوم يناد المناد﴾ مفعوله والمعنى: وانتظر يوماً ينادي فيه المنادي ملقياً سمعك لاستماع ندائه، والمراد بنداء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيده الآية التالية.

وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف بالقرب والبعد فإنما هو نداء البعث وكلمة الحياة .

قوله تعالى : ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يـوم الخروج﴾ بيـان ليوم ينادي المنادي ، وكون الصيحة بالحق لأنها مقضية قضاء محتوماً كمـا مر في قـوله : ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ الآية .

وقوله : ﴿ ذلك يوم الخروجِ ﴾ أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿إِنَا نَحَنَ نَحِيى وَنَمِيتَ وَإِلَيْنَا الْمُصَيِّرِ ﴾ المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا ، وبالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل إلى

⁽١) المعارج: ٣٤.

عالم القبر ، وبقوله : ﴿وَإِلَيْنَا الْمُصَيِّرِ﴾ الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيـده السياق .

قوله تعالى : ﴿ يُوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ أصل «تشقق» تتشقق أي تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعي .

وقوله : ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقة عنهم سراعاً جمع لهم علينا يسير .

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ في مقام التعليل لقوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ الآية ، والجبار المتسلط الذي يجبر الناس على ما يريد .

والمعنى: فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزيهم بما عملوا ولست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي المنتور أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي المنتقب في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب صلاة العصر .

وفي المجمع روي عن أبي عبد الله طلات أنه سئل عن قوله: ﴿وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ فقال: تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له لـه الملك وله الحمد وهو على كـل شيء قدير.

أقـول: هو مـأخوذ من إطـلاق التسبيح في الآيـة وإن كـان خصـوص مـورده صلاتي الصبح والعصر فلا منافاة .

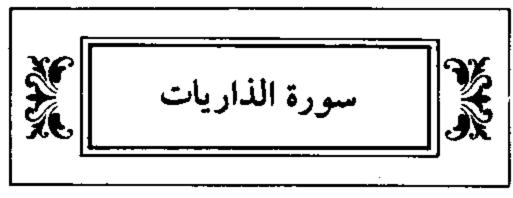
وفي الكافي بإسناده عن حريـز عن زرارة عن أبي جعفر طِنْكُ قـال : قلت : ﴿وأدبار السِجود﴾ قال : ركعات بعد المغرب .

أقول: ورواه القمي في تفسيره باسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا الله ولفظه قال: أربع ركعات بعد المغرب.

وفي الدر المنثور أخرج مسدّد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : سألت رسول الله على عن أدبار النجوم والسجود فقال : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة .

أقول: وروى مثله عن ابن عباس وعمر عنه مُثَلَثُهُ ، وأَسنده في مجمع البيان إلى الحسن بن على بَلْكُ أيضاً عن النبي مُشَرِّهُ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿فَذَكُّر بِـالقَرَآنَ مَن يَخَـافُ وَعَيد﴾ قــال : ذكّر يا محمد ما وعدناه من العذاب .



مكية ، وهي ستون آية

بِسُمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّارِيَاتِ ذَرُواً (١) فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً (٢) فَالْجَارِيَاتِ مُوْلًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَمُواْ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ آلْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) لَوْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكَ (٩) قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَسْعُجِلُونَ هُمْ عَلَىٰ النَّارِ سَاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَسْعُجِلُونَ (١٤) إِنَّ مُنْ النَّارِ يَفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَنْذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ لَمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِي أَمْوَالِهِمْ حَقَّ لِلسَّائِلِ وَإِلَى مُوالِهِمْ حَقًّ لِلسَّائِلِ وَإِلْمَحْرُومِ (١٩) . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقًّ لِلسَّائِلِ وَآلُمَحْرُومِ (١٩) .

(بیان)

كانت الدعوة النبوية تدعو الوثنية إلى توحيد الربوبية وأن الله تعالى هو ربهم ورب كـل شيء ، وكانت الـدعوة من طـريق الإنذار والتبشيـر وِخاصـة بالإنـذار وكان الإنـذار

بعذاب الله في الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال ، وفي الأخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة وهو العمدة في نجاح الدعوة إذ لولا الحساب والجزاء يـوم القيامة كان الإيمان بالوحدانية والنبوَّة لغيً لا أثر له .

والمشركون باتخاذهم آلهـة دون الله سبحانـه شديـدوا الإنكار لأصـول التوحيـد والنبوة والمعاد ، وكانوا يتعنتون بإنكار المعاد والإصـرار على نفيه والاستهـزاء به من أي طريق ممكن لما يرون أن في بطلانه بطلان الأصلين الأخرين .

والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له فتبدأ به وتختم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه بل من حيث إنه يوم الجزاء وأن الله الـذي وعدهم به هو ربهم وهو الذي وعدهم به ووعده صدق لا ريب فيه .

ولذلك لما انساق الكلام إلى الاحتجاج عليه احتجت بأدلة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأنفس وما عاقب الله به الأمم الماضين إثر دعوتهم إلى التوحيد وتكذيبهم لرسله ، وليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذي وعده الله والله لا يخلف الميعاد وأخبرت به الدعوة النبوية فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء وقد توسلوا بذلك إلى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الإيمان به لغواً لا أثر له كما تقدمت الإشارة إليه .

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها عليه ولم يختلف في ذلك أحـد ، ومن غرر آياتها قوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ .

والفصل الذي أوردناه من الأيات مفتتح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الـذي وعدوه صدق وإنكـارهم لـه وتعنتهم بـذلـك تخـرص ثم يصف يــوم الجـزاء وحــال المتقين والمنكرين فيه .

قوله تعالى : ﴿والذاريات ذرواً فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً ﴿ الذاريات جمع الذارية من قولهم : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن .

وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله : ﴿والذاريات ذرواً ﴾ إقسام بالرياح المثيرة للتراب ، وقوله : ﴿فالحاملات وقراً ﴾ بالفاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام

سورة الذاريات_ آية ١-٦٠٠٠ ٣٦٩

بالسحب الحاملة لثقل الماء ، وقوله : ﴿فالجاريات يسراً ﴾ عطف عليه وإقسام بالسفن الجارية في البحار بيسر وسهولة .

وقوله: ﴿ وَالمقسمات أمراً ﴾ عطف على ما سبقه وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسم بتقسمهم ثم إذا حمله طائفة هي دون الطائفة الأولى تقسم ثانياً بتقسمهم وهكذا حتى ينتهي إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونية الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثر بتكثرها .

والآيات الأربع ـ كما ترى ـ تشير إلى عامة التدبير حيث ذكرت انموذجاً مما يدبر به الأمر في البحر وهو المذاريات ذرواً ، وانموذجاً مما يدبر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً وانموذجاً مما يدبر به الأمر في الجو وهو الحاملات وقراً ، وتمم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير وهم المقسمات أمراً .

فالآيات في معنى أن يقال: أقسم بعامة الأسباب التي يتمم بها أمر التدبير في العالم إن كذا كذا ، وقد ورد من طرق المخاصة والعامة عن علي عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم .

وعن الفخر الرازي في التفسير الكبير أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعاً على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذرواً تحمل السحب الثقال وتجري في الجو بيسر وتقسم السحب على الأقطار من الأرض.

والحق أن ما استقر به بعيد ، وما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره .

قوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَصَادَقَ وَإِنْ الْدِينَ لُواقِع ﴾ ﴿مَا مُوصُولَة ، والضمير العائد إليها محذوف أي الذين توعدونه ، أو مصدرية ، و ﴿توعدون من الوعد كما يؤيده قوله : ﴿وَإِنْ الدينَ لُواقع ﴾ الشامل لمطلق الجزاء ، وقيل : من الايعاد كما يؤيده قوله : ﴿ فَذَكُرُ بِالقرآنُ مَنْ يَخَافُ وَعَيد ﴾ (١) .

وعد الوعد صادقاً من المجاز في النسبة كما في قوله: ﴿ فِي عيشة راضية ﴾ (٢) أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله: ﴿ فِي عيشة راضية ﴾ والدين الجزاء.

⁽١)ق: ٥٤.

⁽٢) الحاقة : ٢١ .

وكيف كان فقوله: ﴿إِن ما توعدون لصادق﴾ جواب القسم، وقوله: ﴿وَإِن الله وَكُذَا أَن الذِي الله له معطوف عليه بمنزلة التفسير، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذي توعدونه _ وهو الذي يعدهم القرآن أو النبي مسلام بما أنزل إليه _ من يوم البعث وأن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً لصادق، وإن الجزاء لواقع.

قوله تعالى : ﴿والسماء ذات الحبك﴾ الحبك بمعنى الحسن والزينة ، وبمعنى المستوي ، ويأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى وتكسر من مرور الرياح عليه .

والمعنى على الأول: أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى: فإنّا زيّنًا السماء الدنيا بزينة الكواكب (١)، وعلى الثاني: اقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ الآية ٤٧ من السورة وعلى الثالث اقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴿ () .

ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم كما أن الأقسام السابقة : ﴿والذاريات ذرواً ﴾ الخ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها : ﴿إنما توعدون ﴾ الخ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله والسير إليه .

قوله تعالى : ﴿إِنْكُم لَقِي قُولُ مَحْتَلُفُ يَوْفُكُ عَنْهُ مِن أَفْكُ﴾ القول المختلف ما يتناقض ويدفع بعضه بعضاً وحيث إن الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي المنات النبي المنات المناق وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف على الأقرب - قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتارة يقولون : إنه سحر والجائي به ساحر ، وتارة يقولون : زجر والجائي به مجنون ، وتارة يقولون : إلقاء شياطين الجن والجائي به كاهن ، وتارة يقولون : شعر والجائي به شاعر ، وتارة إنه افتراء ، وتارة يقولون إنما يعلمه بشر ، وتارة يقولون : أساطير الأولين الكتنها .

⁽١) الصافات : ٦ .

⁽٢) المؤمنون : ١٧ .

سورة الذاريات ـ آية ٧-١٢١٢٠٠ ...٠٠٠ ٢٧١

وقوله: ﴿ وَيُؤْفُكُ عِنْهُ مِنْ أَفْكُ ﴾ الإفك الصرف ، وضمير ﴿ عَنْهِ ﴾ إلى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء ، والمعنى : يصرف عن القرآن من صرف ، وقيل : الضمير للنبي المنابق والمعنى : يصرف عن الإيمان به من صرف ، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق وإن كان مآل المعنيين واحداً .

وحكي عن بعضهم أن ضمير ﴿عنه﴾ لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولاً بالذاريات وغيرها على أن البعث والجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد ثم قال تعالى : يؤفك عن الإقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك . وهذا الوجه قريب من الوجه السابق .

وعن بعضهم: أن الضمير لقول مختلف و دعن، للتعليل كما في قــوك، تعـالى : ﴿وما نحن بتـاركي آلهتنا عن قـوكك﴾(١) ، فيكـون الجملة صفـة لقـول والمعنى : إنكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من أفك ، وهو وجه حسن .

وقيل: الضمير في ﴿إنكم﴾ للمسلم والكافر جميعاً فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث والجزاء وقول الكفار بعدم الوقوع. ولعل السياق لا يلائمه وقيل بعض وجوه أخر رديئة لا جدوى في التعرض له.

قوله تعالى : ﴿قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين ﴾ أصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم ، ولكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خرّاصاً ، والأشبه أن يكون المراد بالخراصين في الآية القوالين من غير علم ودليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم .

وفي قوله : ﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح وإليه يؤول قول من فسره باللعن .

وقوله: ﴿ اللَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةُ سَاهُونَ ﴾ الغمرة ـ كما ذكر الراغب معظم الماء الساتر لمقرها، وجعل مثلًا للجهالة التي تغمر صاحبها، والمراد بالسهو ـ كما قيل ـ مطلق الغفلة.

⁽١) هود : ٥٣ .

ومعنى الآيـة وهي تصف الخراصين : الـذين هم في جهـالــة أحـاطت بهم غافلون عن حقيقة ما أخبروا به .

وقوله : ﴿ يَسَالُونَ أَيَّانَ يُومِ الدِّينَ ﴾ ضمير الجمع للخراصين قـول قالـوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ (١) .

والسؤال بأيان ـ الموضوعة للسؤال عن زمان مدخولها ـ عن يوم الدين وهو ظاهر في الزمان إنما هو بعناية أن يوم الدين لكونه موعوداً ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بأيان ومتى كما يقال : متى يوم العيد لكونه ذا شأن ملحقاً لذلك بالزمانيات كذا قيل .

ويمكن أن يكون من التوسع في معنى الظرفية بأن يعد أوصاف النظرف الخاصة به ظرفاً توسعاً فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالاً عن أنه بعد أي زمان أو قبل أي زمان ؟ كما يقال : متى يوم العيد ؟ فيجاب بأنه بعد عشرة أيام مشلاً أو قبل يوم كذا ، وهو توسع جار في العرف غير مختص بكلام العرب ، وفي القرآن منه شيء كثير .

قوله تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ ضمير الجمع للخراصين ، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق الإحراق والتعذيب ، والظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدأ ، والآية جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته والإشارة إلى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله قال تعالى: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ .

وتقدير الآية ومعناها : يقع يوم الدين أو هـو واقع يـوم هم أي الخراصـون في النار يعذبون أو يحرقون .

قوله تعالى : ﴿ فَوقُوا فَتَنْتَكُم هَـذَا الذِّي كُنْتُم بِـه تَسْتَعَجَّلُونَ ﴾ حكايـة خطاب منه تعالى أو من الملائكة بأمره للخراصين وهم يفتنون على النار يومئذٍ .

والمعنى : يقـال لهم ذوقوا العـذاب الذي يخصكم . هـذا العذاب هـو الذي كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالاً واستهزاء : أيان يوم الدين .

⁽١) يس : ٤٨ .

قوله تعالى : ﴿إِن المتقين في جنات وعيـون﴾ بيان لحـال المتقين يوم الـدين بعد وصف حال أولئك الخراصين .

وتنكير جنات وعيون للإشارة إلى عظم قدرها كـأنها بحيث لا يقـدر الواصفـون على وصفها ، وقد ألحقت العيون بالجنات في ظرفيتها توسعاً .

قوله تعالى : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ أي قابلين ما أعطاهم ربهم الرؤوف بهم راضين عنه وبما أعطاهم كما يفيده خصوص التعبير بالأخذ والإيتاء ونسبة الإيتاء إلى ربهم .

وقوله : ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ تعليل لما تقدمه أي إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة .

قوله تعالى : ﴿كانوا قليلًا من الليل ما يهجمون﴾ الآيات تفسير لإحسانهم ، والهجوع النوم في الليل وقيل : النوم القليل .

ويمكن أن تكون : ما زائدة و ﴿يهجعون﴾ خبر كانوا ، و ﴿قليلاً﴾ ظرفاً متعلقاً به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعاً قليلاً ﴿ومن الليل﴾ متعلقاً بقليلاً والمعنى : كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نـوماً قليلاً .

وأن تكون موصولة والضمير العائد إليها محذوفاً و ﴿قليلاً﴾ خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى : كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه .

وأن تكون مصدرية والمصدر المسبوك منها ومن مدخولها فاعالًا لقوله : ﴿قليلًا﴾ وهو خبر ﴿كانوا﴾ .

_ وعلى أي حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليلة في فيفيد أنهم يهجعون كل ليلة زماناً قليلًا منها ويصلون أكثرها ، وإما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالي فيفيد أنهم يهجعون في قليل من الليالي ويقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلا في قليل من الليالي .

قوله تعالى : ﴿وَبِالأَسحارِ هُم يُستَغَفَرُونَ﴾ أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم ، وقيل : المراد بالاستغفار الصلاة وهو كما ترى .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمُوالُهُمْ حَقَ لَلْسَائِلُ وَالْمُحْرُومُ ﴾ الآيتان السابقتان تبينان خاصة سيرتهم في جنب الله سبحانه وهي قيام الليل والاستغفار بالأسحار وهذه الآية تبين خاصة سيرتهم في جنب الناس وهي إيتاء السائل والمحروم .

وتخصيص حق السائل والمحروم بأنه في أموالهم ـ مع أنه لو ثبت فإنما يثبت في كـل مال ـ دليـل على أن المراد أنهم يـرون بصفاء فـطرتهم أن في أموالهم حقـاً لهما فيعملون بما يعملون نشراً للرحمة وإيثاراً للحسنة .

والسائل هو الذي يسأل العطية بإظهار الفاقة والمحروم هو الذي حـرم الوزق فلم ينجح سعيه في طلبه ولا يسأل تعففاً .

(بحث روائي)

أقول : والحديث مروي من طرق أهل السنة أيضاً كما في روح المعاني .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفاريابي وسعيد بن منصور والحارث بن أبي أسامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالْدَارِيَاتَ ذَرُواً ﴾ قال: الرياح ﴿ وَالْحَامُلاتُ وَقُراً ﴾ قال: السحاب ﴿ وَالْجَارِياتُ يُسراً ﴾ قال: السفن ﴿ وَالْمَقْسَمَاتَ أَمْراً ﴾ قال: الملائكة .

وفي المجمع قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام : لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى ، والله يقسم بما شاء من خلقه .

وفي الـدر المنثور أخـرج ابن منيع عن علي بن أبي طـالب أنه سئـل عن قولـه : ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال : ذات الخلق الحسن .

أقبول : وروي مثله في المجمع ولفظه : وقيل : ذات الحسن والزينة عن

علي ﷺ وفي جوامع الجامع ولفظه : وعن علي ﷺ حسنها وزينتها .

وفي بعض الأخبار في قوله تعالى : ﴿إِنكُمْ لَفِي قُـولُ مَخْتَلَفَ يَؤْفُكُ عَنَّهُ مِنْ أَفْكُ﴾ تطبيقه على الولاية .

وفي المجمع في قول تعالى : ﴿كَانُوا قَلْمَالًا مِنَ اللَّهِلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وقيل معناه : كانُوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها وهو المروي عن أبي عبد الله عَلَيْنَهُ .

وفيه في قول تعالى : ﴿وَفِي الأسحار هُمْ يَسْتَغَفَّرُونَ﴾ وقال أبو عبد الله عنه الموتر سبعين مرة في السحر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردوية عن أنس قال: قال رسول الله مُسْلَمْ : إن آخــر الليـل في التهجــد أحب إليَّ من أولـه لأن الله يقــول: ﴿وبـالأسحــار هم يستغفرون﴾ .

وفيه أخرج ابن مردوية عن ابن عمر عن النبي مُشَرَاثُ في قوله : ﴿بِالأَسْحَارِ هُمُ يُسْتَغَفِّرُونَ﴾ قال : يصلون .

أقبول: لعل تفسير الاستغفار بالصلاة من جهة اشتمال البوتر عليه كبارادة الصلاة من القرآن في قوله: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾(١).

وفي تفسير القمي في قولـه تعالى : ﴿وفي أمـوالهم حق للسائــل والمحروم﴾ قال : السائل الذي يسأل ، والمحروم الذي قد منع كده .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله على أبي الأية قال إلا المحروم المحارف الذي قد حرم كديده في الشراء والبيع .

قـال : وفي رواية أخـرى عن أبي جعفر وأبي عبـد الله عليهما السـلام قـال : المحروم الرجل ليس بعقله بأس ولا يبسط له في الرزق وهو محارف .

وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَــاتُ لِلْمُــوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَــلَا

Presented by: https://jafrilibrar

(١) الإسراء : ٧٨ .

تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّـٰهُ لَحَقُّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُـونَ (٣٣) هَلْ أَتَـاكَ حَـدِيثُ ضَيْفِ إِبْـرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْـهِ فَقَالُـوا سَلَامـاً قَـالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَـرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَـاءَ بِعِجْلِ سَمِين (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ آمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَلْالِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أَرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُـرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَـارَةً مِّنْ طِين (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبُّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتِ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكَّنَا فِيهَا آيَةً لُلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينِ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتُهُ كَـالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتُّعُوا حَتَّىٰ حِين (٤٣) فَعَتَـوْا عَنْ أَمْـرِ رَبِّهِمْ فَـأَخَـذَتْهُـمُ الصَّساعِـقَـةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوْحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلْأَرْضَ فَـرَشْنَاهَـا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِـدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ

شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُوا إِلَىٰ اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَها آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْـهُ نَذِيـرٌ مُّبِينٌ (٥١) .

(بیان)

تشير الآيات إلى عدة من آيات الله الدالّة على وحدانيته في الربوبية ورجوع أمر التدبير في الأرض والسماء والناس وأرزاقهم إليه ، ولازمه إمكان نزول الدين الإلهي من طريق الرسالة بـل وجوبه ، ولازمه صـدق الدعـوة النبوية فيما تضمّنته من وعد البعث والجزاء وأن ما يوعدون لصادق وأن الدين لواقع ، وقد مرّت إشارة إلى خصوصية سلوك السورة في احتجاجها في البيان السابق .

قوله تعالى: ﴿وَفَي الأَرْضِ آيَات للموقنين﴾ الاستنتاج الآتي في آخر هذه الآيات في قوله : ﴿وَفَقُرُوا إِلَى الله ﴾ إلى أن قال ﴿ولا تجعلوا مع الله إِلها آخر ﴾ الآية ، يشهد على أن سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيته تعالى في الربوبية لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه ونحو ذلك .

وفي الآية إشارة إلى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الدالة على وحدة التدبير القائمة بوحدانية مدبره من بر وبحر وجبال وتلال وعيون وأنهار ومعادن ومنافعها المتصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق وصدفة ، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دال على أن خلقها وتدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبر قادر عليم حكيم .

فأي جانب قصد من جوانبها وأية وجهة وليت من جهات التدبير العام الجاري فيها كانت آية بينة وبرهاناً ساطعاً على وحدانية ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين .

قوله تعالى : ﴿وَفِي أَنْفُسَكُم أَفَلا تَبْصُرُونَ﴾ معطوف على قوله : ﴿فِي الأرض﴾ أي وفي أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها وركز النظر فيها أفلا تبصرون .

والآيات التي في النفوس منها ما هي في تبركب الأبدان من أعضائها وأعضاء أعضائها حتى ينتهي إلى البسائط وما لها من عجائب الأفعال والآثار المتحدة في عين

تكثرها المدبرة جميعاً لمدبر واحد ، وما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب .

ومنها ما هي من حيث تعلق النفوس أعني الأرواح بها كالحواس من البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس التي هي الطرق الأولية لاطلاع النفوس على الخارج لتميز بذلك الخير من الشر والنافع من الضار لتسعى إلى ما فيه كمالها وتهرب مما لا يلائمها ، وفي كل منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده عما يعمله السمع بنظامه الجاري فيه وهكذا ، والجميع مع هذا الانفصال والتقطع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبرة والله من ورائهم محيط .

ومن هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوة الغضبية والقوة النفسية وما لها من اللواحق والفروع فإنها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة وانفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبر واحد تتعاضد جميع شعبها وتأتلف لخدمته.

ونظام التدبير الذي لكل من هذه المدبرات إنما وجد له حينما وجد وأول ما ظهر من غير فصل فليس مما عملت فيه خيـرته وأوجـده هو لنفسـه عن فكر ورويـة أو بغيره فنظام تدبيره كنفسه من صانع صنعه وألزمه نظامه بتدبيره .

ومنها الآيات الروحانية الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع إليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلع عليها في زمرة الموقنين فيسرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعالى : ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾(١).

قوله تعالى : ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ قيل : المراد بالسماء جهة العلو فإن كل ما علاك وأظلُك فهو سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر الذي ينزله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه ويلبسونه وينتفعون به وقد قال تعالى : ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها﴾(٢) ، فسمّى المطر رزقاً فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم .

وقيل: المراد أسباب الرزق السماوية من الشمس والقمر والكواكب واختلاف

⁽١) الأنعام : ٧٥ .

⁽٢) الجاثية : ٥ .

المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة وتوالي الليل والنهار وهي جميعاً أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم أو فيه تجوّز بدعوى أن وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب .

وقيـل : المراد بكـون الرزق فيهـا كون تقـديره فيهـا ، أو أن الأرزاق مكتوبـة في اللوح المحفوظ فيها .

ويمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء ومنها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه وقد صرّح بذلك في أشياء كقوله تعالى : ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾(١) ، وقوله : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾(١) ، وقوله على نحو العموم : ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾(١) ، والمراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وولد وعلم وقوة وغير ذلك .

وقوله: ﴿وما توعدون﴾ عطف على ﴿رزقكم﴾ الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى: ﴿عندها جنة المأوى﴾(٤) ، وقول بعضهم: إن المراد به الجنة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط﴾(٥) .

نعم تكرر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيـوي إلى السماء كقـوله : ﴿فَأَنزَلْنَـا عَلَى النَّـماء كَانُولُنَّا ع على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾(١٠) ، وغير ذلك .

وعن بعضهم أن قـوله : ﴿وما توعـدون﴾ مبتدأ خبـر قـولـه : ﴿فـورب السمـاء والأرض إنه لحق﴾ والواو للاستئناف وهو معنى بعيد عن الفهم .

أقوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ النطق التكلم وضمير ﴿إنه ﴾ راجع إلى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحق هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهي دون أن يكون أمراً تبعياً أو اتفاقياً .

والمعنى: أقسم برب السماء والأرض إن ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنة ـ وهو أيضاً من الرزق فقد تكرر في القرآن تسمية الجنة رزقاً كقوله : ﴿لهم

(١) الزمر: ٦. (٣) الحجر: ٢١. (٥) الأعراف: ٤٠.

(٢) الحديد : ٢٥ .
 (١) النجم : ١٥ .

مغفرة ورزق كريم﴾(١) ، وغير ذلك ، في السماء لثّابت مقضي مثـل نطقكم وتكلمكم الذي هو حق لا ترتابون فيه .

وجوز بعضهم أن يكون ضمير ﴿إنه ﴾ راجعاً إلى ﴿ما توعدون ﴾ فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى الذين في قوله : ﴿وإن الدين لواقع ﴾ أو إلى اليوم في قوله : ﴿أيّان يوم الدين ﴾ أو إلى جميع ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، ولعل الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قبوله : ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ كما قدمنا .

(كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق)

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمد شيئاً آخر في بقائه بانضمامه إليه أو لحوقه به بأي معنى كان كالغذاء الذي يمد الإنسان في حياته وبقائـه وبصيرورتـه جزء من بـدنه وكالزوج يمدّ زوجه في إرضاء غريزته وبقاء نسله وعلى هذا القياس .

ومن البين: أن الأشياء المادية يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان والنبات مثلاً فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة ومختلف الأحوال كما أنها أطوار من الكون لاحقة به منسوبة إليه كذلك هي بعينها أطوار من الكون لاحقة بالرزق منسوبة إليه وإن كان ربما تغيرت الأسماء فكما أن الإنسان يصير بالتغذي ذا أجزاء جديدة في بدنه كذلك الغذاء يصير جزء جديد من بدنه اسمه كذا.

ومن البين أيضاً: أن القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء يتعين به ما يجري على كل شيء في نفسه وأطوار وجوده ، وبعبارة أخرى سلسلة الحوادث بما لها من النظام الجاري مؤلفة من علل تامة ومعلولات ضرورية .

ومن هنا يظهر أن الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان فلا معنى لموجود يطرأ عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أو لحوقه إلا مع وجود الشيء المنضم أو اللاحق المشترك معه في طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمد في بقائه ولا رزق له ، ولا معنى لرزق متحقق ولا مرزوق له كما لا معنى لريادة الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق ، وكذا لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولاً أولياً

⁽١) الأنفال : ٧٤ .

لا بالعرض ولا بالتبع وهو المعني بكون الرزق حقاً .

* * *

قوله تعالى : ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ إشارة إلى قصة دخول الملائكة المكرمين إشارة إلى قصة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم مُنْكُ وتبشيـرهم له ولـزوجه ثم إهـلاكهم قوم لـوط، وفيها آية على وحدانية الربوبية كما تقدمت الإشارة إليه .

وفي قـوله : ﴿هـل أتاك حـديث﴾ تفخيم لأمر القصـة و ﴿المكـرمين﴾ ـ وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم ـ صفة ﴿ضيف﴾ وإفراده لكـونه في الأصـل مصدراً لا يثنى ولا يجمع .

قوله تعالى : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهُ فَقَالُوا سَلَاماً قَـالُ سَلَام قَـوم مَنْكُرُونَ﴾ النظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : ﴿حَدَيْثَ﴾ و ﴿سَلَاماً﴾ مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا : نسلم عليك سلاماً .

وقوله : ﴿قال سلام﴾ قول ومقول و ﴿سلام﴾ مبتدأ محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم ، وفي إتيانه بالجواب جملة اسمية دالة على الثبوت تحية منه عليه بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم : سلاماً فإنه جملة فعلية دالة على الحدوث .

وقوله: ﴿قوم منكرون﴾ الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم في نفسه ، ومعناه أنه لما رآهم استنكرهم وحدَّث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون ، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾(١) حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ إليهم فإن ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث بشاهد منه ذلك .

وهذا المعنى أوجه من قـول جمع من المفسـرين : إنه حكـاية قـوله طلطة لهم والتقدير أنتم قوم منكرون .

قوله تعالى : ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ الروغ الذهاب على سبيل

(۱) هود : ۷۰ .

الاحتيال على ما قباله السراغب وقال غيـره : هــو الــذهــاب إلى الشيء في خفيــة ، والمعنى الأول يرجع إلى الثاني .

والمراد بالعجل السمين المشوي منه بدليل قوله : ﴿فقرَّبِه إليهم﴾ أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشوّاه وقرّبه إليهم .

قوله تعالى : ﴿فقرَبه إليهم فقال ألا تـأكلون﴾ عرض الأكـل على الملائكة وهو يحسبهم بشراً .

قوله تعالى : ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف الغ﴾ الفاء فصيحة والتقدير فلم يمدوا إليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة ، والايجاس الإحساس في الضمير والخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعاً من الخوف .

وقوله: ﴿قالوا لا تخف﴾ جيء بالفصل لا بالعطف لأنه في معنى جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا كان بعد ايجاس الخيفة فقيل: قالوا: لا تخف وبشّروه بغلام عليم فبدلوا خوفه أمنة وسروراً والمراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق وقد تقدم المخلاف فيه.

قوله تعالى : ﴿فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقبالت عجوز عقيم ﴾ في المجمع الصرّة شدّة الصياح وهو من صرير الباب ويقبال للجماعة صرّة أيضاً . قال : والصك الضرب باعتماد شديد انتهى .

والمعنى: فأقبلت إمرأة إبراهيم سُنْكُ لما سمعت البشارة في ضجة وصياح فلطمت وجهها وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاماً؟

وقيل : المراد بالصرّة الجماعة وأنها جاءت إليهم في جماعة فصكّت وجهها وقالت ما قالت ، والمعنى الأول أوفق للسياق .

قوله تعالى : ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ الإشارة بكذلك إلى ما بشروها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم وبعلها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد ما يريد إلا بحكمة ، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر .

قوله تعالى : ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ إلى قوله ﴿للمسرفين﴾

الخطب الأمر الخطير الهام ، والحجارة من الطين الطين المتحجر ، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة .

والمعنى: ﴿قَالَ الْمُواهِمِ مُثَانَدُهُ ﴿قَمَا خَطَبُكُم ﴾ والشأن الخطير الذي لكم ﴿أَيُهَا المُرسَلُونَ ﴾ من الملائكة ﴿قالُوا ﴾ أي الملائكة لإبراهيم ﴿إِنَّا أَرسَلْنَا إِلَى قوم مجرمين ﴾ وهم قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ طيناً متحجراً سماه الله سجيلاً ﴿مسومة ﴾ معلمة ﴿عند ربك للمسرفين ﴾ تختص بهم لإهلاكهم ، والظاهر أن اللام في المسرفين للعهد .

قوله تعالى : ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ إلى قوله ﴿العـذاب الأليم﴾ الفاء فصيحة وقد أوجز بحذف ما في القصة من ذهاب الملائكة إلى لوط وورودهم عليه وهم القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية ، وقد فصلت القصة في غير موضع من كلامه تعالى .

فقوله: ﴿ فَوَاخْرَجَنَا ﴾ النح بيان إهلاكهم بمقدمته ، وضمير ﴿ فَيهَا ﴾ للقرية المفهومة من السياق ، و ﴿ بيت من المسلمين ﴾ بيت لوط ، وقوله : ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ إشارة إلى إهلاكهم وجعل أرضهم عاليها سافلها ، والمراد بالترك الإبقاء كناية وقد بيّنت هذه الخصوصيات في سائر كلامه تعالى .

والمعنى: فلما ذهبوا إلى لوط وكان من أمرهم ما كان وأخرجنا من كان فيها في القرية ومن المومنين فما وجدناغير بيت واحد ومن المسلمين وهم آل لوط وتركنافيها في أرضهم بقلبها وإهلاكهم وآية والله على ربوبيتنا وبطلان الشركاء وللذين يخافون العذاب الأليم من الناس.

قوله تعالى : ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ عطف على قوله : ﴿وتركنا فيها آية﴾ والتقدير وفي موسى آية ، والمراد بسلطان مبين الحجج الباهرة التى كانت معه من الآيات المعجزة .

قوله تعالى : ﴿ فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾ التولي الإعراض والباء في قوله : ﴿ بركنه ﴾ للمصاحبة ، والمراد بركنه جنوده كما يؤيده الآية التالية ، والمعنى : أعرض مع جنوده ، وقيل : الباء للتعدية ، والمعنى : جعل ركنه متولين معرضين .

وقوله : ﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ أي قال تارة هو مجنون كقوله : ﴿إن رسـولكم

الذي أرسل إليكم لمجنون﴾(١) ، وقال اخرى : هو ساحر كقوله : ﴿إِن هـذا لساحـر عليم﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَنَاهُ وَجَنُودَهُ فَتَبَذَنَاهُمْ فِي البِّمُ وَهُو مَلْيُم ﴾ النبـ فرح الشيء من غير أن يعتد به ، واليمّ البحر ، والمليم الآتي بما يلام عليه من ألامَ بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب .

والمعنى: فأخذناه وجنوده وهم ركنه وطرحناهم في البحر والحال أنه أتى من الكفر والجحود والطغيان بما يلام عليه ، وإنما خصَّ فرعون بالملامة مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذي قادهم إلى الهلاك ، قال تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ (٣) .

وفي الكلام من الإيماء إلى عظمة القدرة وهول الأخذ وهـوان أمر فرعـون وجنوده ما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الربح العقيم﴾ عطف على ما تقدمه أي وفي عاد أيضاً آية إذ أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الربح العقيم .

والسريح العقيم هي السريح التي عقمت وامتنعت من أن تتأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيـوان أو تصفية هـواء كما قيل وإنما أثرها الإهلاك كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿مَا تَذَرَ مِن شَيِّءَ أَتَتَ عَلَيْهِ إِلاّ جَعَلَتُهُ كَالْرَمِيمِ ﴾ ﴿مَا تَذَرَ ﴾ أي دما تترك» ، والرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ إلى قوله ﴿منتصرين ﴾ عطف على ما تقدمه أي وفي ثمود أيضاً آية إذ قيل لهم: تمتعوا حتى حين ، والقائل نبيهم صالح طلانة إذ قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ (٤) قال لهم ذلك لما عقروا الناقة فأمهلهم ثلاثة أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم وعتوهم لكن لم ينفعهم ذلك وحق عليهم كلمة العذاب .

وقوله : ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ العتوّ ـ على ما

(١) الشعراء : ٢٧ . (٣) هود : ٩٨ .

(٢) الشعراء : ٣٤ . (٤) هود : ٦٥ .

ذكره الراغب ـ النبوّ عن الطاعمة فينطبق على التمرد ، والمراد بهذا العتوّ العتوّ عن الأمر والرجوع إلى الله أيام المهلة فلا يستشكل بأن عتوّهم عن أمر الله كان مقدماً على تمتعهم ـ كما يظهر من تفصيل القصة ـ والآية تدل على العكس .

وقوله: ﴿ فَأَخَذَتُهُمُ الصَاعَقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ هذا لا يَنَافَي مَا فِي مُوضَعُ آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله: ﴿ وَأَخَذَ اللَّذِينَ ظَلْمُوا الصَّيْحَة ﴾ (١) لجواز تحققهما معاً في عذابهم.

وقوله : ﴿ وَهِمَا استطاعُوا مِن قَيَامٍ وَمَا كَانُوا مَنْتَصَرِينَ ﴾ لا يبعد أن يكون ﴿ استطاعُوا ﴾ مضمناً معنى تمكنوا ، و ﴿ من قيام ﴾ مفعوله أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله وهو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم .

وقوله: ﴿وما كانوا منتصرين﴾ عطف على ﴿ما استطاعوا﴾ أي ما كانوا منتصرين بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم ، ومحصل الجملتين أنهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم .

قوله تعالى: ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ عطف على القصص السابقة ، و ﴿قوم نوح﴾ منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله .

فهنىاك أمر ونهي كلف النباس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربهم ورب كل شيء دعاهم إلى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السلام حق من عند الله ومما جاءوا به الوعد بالبعث والجزاء .

قوله تعالى : ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ رجوع إلى السياق السابق في قوله : ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ الخ ، والأيد القدرة والنعمة ، وعلى كل من المعنيين يتعين لقوله : ﴿وإنا لموسعون﴾ ما يناسبه من المعني .

فالمعنى على الأول: والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنا لذو واسعة في القدرة لا يعجزها شيء ، وعلى الثاني: والسماء بنيناها مقارناً بناؤها لنعمة لا تقدّر بقدر وإنا لذو واسعة وغنى لا تنفد خزائننا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء

⁽۱) هود : ۲۷ .

فنوسع الرزق كيف نشاء .

ومن المحتمل أن يكون ﴿موسعون﴾ من أوسع في النفقة أي كثرها فيكون المراد توسعة خلق السماء كما تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم .

قوله تعالى: ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ الفرش البسط وكذا المهد أي والأرض بسطناها وسطحناها لتستقروا عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن ، وهذا الفرش والبسط لا ينافى كروية الأرض .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كُلِ شَيْءَ خَلَقْنَا رُوجِينَ لَعَلَكُم تَذَكُرُونَ ﴾ الزوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر : فاعل ومنفعل كالذكر والأنثى ، وقيل : المراد سطلق المتقابلات كالذكر والانثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن وقيل : الذكر والأنثى .

وقوله : ﴿لعلكم تـذكرون﴾ أي تتـذكرون أن خـالقها منـزه عن الزوج والشـريك واحد موحّد .

قوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين﴾ في الآيتين تفريع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته في الربوبية والألوهية ، وفيها قصص عدة من الأمم الماضين كفروا بالله ورسله فانتهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال .

فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع إليه من الكفر والعقاب الذي يستتبعه ، بـالإيمان به تعالى وحده واتخاذه إلهاً معبوداً لا شريك له .

وقوله: ﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهَا آخَرَ ﴾ كالتفسير لقول ه: ﴿ فَفُرُوا إِلَى اللهِ ﴾ أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الألوهية والمعبودية .

وقد كرر قوله : ﴿ إِنِّي لَكُم منه تَذْير مبين ﴾ لتأكيد الإنذار ، والآيتان محكيتان عن لسان النبي مُنْفَاتُهِ .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قول تعالى : ﴿وفي أنفسكم أفـلا تبصرون﴾ قـال : خلقك سميعاً بصيراً ،تغضب مرة وترضى مرة ،وتجوع مرة وتشبع مرة ،وذلك كله من آيـات الله .

أقول: ونسبه في المجمع إلى الصادق ﷺ.

وفي التوحيد بإسناده إلى هشـام بن سالم قـال : سئل أبـو عبد الله ع^{ينند}، فقيــل لـه : بما عــرفت ربك ؟ قــال : بفسخ العــزم ونقض الهمّ ، عزمت ففســخ عزمي ، وهممت فنقض همّي .

أقول : ورواه في الخصال عنه عن أبيه عن جـده عن أميـر المؤمنين عليهم السلام .

وفي الـدر المنشور أخـرج الخـرائـطي في مسـاوي الأخـلاق عن علي بن أبي طالب ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ قال : سبيل الغائط والبول .

أقول : الرواية كالسروايتين السابقتين مسوقة لبيان بعض المصاديق من طـرق المعرفة .

وفيه أخرج ابن النقور والديلمي عن علي عن النبي منظمة في قوله : ﴿وَفِي السَّمَاءُ رَزَقَكُم وَمَا تُوعِدُونَ﴾ قال : المطر .

أقول : وروى نحواً منه القمي في تفسيره مرسلًا ومضمراً .

وفي إرشاد المفيد عن علي عائدة في حديث : اطلبوا الـرزق فـإنـه مضمـون لطالبه .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي البختري قال: حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن النبي عنداله قال: يا علي: إن اليقين أن لا ترضي أحداً على سخط الله، ولا تحمدن أحداً على ما آتاك الله، ولا تذمّن أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجره حرص حريص، ولا يصرفه كره كاره. الحديث...

وفي المجمع ﴿فأقبلت امرأته في صرّة﴾ وقيل : في جماعة . عن الصادق ﷺ .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريـابي وابن المنذر عن علي بن أبي طـالب قال : الريح العقيم النكباء .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر مُؤَشِّكُ فقلت :

قول الله عز وجل ﴿ يَا إَبِلْيُسَ مَا مَنْعُكُ أَنْ تُسْجَدُ لَمَا خَلَقْتَ بِيَدِي ﴾ ؟ فقال : اليد في كلام العرب القوة والنعمة ، قال الله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدُنَا دَاوِدُ ذَا الْأَيْدُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَالسّماء بنيناها بأيدٍ ﴾ أي بقوة ، وقال : ﴿ وَأَيّدُهُم بروح منه ﴾ أي بقوة ، ويقال : لفلان عندي يد بيضاء أي نعمة .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي الحسن الرضا عليه خطبة طويلة وفيها: بتشعيره المشاعر عرف أن لا جوهر له ، وبمضادّته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضاد بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضاد النور بالظلمة ، واليبس بالبلل ، والخشن باللين ، والصرد بالحرور ، مؤلفاً بين متعادياتها ، مفرقاً بين متدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرّقها ، وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله : ﴿ من كل شيء جعلنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ .

ففرّق بين قبلوبعدليعلم أن لا قبل له ولا بعد له ، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها ، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿فَفَـرُوا إلى الله﴾ وقيل : معنــاه حجوًا . عن الصادق علِنـُكن .

أقول: ورواه في الكافي وفي المعاني بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر مانخة ولعله من التطبيق.

كَذُلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرً أَوْ مَحْنُونُ (٣٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا مَحْنُونُ (٣٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومِ (٤٥) وَوَا خِلَقْتُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ أَنْتَ بِمَلُومِ (٤٥) وَوَا خَلَقْتُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَآلْإِنَّسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُدِيدُ مِنْهُمْ مِّنْ رِزْقٍ وَمَا أُدِيدُ أَنْ الْجَنَّ وَآلْإِنِّسَ إِلَّا لِيعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُدِيدُ مِنْهُمْ مِّنْ رِزْقٍ وَمَا أُدِيدُ أَنْ لِلَّذِينَ يَطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو آلْقُوقِ آلْمَتِينُ (٨٥) فَإِنَّ لِلَّذِينَ طَلَمُوا ذَنُوبً أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلُ لِلَّذِينَ طَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبٍ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٩٥) فَوَيْلُ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) .

(بیان)

مختتم السورة وفيه إرجاع الكلام إلى ما في مفتتحها من إنكارهم للبعث الموعود ومقابلتهم الرسالة بقول مختلف ثم إيعادهم باليوم الموعود .

قوله تعالى : ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ أي الأمر كذلك ، فقوله : ﴿كذلك ﴾ كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم واختلافهم في القول .

وقوله : ﴿مَا أَتِّي الَّذِينَ مَنْ قَبِلُهُم ﴾ النح ، بيان للمشبُّه .

قوله تعالى : ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ التواصي إيصاء القوم بعضهم بعضاً بأمر ، وضمير ﴿به﴾ للقول ، والاستفهام للتعجيب ، والمعنى : هـل وصى بعض هذه الأمم بعضاً ـ هل السابق وصى اللاحق ؟ ـ على هـذا القول ؟ لا بـل هم قوم طاغون يدعوهم إلى هذا القول طغيانهم .

قوله تعالى: ﴿ وَتُولَ عَنهم قما أنت بِملوم ﴾ تفريع على طغيانهم واستكبارهم وإصرارهم على العناد واللجاج ، فالمعنى : فإذا كان كذلك ولم يجيبوا إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلا عناداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحجة وأتمت الحجة .

قوله تعالى : ﴿وَذَكُر فَإِنَ الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ تفريع على الأمر بالتولي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدال معهم ، والمعنى : واستمرّ على التذكير والعظة فذكر كما كنت تذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع أولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئاً ولا يزيدهم إلا طغياناً وكفراً .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَتَ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لَيْعَبِدُونَ ﴾ فيه التفات من سياق التكلم بالغير إلى التكلم وحده لأن الأفعال المذكورة سابقاً المنسوبة إليه تعالى كالخلق وإرسال الرسل وإنزال العذاب كل ذلك مما يقبل توسيط الوسائط كالملائكة وسائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد فإنه أمر يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد.

وقوله: ﴿ إِلا لَيْعَبِدُونَ ﴾ استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أن للخلقة غرضاً وأن الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً فقد قال: ليعبدون ولم يقل: لأعبَد أو لأكون معبوداً لهم.

على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته ، ومن جهة اخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهي ويستنتج منه أن له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه ، وأن لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل(١) وهو كمال للفعل لا لفاعله ، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك ، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسطاً .

فإن قلت : ما ذكرته من حمل اللام في ﴿ليعبدون﴾ على الغرض يعارضه قوله تعالى : ﴿لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (٢)، وقوله : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ (٣) ، فإن ظاهر الآية الأولى كون الغرض من الخلقة الاختلاف ، وظاهر الثانية كون الغرض من خلق كثير من الجن والإنس دخول جهنم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض وحملها على الغاية .

قلت : أما الآية الأولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف ، وأما الآية الثانية فاللام فيها للغرض لكنه غرض تبعي وبالقصد الثاني لا غرض أصلي وبالقصد الأول وقد تقدم إشباع الكلام في تفسير الآيتين .

فإن قلت: لوكان اللام في وليعبدون للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المسراد من الخلقة ، ومن المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عياناً أن كثيراً منهم لا يعبدونه تعالى وهذا نعم الدليل على أن اللام في الآية ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعبادة العبادة التكوينية كما في قوله: ﴿وَإِنْ مَنْ شَيْءَ إِلاَ يَسْبُح بَحَمِده ﴾ (٤)

(۲) هود : ۱۱۹ .

 ⁽١) فالله تعالى خلق الإنسان ليثيبه والشواب عائد إلى الإنسان وهنو المنتفع بـه والله غني عنه ، وأما غرضه تعالى فهو ذاته المتعالية وإنما خلقه لأنه الله عز اسمه . منه .

أو أن المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوي اختيار وعقل واستطاعة ، وتنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعلية مجاز شائع كما يقال : خُلق البقر للحرث ، والدار للسكنى .

قلت: الإشكال مبني على كون اللام في الجن والإنس للاستغراق فيكون تخلف الغرض في بعض الأفراد منافياً له وتخلفاً من الغرض ، والظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في النوع في الجملة تحقق للغرض لا يضره تخلفه في بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلاناً للغرض ، ولله سبحانه في النوع غرض كما أن له في الفرد غرضاً .

وأما حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامة المخلوقات موجب لتخصيصه بالجن والإنس مضافاً إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء وذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية.

وأما حمل العبادة على الصلوح والاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن والإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدان لها أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح والاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعلية التي يتعلق به الصلوح والاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فقد تعلق الغرض أولاً بفعلية عبادتهما ثم بالصلوح والاستعداد لمكان المقدمية .

ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أولاً وبالذات نفس العبادة ثم الصلوح والاستعداد فيعود الإشكال لوكان هناك إشكال .

-فالحق أن اللام في ﴿الجن والإنس﴾ للجنس دون الاستغراق ، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد ، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المشول بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضة قبال العزة المطلقة والغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى : ﴿قل ما

يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم ♦(١) ، حيث بدل العبادة دعاء .

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيمه وجهه إلى مقام ربه ، وهذا هو مراد من فسّر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة .

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعـن كل شيء ويذكر ربه .

هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقَتَ الْجَنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لَيْعَبِدُونَ﴾ ولعل تقديم الجن على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قبال تعالى : ﴿وَالْجَبَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبِلُ مِنْ نَارُ السّمُومِ﴾(٢) ، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عبائد إليه لا إلى الفاعل على ما تقدم .

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبده كما يفيده أيضاً قوله : ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون ﴾ الإطعام إعطاء الطعام ليطعم ويؤكل قال تعالى: ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ (٢) ، وقال: ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ (٤) ، فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلق عناية خاصة به هي أن التغذي أوسع حوائج الإنسان وغيره وأخسها لكونه مسبوقاً بالجوع وملحوقاً بالدفع .

وقيل: المراد بالرزق رزق العباد والمعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا عبادي الذين أرزقهم وما أريد أن يطعموني نفسي .

وقيل: المراد بالإطعام تقديم الطعام إليه كما يقدم العبد الطعام إلى سيده والخادم إلى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق وبالإطعام تقديم ما حصلوه والمعنى: ما أريد منهم رزقاً يحصلونه لي فارتزق به وما أريد منهم أن يقدموا إلى ما أرتزق به وأطعمه.

قوله تعالى : ﴿إِنْ الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ تعليل لقوله : ﴿مَا أُريد منهم

الشعراء: ۷۹ (۳) الشعراء: ۷۹ (۳) الشعراء: ۷۹ (۱)

(٢) الحجر: ٢٧ . (٤) الإيلاف: ٤ .

من رزق﴾ المخ ، والالتفات في الآية من التكلم وحده إلى الغيبة لإنهاء التعليل إلى اسم الجلالة الذي منه يبتدىء كل شيء وإليه يرجع كأنه قال : ما أريد منهم رزقاً لأني أنا الرزاق لأنى أنا الله تبارك اسمه .

والتعبير بالرزاق ـ اسم مبالغة ـ وكان الظاهر أن يُقال : إن الله هو الرزاق للإشارة إلى أنه تعالى إذا كان رازقاً وحده كان رزاقاً لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله : ﴿وَمَا أَنَا بَطْلام للعبيد﴾ .

وذو القوة من أسمائه تعالى بمعنى القوي لكنه أبلغ من القوي ، والمتين أيضاً من أسمائه تعالى بمعنى القوي .

والتعبير بالأسماء الثلاثـة للدلالة على انحصـار الرزق فيـه تعالى وأنـه لا يأخـذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم .

قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَلَذِينَ ظُلَمُوا ذَنُوبًا مثل ذَنُوب أَصحابِهم فَلا يستعجلون﴾ الذنوب النصيب، والاستعجال طلب العجلة والحث عليها، والآية متفرعة على قوله: ﴿ وَمَا خَلَقَتَ الْجَنْ وَالْإِنْسِ إِلَا لِيعبدونَ ﴾ بلازم معناه.

والمعنى: فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله تشملهم فإن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضية الهالكة فلا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وأيّان يوم الدين .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده وهمو في الحقيقة رجموع من سياق الغيبة الذي في قوله : ﴿ إِن الله هو الرزاق﴾ الخ ، إلى التكلم وحده المذي في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَتَ ﴾ الخ ، لتفرع الكلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَوِيلَ لَلَذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمُهُمُ اللَّذِي يُوْعُدُونَ ﴾ تفريع على قاوله : ﴿ فَإِنْ لَلَّذِينَ ظَلْمُوا ذَنُوباً ﴾ النح ، وتنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يجعل لهم بعضه ، وهو يوم ليس لهم فيه إلا النويسل والهلاك وهو يومهم الموعود .

وفي تبديل قوله في الآية السابقة للذين ظلموا من قـوله في هـذه الآية : ﴿للذينَ كفروا﴾ تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر .

(بحث روائي)

في المجمع وروي بالإسناد عن مجاهد قال: خرج على بن أبي طالب معتماً مشتملاً في قميصة فقال: لما نزلت ﴿فتولَّ عنهم فما أنت بملوم لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي: ﴿فتولُ عنهم للما نزل ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ طابت نفوسنا ، ومعناه: عِظْ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم ، عن الكلبي .

أقبول : ورواه في الدر المنشور وروي أيضاً ما في معنـاه عن ابن راهـويــه وابن مردوية عنه ﷺ .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن أبي عمير قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر طَلَخُهُ: ما معنى قول رسول الله وَاللّهِ عَلَيْتُ : اعملوا فكلَّ ميسَّر لما خلق له ؟ فقال : إن الله عز وجل خلق الجن والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله عز وجل : ﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون ﴿ فيسُر كلاً لما خلق له فويل لمن استحبَّ العمى على الهدى .

وفيه بإسناده إلى أبي بصير قبال : سألت أبا عبد الله عليه عن قبول الله عز وجل : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ قال : خلقهم ليأمرهم بالعبادة .

أقول: وروى القمي في تفسير مثله مرسلاً ومضمراً ، وقد مرَّ في تفسير الآيـة ما يتضح بـه معنى هذه الـروايات ، وأن هنـاك أغراضـاً مترتبـة : التكليف والعبـادة والمعرفة .

وفي تفسير العياشي عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله على قال : سألته عن قول الله : خلقهم للعبادة . عن قول الله : خلقهم للعبادة . قول الله : فوله : فولا يـزالـون مختلفين إلا من رحم ربك ولـذلـك خلقهم فقال : نزلت هذه بعد ذلك .

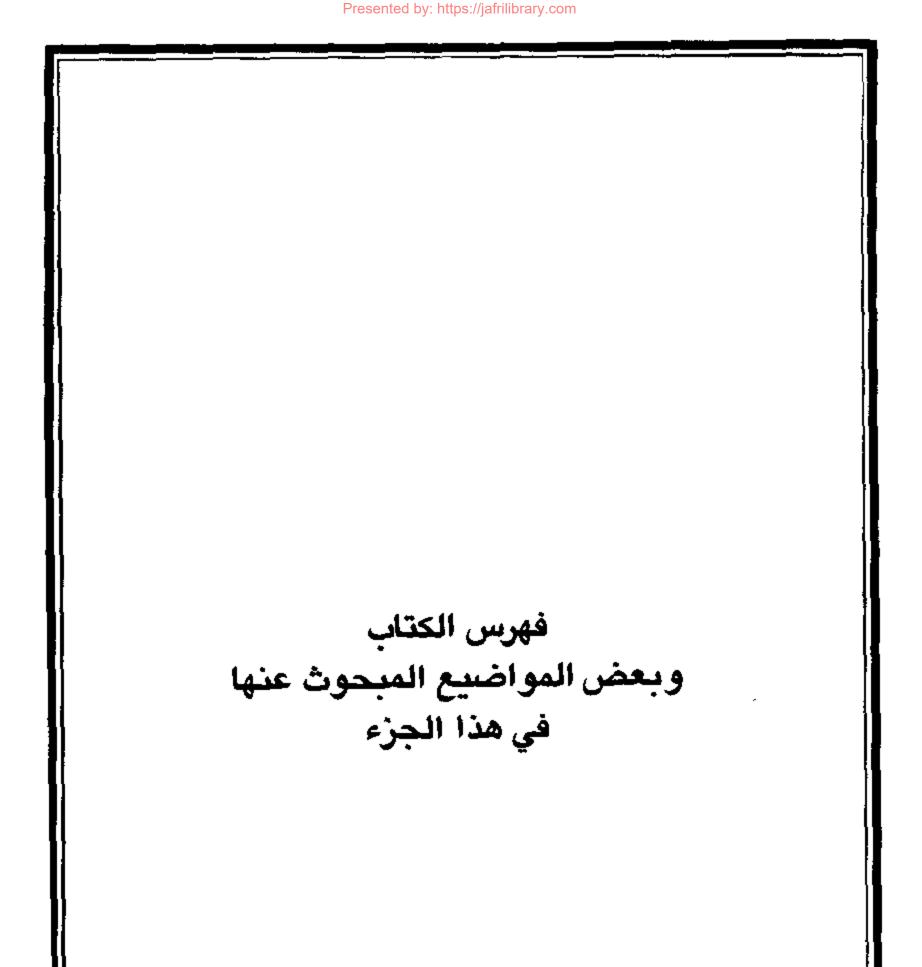
أقول: أي نزلت ﴿ولا يـزالون﴾ المنح ، بعد ﴿وما خلقت﴾ النح ، يسريك النسخ ، وفي تفسير القمي : وفي حـديث آخر هي منسوخة بقوله : ﴿ولا يـزالون مختلفين﴾ والمراد بالنسخ البيان ورفع الإبهام دون النسخ المصطلح ، وكثيراً ما ورد بهذا المعنى في كلامهم عليهم السلام كما أشرنا إليه في تفسير قوله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ الآية (١) .

والمراد أن الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصة المترتبة على العبادة وهي السعادة الخاصة بالمعرفة .

وفي التهـذيب بإسنـاده إلى سديـر قال: قلت لأبي عبـد الله عليه أي شيء على الرجل في طلب الرزق؟ فقال: إذا فتحت بابك وبسطت بساطـك فقد قضيت ما عليك.

ـ تمَّ والحمد للَّه ـ

(١) البقرة : ١٠٦ .



الصف	نوع البحث	موضوع البحث	السورة
٥			سورة الشوري
۸۳			سورة الزخرف
۱۳۱			سورة الدخان
١٥٦			سورة الجاثية
۱۸۸			سورة الأحقاف
197	فلسفي	بحث فلسفي ودفع شبهة	الآية ٩
770	-	ت - ت	سورة محمد
700			سورة الفتح
774	قرآني وغيره	كلام في الإيمان وازدياده	الآية ع
۳۰۸	•		سورة الحجرات
	قرآني	كلام في معنى الأخوة	I \• - A
44.	واجتماعي		
45.	-		سورة ق
411			سورة الذاريات
٣٨٠	عقلي	كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق	- 7 8